رسائل ابن عربي

ذخائر الأعلاق
شرح
ترجمان الأشواق
(٧)

تحقيق وتقديم
سحبان أحمد مروّة

الانتشار العربي

تحقيق وتقديم
سحبان أحمد مروة

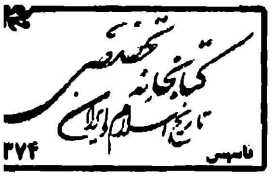

رسائل ابن عربي

ذخائر الأعلاق
شرح
ترجمان الأشواق

محيي الدين بن عربي

Arab Diffusion Company

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

رسائل ابن عربي

ذخائر الأعلاق
شرح
ترجمان الأشواق

تحقيق وتقديم
سحبان أحمد مروة

المجلد السابع

ص.ب. 113/5752

E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت-لبنان
هاتف ٦٥٩١٤٨-٩٦١١ فاكس ٦٥٩١٥٠-٩٦١١

ISBN 9953-476-54-3

الطبعة الأولى ٢٠٠٦

كتاب

ذخائر الاعلاق

شرح

ترجمان الاشواق

تأليف الشيخ الاكبر والكبريت الاحمر الامام المجتهد العارف
بالله تعالى سيدى محيي الدين بن العربي قدس الله
سره ونفعنا به وبعلومه آمين

وقد ناظر طبعه الفقير الى الله تعالى السيد

محمد سليم الانسى

مدير هذه المطبعة

حقوق الطبع عائدة الى ادارة المطبعة الأنسية

برخصة نظارة المعارف الجليلة سنة ١٣١٠ نومرو ٢ و ٢١٠

طبع بالمطبعة الأنسية في بيروت سنة ١٣١٢ هجرية

إهداء

إلى يسار أحمد عبد الكريم مروة
التي أعطت فكرمت انتسابنا إليها وفضحت عجزنا وقصورنا

المقدمة

خطر لي ، وأنا أكابد مشقة قراءة ابن عربي ، محاولاً التمرّس بلغته ورموزه والتواء معانيه عن ألفاظها وتمحّله الفظيع ، أحياناً ، في صرف اللفظ عن معناه وفي تلبيس المعنى على القارئ أو السامع ، وفي حجب المكشوف وكشف المحجوب ، أقول خطر لي أن أناديه بلسان الشابّ الظريف ، وهو شاعر أحبّه كل الحب ، فأقول له :

لا تخف مـــا فـــعلت بك الأشـــواق
اشـــرح هواك فكلنـا عـــشّـــاق
فـعـــسى يُعـينك من شكوت له الهـوى
في حَـــمْله فـــالعـــاشـــقـــون رفـــاق

بيد أنني سرعان ما علمت أن الرجل ليس هناك وأن ما يقوله في هذا التفسير ليس إلاّ دعوى عريضة وعبادة للذات وطوافاً منهكاً بالأنا ووعورها ، وأيقنت أن الرجل وهو الذي خاطبته طفلته - وهي إحدى كراماته ! ! - وأفتت له في الإيلاج من دون قذف ، هذا الرجل يصحّ فيه ما قاله جبران عن نفسه في رسالة إلى صاحبته : «إنّما أنا نبأ كاذب» .

بلى ، إن هذا التفسير وهذا النظم لنبأ كاذب ليس تحته شيء من الحق ولا الحقيقة .

لطالما سألت نفسي وكنت بصدد التقديم لشعر ابن الفارض : «ما سرّ قصور الشعر العربي المتصوّف عن بلوغ تلك الحالات السامية التي بلغها نظيره المكتوب بالفارسية؟ وما سرّ أن فقيهاً ، أنفق جلّ العمر في الفقه ، كجلال الدين الرومي ، يلبط الفقه والقصص وينصرف بكليته إلى السماع والذكر مولهاً بعشق شيخه الغريب الجميل شمس تبريز ويترك للدنيا أجمل قصائد الحب في حين يظلّ الشعر العربي يدور

في فجوات بحرية هائلة خلفها وراءهم شعراء عظام مخروا عباب اللغة بما هي ترجمان حضارة بل حضارات وثقافات ، ومرّوا بعد أن أبدعوا جمالاً لا يموت؟!

الكلام على ابن عربي شاعراً ، وأنا لست معنياً هنا إلاّ بهذا الأمر ، قبل كلّ شيء ، وذلك لأنني لا أعرف كيف أميّز بين شعر صوفي وآخر غير صوفي ، فالتصوف عندي ، وإن كان طريقةً ، إلا أنه ، في محصّلة الأمر ، مرآة حقيقة ، والحقيقة هي أننا كلنا متصوفة ، بيد أنها المقامات تختلف ، فكلنا يهوى ويستبد به الهوى ، أيّاً كان موضوع ذلك الهوى وأياً كانت لغته ، فللهوى سلطان مطلق ، وفي ظل ذلك السلطان العظيم ينبجس الشعر ، وتبرق الأحوال التي إذا دامت صارت مقامات ، ولا تخدعن كثرة الأطياف ، التي تراود المرء عن فطنته ، أحداً فيحسب في ما أقول إطلاقاً لا سند له . ولعل العطّار العظيم ، في منطق الطير ، قد جلى هذه الفكرة خير جلاء عبر هدهده وجماعة الطيور وحسبك ردّ البلبل رداً يُغني :

لا طاقة للبلبل بالسيمرغ

يكفي البلبل عشق الوردة

كيف لي أن أميّز بين شعر صوفي وآخر غير صوفي ، وأنا أرى شعراً للبهاء زهير يُعزى إلى ابن الفارض ، وشعرا لابن الفارض يعزى للبهاء زهير ، وشتّان ما بين الاثنين ، أقلّه سلوكاً أو صورة في مخيلة الناس؟ وما بال خمريات ابن الفارض مثلاً لا تسفل كثيراً بل توازي أحياناً كثيرة خمريات الحسن بن هانئ ، التي يمكن لابن عربي ، أو غيره ، أن يفسّرها أو يرمز بألفاظها إلى ما شاء وكيفما شاء ، دون أن يصمه أحد بالافتئات أو التمحّل أو حتى الكفر .

إن للشعر مصدراً واحداً ، نبعاً واحداً ، ولا أحسب أننا نعرف تصويره بما فيه غنى أو بما يجزئ ويكفي . فالشعر يطلع من حيث يطلع الإيمان ، والإيمان شعور عارم هو في حقيقة أمره أبعد ما يكون عن دلالات المصطلح الحالية المبتلاة بالتأثيم والتكفير ناهيك بابتلائها بالتسليم الأرعن من غير تمحيص لا بوجود واجب الوجود بل بتفاهات تتكاثر

في هذه الأيام الظريفة كالفطر غبّ وابل المطر ، وهي تفاهات أحسب أن لا الله ولا الشيطان يحمداها ، إنه شعور عميق وساخن بالانتماء والتداخل والتمازج في الوجود كله حتى يستحيل الإحساس بالربّ أو بالمحبوب أو بأي شيء مما تقتحمه العين من الموجودات واحداً وعلى درجة واحدة أهلاً للعشق وللفناء وللذوبان فيه وهي الحالة التي أضاءت خفاياها رابعة العدوية في حبّيها وهما حبّ الهوى والحب الآخر ، حب الأهلية والجدارة الذي بلغ من سلطانه أنه كشف الحجب لكي يُرى وهو الذي لا يُرى فتراه في كل ما يحيط بها وتستشعره في كل خلجاتها . وأمّا حبّ الهوى فحبٌّ لا يلتفت إلى كفل ولا إلى قدٍّ أو خصر ولا حاجة بصاحبته إلى كثيب من رمل لتفسّر هول الكفل وعظمته ، ولا إلى سنام البعير لتشير إلى وفرة الدهن فيه ، ومن ثم إلى اعتبار ذلك الكفل الهائل ممتلئاً نوراً مادام ممتلئاً دهناً كالسنام ، فالدهن «ممدٌ الأنوار للبقاء» وفي الحقيقة فإن عشق رابعة يتجاوز الجسد إلى الروح البشري حتى أنها تعيب في واحدة من أعظم التفاتاتها انشغال أهل الجنة بالملاذ الحسية من فضٍّ أبكار ووطء غلمان وسباحة في أنهار الخمر التي لا تغتال العقل ، لتقول ولو مداورة أن أوصاف الجنة إنما تدخل من باب المجاز وأن الجنة لحظة دنوّ ووصال وفناء ليس إلا وهو ما عابه عليها ابن عربي قائلاً : «إنها ما عرفت وإنها لمسكينة»!! .

« . . .قيل لرابعة العدوية - رحمة الله عليها - : «كيف رغبتك بالجنّة؟» ، فقالت : «الجار قبل الدار!» (عن الإحياء للغزالي) .

«وقال سفيان يوماً في حضرتها : «واحزناه!» ، فقالت : «إنك لتكذب! إن كنت محزوناً ما هنأك عيش» (عن عبد الرحمن بدوي عن عبد الرحمن الجامي في نفحات الأنس) .

«ويروى أن جماعة من الصالحين ذهبوا لزيارة رابعة . . . ثم سألوها : «إن الله تعالى قد توّج رؤوس أوليائه بنعمة الكرامات ومنطقهم بها ، ولكن هذه المقامات لم تظفر بها امرأة فكيف بلغت هذه المرتبة؟» ، فأجابت : «ما قلتموه صحيح ، لكن

الكبرياء والغرور وادعاء الألوهية لم تصدر مطلقاً عن امرأة ولم تصر امرأة فاسقة لامرأة أخرى» (عبد الرحمن بدوي في رابعة العدوية) .

وعلى سيرة رابعة التي تعشق لا رغبة في جنة ولا خشية من نار بل لأن محبوبها أهل لذلك الحب الصرف ، فإن الشيخ يحبّ المحبوب نفسه ويقول فيه في الفتوحات :

يـــا مـــن يـــرانـــي ولا أراه

كـــم ذا أراه ولا يـــرانـــي

ثم يفسّر كل ذلك فيقول :

يـا من يـراني مـجـرمـا

ولا أراه آخـذا

كـم ذا أراه مـنـعـمـا

ولا يـرانـي لائـذا

وهذا حق في حال كحال عامّي - إن جاز القول - مثلي أو مثل أي واحد من السواد الأعظم ، ولكن في حالة رجل كالشيخ فإن هذا الشعور الفادح بالإثم يجب أن لا يكون ثمّة ، وأرجو هنا ممن شاء أن يرجع إلى رجل كالبسطامي أو الشبلي الذي أعلن مراراً تمسّكه بالشريعة ، ولكنه رأى أن بصقة منه تطفئ سعير جهنم وأن الجنة لعبة صبيان ليس إلاّ . ولكن البسطامي والشبلي والحسين الحلاج والجنيد إنما هم رجال أفذاذ أخذهم عشقهم من أناهم واشتغلوا على الزنارين ، الظاهر والباطن ، حتى قطّعوهما ورأوا الخلق موتى فكبّروا أربع تكبيرات ومضوا .

الزنّار الباطن هو النفاق الخفي اللطيف الذي أودى بالكثير من حكايات الحب ، وحسبي هذا قولاً يفهمه من شاء .

لقد أطلت الكلام عن رابعة ، ومرادي القول إن البون شاسع جداً بينها وبين

الشيخ ، فالشيخ عقل وفكر وأكاد أقول فلسفة ، أي أنه نظام فكري ذهني متكامل له لغته الخاصة والمخصصة للخاصة ، أما رابعة فهي السلوك وهي العاشق وهي الشاعر وهي لنا جميعاً بقدر ما هي للمحبوب ، ومن شاء فليقارن .

أنا أعلم أن الشيخ في عالم العرفان مثله مثل أبي الطيب في عالم الشعر ، كان مالئاً الدنيا وشاغلاً الناس ، وأعلم أنه تعرّض للكثير من التهم الفادحة وأخص منها تلك التي وصمه بها الفقيه ابن تيميه والذي جمعه في قران واحد مع أشخاص لا يربطه بهم رابط ووصمه بالكفر والضلال ، بل رآه أشد كفراً وضلالاً من الشيعة والنصارى . وأعرف أن الشيخ لم يسلم حتى من لسان منافق كابن خلدون ، وأعلم أن رجالاً كباراً قد هبّوا لنصرة الشيخ والذود عنه وقد فصّل الشعراني أراءهم ومواقفهم ، ولكن كل هذا لا يعنيني الآن فأنا لست بصدد الكلام عن عقيدة الشيخ ولا عن إسلامه ولا عن إيمانه فهذا مقام لست أهلاً للتفكير بله الخوض فيه . إنه حقّ من حقوق الله لا من حقوق قاصر مثلي ، بيد أن الشعر هنا مرادي وعنه مدار حديثي على قلّة بضاعتي في هذا المضمار ، ولكن ولأن الشعر وفهمه وتدبّره والعيش في عالمه مسألة ذوقية خاصة فإنني أرى لنفسي الحق في الإعراب عما أحس به وأراه .

ينسج الشيخ شعره على منوال من سبقه وهو مولع أشد الولع بمهيار الديلمي ، الذي كان شعره هو الأول في حلقات السماع بحسب ما أورد الشيخ في محاضرة الأبرار ، وفي الحقيقة فإن شعر الشيخ كاد أن يكون ظلاً لشعر مهيار الذي أسرف في بذر أسماء الأمكنة أشد الإسراف كلعلع وقبا وذات الأجرع وذات الإضا والمحصّب وغير ذلك ، وأعترف هنا أنني رجعت إلى الكتب المعنية بأسماء الأماكن دائماً لأنني كنت أبحث عن التجربة الخاصة المرتبطة بتلك الأماكن ولكن دون جدوى ، مع العلم بأن شاعراً كعمر بن أبي ربيعة مثلاً لا يورد اسم المكان إلا مقروناً بالتجربة الخاصة التي تغني عن الرجوع إلى الكتب ، فالعقيق والمحصّب وعرفات كلها أسماء اكتسبت دفئاً خاصاً من الصدق في رواية الحدث ، فهي ملعبه وساحته ، بصرف النظر عن الرأي «الشرعي»

بأخلاقية ذلك الحدث . وكذلك قيل في النميري وفي امرئ القيس بل وفي مطيع بن إياس الذي استوحاه الشيخ في قصيدتين إحداهما القصيدة الأخيرة رقم ٦٠ والتي يقول مطلعها :

ألا يـــــا بــــــانـــــــة الـــــوادي
بشـــــــاطي نـهـــــــر بـغـــــــداد

وتقابلها قصيدة مطيع التي يقول مطلعها :

ألا يـا ظـبـــــــــيـــــــــة الـوادي
وذات الجـــــــــــــــســـــــــد الـراد
وزيـــن المـــصـــــــــــــــــر والـدار
وزيـــــــن الحـــــــي والـــــنــــــــادي

وواضح أن الذي أعجب الشيخ إنما هو إيقاع القصيدة الذي يناسب حفلات السماع والذكر .

أما القصيدة الثانية فتنسج على منوال قصيدة مطيع في نخلتي حلوان ، على رغم أن الشيخ قد ضمّنها شعراً لابن أبي ربيعة في قران الثريا بسهيل :

أســـــعـــــــداني يا نـخلـتي حـلوان
وابكيــــــا لـي مـن ريـب هـذا الزمـــــان

وتقابلها قصيدة الشيخ رقم ١٩ والتي يقول مطلعها :

مَــــرَضي من مـــريضـــــة الأجـــفـــــان
علِّـلانـي بـذكـــــــــــرها علِّـلانـي

وأحسب أن الشجن العظيم في قصيدة مطيع كان دافع الشيخ للنسج على منوالها ، بيد أنه من النافل القول إن البون شاسع بين القصيدتين .

ولكن ما لنا ولهذا كله ، لم لا نعود إلى أصل الحكاية كما رواها الشيخ في فذلكة

الترجمان ، وأصل الحكاية هو أن الشيخ قد تعرّف في مكّة إلى فتاة هي ابنة فقيه رآها فأعجب بها ، فهي من العالمات العابدات وإلى العلم والعبادة تجدها تحتكر كل أفعل التفضيل في الظرف والتّقى والفصاحة وتزري بكل من ضُرِبَ به المثل في الكرم أو البيان أو الوفاء ، بيد أن العهد بها لم يطل فاستبد بالشيخ الشوق والوجد ونظم الترجمان ، ترجمان أشواقه وأذاعه على الخلق ولكن سرعان ما بلغت مسامعه أقوال عن رجال فضلاء لم يفهموا قصده ونحوا بأشواقه منحى أزرى بقدسيتها فهبّ ليدفع عن نفسه تهمة الغزل والنسيب مفسّراً شعره تفسيراً ذهب كل مذهب في صرف اللفظ عن معانيه أو في الاشتقاق من اللفظ ، وقد يكون معرّباً اشتقاقات يحسد عليها كقوله إن التوراة من إبراء الزند أي إخراج ناره ، ناهيك بإعطاء اللفظ المعروف معنى بل أحياناً أكثر من معنى لا يمكن لأحد أن يقبل بها دون مضض ، فالكاعب وهي الفتاة التي برز نهدها تصبح حكمة إلهية والحضرة اللدنية تصبح مريضة الأجفان وغدائر الشعر تصبح أدلّة وبراهين والساق يصبح توراة والتوراة واحدة من قوائم العرش الأربعة ، إلى ما هنالك من ألفاظ أدرجها الدكتور زكي نجيب محمود في ثبت طويل أمتد مساحة طويلة ينسى معها القارئ الآنسة الفاضلة ، بل قل يستحيل عليه أن يتذكّر جمالها الآسر ومن ثم الشعور بالحنين إليها وبالتعاطف مع العاشق المولّه ، بل إن ثمة ما هو فوق ذلك وهو أن الآنسة ابنة الشيخ مكين الدين لا وجود لها في الديوان ، اللهم إلاّ في مقدمته ، وحتى هناك تجد أن صورتها ليست ذات شأن فهي هناك ككل شعراء يتيمة الدهر كما رسم صورتهم الثعالبي ، فهم نوادر عصر ونكت زمان لا يجود بهم الدهر إلا قليلاً ، إلى آخر ما هنالك من عبارات مصابة بالتضخم الشديد .

اللهم عافنا من عمى البصر والبصيرة ! لقد بحثت عن تلك السيدة الفاضلة المحبوبة فلم أجدها وبحثت عن الشوق الذي يجرفك تعاطفاً وتماهياً فلم أحس به مع أنه يأسرني في قصائد وأشعار لشعراء غير الشيخ ، وإذا كان المراد من هذا الترجمان تفسيره فإنني أرى أن الشيخ قد كلف النفس ما لم يكلّفها الله به ، وأحسب أنه لو انكبّ

على شعر غيره لرأى أن التفسير يصاقب النص ويوائمه أكثر مما هي الحال عليه هنا ، ولا أريد الاقتصار على شعر المتصوفة بل لقد كان بوسع الشيخ تناول شعر المجنون أو العباس بن الأحنف أو بشار بن برد أو غيرهم ويفسّره التفسير الباطني الذي يراه ، ولا أحسب أنه كان سيجانب الحق والحقيقة وذلك لأن حد الشعر هو الإيمان ؛ الإيمان بالحب وبالمحبوب ، سواء كان هذا المحبوب هو الله أم ليلى العامرية أم تلك التي يزيدك وجهها حسناً كلما زدته نظراً كما رأى العباس بن الأحنف .

وحتى لا يصح فينا ما جاء على لسان أعرابي حصيف مخاطباً الخليفة المنصور حين سأل الأعراب أن يحمدوا الله لأنه لم يبتلهم بالطاعون ، فقال له : «أحشفاً وسوء كيلة؟ الله أكرم من أن يبتلينا بالاثنتين معاً الطاعون والخليفة الجائر!» ، أقول لو أن الشيخ لم يسرف أشدّ الإسراف في مراقبة مشاعره الخاصة ولو أنه لم يغالِ في خوف ما قد يقال في حقه لترك لنا شعراً جميلاً وحكاية حب جميلة ولكنّا جامعنا معه مثله الكواكب كلها ، ولكنه على عكس غيره من المتصوفة أقام على قلبه رقيباً ظالماً ولجم فؤاده بلجام من حديد فما سمعنا ضربات ذلك الفؤاد ولا خفقاته بل رأينا قافلة من إبل الألفاظ تسير في اتجاه واحد يحدو بها لا الأمل ولا الرغبة ولا الرجاء بل «أنجشة الحادي» ، وحتى حين فسّر نظمه ازداد البعد عن المعشوق ويشهد الله أننا ما ازددنا دنواً منه أي من الله وكيف تدنو من ذلك الجمال الكلي وكلّك مشغول بما يشبه رقعة للكلمات المتقاطعة؟

وخلاصة القول أن ما سلم وظلّ على الشفاه من شعر الشيخ هو كله شعر الشيخ ولا شعر آخر له ، وأعني قوله الشهير :

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة

لماذا؟ لأنه لسان حال القلب وأنا لا أشك في حب الشيخ ولكنني كبير الشك في صدقه في التعبير عن هواه ، وكيف يكون صادقاً من يخاف سوء التفسير وخبث الظن ورداءة التأويل في مقام لا يجوز فيه أن يلتفت العاشق إلى غير المعشوق غير آبه بمن

سماهم أخوة له في السلوك والخيار أنهم موتى لا يجوز عليهم إلا التكبير ليس إلاّ

لاحظ الدكتور زكي نجيب محمود أن الشيخ : «كان شاعراً في ترجمان الأشواق ثم ناقداً ، نظم قصائده ، ثم حدث له من الظروف ما حمله على تفسيرها ، أعني على أن يرجع بما هو وارد فيها من رموز وصور إلى الأصل الباطني الذي كان باعثاً على خلق تلك الرموز والصور ، ولو وقف ابن عربي في الحالتين : حالة كونه شاعراً شعَرَ فنظم ، وحالة كونه ناقداً مفسِّراً يرد النظم ورموزه إلى منبعه الشعوري الخبيء ، أقول إن ابن عربي لو وقف في هاتين الحالتين موقفاً واحداً ، لجاء سيره من الداخل إلى الخارج متطابقاً مع سيره من الخارج إلى الداخل» .

وتعلّق الدكتورة سعاد الحكيم على ما تقدّم بالقول : «وغنيٌّ عن البيان أن الرمز الشعري يختلف عن اللفظ النثري الاصطلاحي . لا نقول ذلك لنحدّ من قيمة استنتاجاته (أي الدكتور محمود) بل لنؤكد أن لغة ابن عربي الاصطلاحية لا يحصرها كتاب شعري هو ترجمان الأشواق ، بني أساساً على الرمز كما يقول ابن عربي في مقدمته . . . ونقول إن الرمز والترميز والإشارة عند ابن عربي في ترجمان الأشواق وفي غيره من الكتب الكثيرة ، يُعتبرُ طريقة في التعبير وليس لغة . .» .

أقول : أما القول بأن الشيخ كان شاعراً شعر فنظم فهذا مقبول إلى حد ما ، فالشيخ قد نظم وجاء بقصائد وأبيات ولكن دون أن يكون هناك أي أثر للشعور الخاص بل إن الأثر الوحيد الموجود إنما هو أثر الصنعة والتقليد البدائي ، فالذي بين يدينا ليس إلا جملاً عمّت حتى خمّت من البضاعة التي لطالما استعملت لتزيين مطالع القصائد حتى ولو كانت قصائد شعر في ممدوح أهون على التاريخ من قلامة ظفر .

وأما القول بأن الشيخ قد حدث له من الظروف ما حمله على تفسير شعره وردّ ما فيه من رموز وصور إلى المنبع الشعوري الخبيء ، فإنني لم أرَ بل إن الدكتور محمود نفسه لم ير دائماً ذلك المنبع حتى ولو من بعيد ، وعندي أن الشيخ كان يرمي أصلاً إلى التفسير قبل النظم الذي جاء مشابهاً لألفية ابن مالك إلا قليلاً .

أما قول الدكتورة الحكيم بأن الرمز والترميز والإشارة عند الشيخ في الترجمان وفي غيره من الكتب يعتبر طريقة في التعبير وليس لغة ، أقول إن هذا الرأي هو الصائب حقاً ، فابن عربي ابتكر لغة ولكن ليس هنا لأنه اقتفى هنا وقلّد بعكس ما فعل في الفصوص والفتوحات وغيرهما من رسائل ونصوص والدكتورة قد توفّرت على تلك اللغة وتيك الرموز والإشارات توفّراً تجاوز حدود الجهد الإنساني .

كم ذا تموّه بالشعبين والعَلَم
والأمر أوضح من نار على علم
وكم تعبّر عن سلع وكاظمة
وعن زرود وجيران بذي سلم
ظللت تسأل عن نجد وأنت بها
وعن تهامة ! هذا فعل متهم

هذا شعر لابن سبعين وهو عندي بمثابة رسالة خاصة إلى الشيخ ومن قبله إلى مهيار الديلمي دون غيره من الشعراء الذين استوحاهم الشيخ في ترجمان أشواقه ، ولعل الذي جمع بين مهيار والشيخ إنما هو غلو مهيار في عقيدته الجديدة وإفراطه في تعريب شعره مستخدماً ذلك الكمّ الهائل من أسماء الأماكن وكأنه كان يتبارى مع من سبقه من الشعراء محاولاً تكريس ذاته عربياً صرفاً لا عربياً من قوارير على رأي بشار ، وكانت تلك الأسماء كلها محببة عند المتصوفة لأنها ترمز كلها أو جلها إلى الأماكن المقدسة . وربما كان السبب الثاني لتعلّق الشيخ بمهيار يرجع إلى نبرة الفقد والحنين ، ولو كان لفظياً ، الطاغية على الشعر الشيعي بعامة وعلى شعر مهيار بخاصة ، ولاسيما أن ذلك الحنين ليس إلى وجه محبوب أو إلى لحظات تجربة مضت بل إلى أماكن تحدد في مجموعها مدار ومسرح السيرة النبوية ، ومعلوم حتماً أي مقام للنبي وسيرته في قلب كل مسلم وفي وجدان كل متصوف . بيد أن الحنين والشوق والوجد لا يكفي إذا لم تكن أدوات الإعراب عنه كاملة وقادرة ، وهي المشكلة التي أحسب أن من سيقف على منظومات الشيخ سيلاحظها دون لبس ولا عياء .

أمّا بعد ، فإن هذا النص قد سبق له أن نشر مرتين : مرة عام ١٣١٣ هجرية في بيروت وكان ناظر الطبعة محمد سليم الأنسي وهي الطبعة التي قام عليها عملنا واعتمدناها أساسا ، وأما الطبعة الثانية فصدرت عن دار صادر في بيروت وهي لم تفعل شيئاً سوى إعادة نشر الطبعة الأولى بعجرها وبجرها كما قال القدماء دون تمحيص أو تدقيق اللهم إلاّ في مواضع لغوية قليلة .

حاولت جاهداً إبراز النص خلواً من الأخطاء التي يمكن ردها إلى سببين : أولهما السهو أو الخطأ الطباعي والآخر يعود إلى أيام نسخ أو استملاء الكتاب ، وأخطاء النسخ تبدو جلية في العديد من الشواهد الشعرية المصحّفة ، وإلى هذا وذاك فإنني أرى أن أحد أسباب ركاكة وسقم التعبير أحياناً ، وهي كثيرة في شرح الديوان ، مردها إلى كون الشيخ قد أملى الكتاب إملاءً في حلقة أو في جلسة كان يتخللها ما يقطع حبل الكلام إلى لحظة ثم العود إلى الفكرة ، ناهيك بأن الصيغة في تقديم الفكرة غلب عليها المخاطبة المباشرة مما يزيل الكثير من أدوات الربط اللغوي في الخطاب وجهاً لوجه ، ويمشي ذلك ويفهم في حينه بيد أنه يستحيل ركيكاً وسقيماً ويظلع من طرفيه حين يكتب ، وهذا في الكلام العادي فكيف بكلام هو في أساسه صعب ومتعدد المستويات .

حاولت التعريف بمسمّيات الشيخ من أمكنة أو اصطلاحات واعتمدت في تعريف هذه الأخيرة ما وضعه الشيخ نفسه ونشرته حيدر آباد الدكن ، وعرّفت الأماكن ما وجدت إلى ذلك سبيلاً وخرّجت الأحاديث النبوية كلها إلا ثلاثة لم أجدها فيما بين يديّ من مظان ، أما الآيات القرآنية فلقد أشرت إلى مواضعها في الكتاب الكريم . ولكن وعلى رغم هذا كله لا أراني أشعر بالرضى أو الاكتفاء ، فعالم الشيخ فسيح وصعب ولقد حاولت الوسع وأكاد أقول تجاوزت الوسع قليلاً وكل ذلك بحثاً عن الشعر وعن إشارة من الشيخ تزيد الشعر شاعرية وتمنح النص مساحة إضافية ولكن عبثاً ، فالشيخ لم يكن شاعراً حين نظم ولم يكن ذوّاقة حين فسّر بل هو رجل عالم

غزير العلم حاول مخفقاً استخدام نص محدود ويظلع أي يعرج أصلاً لتمرير نظريات لم يكن من شأنها إلا زيادة الجفاف في الحلق والكمد في القلب التواق إلى نسمة من نسائم العشق كتلك التي تهبّ من شعر رابعة أو الرومي أو العطار أو ابن الفارض وغيرهم .

لم أتعرض لعقيدة الشيخ ولا لعالمه «الفلسفي» فليس عندي جديد أضيفه على ما سبق لغيري أن قدّمه ، وأخص بالذكر عملين جبّارين لسيدة مجتهدة يبدو أنها نذرت حياتها للتوفر على نتاج الشيخ وعالمه وهي الدكتورة سعاد الحكيم في المعجم وفي مولد لغة جديدة ، هذا فضلاً عن أعمال أخرى ككتابات آسين بلاثيوس وأبي العلا عفيفي وسيد حسين نصر وعثمان يحيى والسادة الذين ساهموا في الكتاب التذكاري عن الشيخ ، وأخيراً لا آخراً المرحوم هادي العلوي في مدارات صوفية .

وأخيراً يبقى ما لا يجب أن ينسى ألا وهو الشكر والعرفان لمن آزرني أثناء توفرّي على عملي هذا ، وأخصّ بالذكر أولاً الحبيبين الغاليين لينا وعلي رضا فخري والآنسة الفاضلة وفاء عباس أخضر التي تفضلت بمساعدتي بكتابة أجزاء من النص على الكومبيوتر أثناء أوقات فراغها في عملها وفراغ الكهرباء اللبنانية من الدهن المدّ النور للبقاء على رأي الشيخ ، وأما الشكر الأعظم فلزوجتي ولأولادي فهم على جهلهم بابن عربي آمنوا بأن ما توفّرت عليه قد لا يخلو من قيمة فآزروني وغفروا لي انصرافي عنهم .

وأمّا القارئ المسكين فلست أعرف كلاماً أبثّه إياه سوى أنّ الله يمتحن عباده الصالحين ، فعسى أن يعي كم هو عظيم أجر الصابرين كما أعرف أنا كم هو عظيم شكري وامتناني له مقبلاً ومدبراً .

الزرارية في العشرين من شهر تشرين الأول عام ٢٠٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الحسن الفعّال ، الذي يحب الجمال ، خلق العالم في أكمل صورة وزيّنه ، وأدرج فيه حكمته الغيبية عندما كوّنه ، وأشار إلى موضع السرّ منه وعيّنه ، وفصل للعارفين مجمله وبيّنه .

جعل ما على أرض الأجسام زينة لها ، وأفنى العارفين في مشاهدة تلك الزينة وجداً وولهاً . وصلّى الله على المتجلّي إليه في أحسن صورة ، والمبعوث في أكمل شريعة وأحسن سيرة ، محمد بن عبدالله المكلّم بالمقام العليّ ، والمخصوص بالكمال الكلّي والتنزيل الوفي ، وعلى آله وصحبه وسلّم .

أما بعد ، فإني لمّا نزلت مكّة سنة خمسمائة وثمان وتسعين ، ألفيت بها جماعة من الفضلاء ، وعصابة من الأكابر الأدباء والصلحاء ، بين رجال ونساء . ولم أر فيهم مع فضلهم مشغولاً بنفسه ، مشغوفاً بين يومه وأمسه ، مثل الشيخ العالم الإمام ، بمقام إبراهيم عليه السلام ، نزيل مكة البلد الأمين ؛ مكين الدين أبي شجاع زاهر بن رستم بن أبي الرجا الإصفهاني ، رحمه الله تعالى وأخته المسنّة العالمة ، شيخة الحجاز ، فخر النساء بنت رستم .

فأما الشيخ فسمعنا عليه كتاب أبي عيسى الترمذي[1] في الحديث وكثيراً من الأجزاء ، في جماعة من الفضلاء ، كان يغلب عليهم الأدب ؛ فكأن جليسه في

(١) هو الإمام المحدّث محمد بن عيسى الترمذي ، توفي عام ٢٧٩ هجرية أي ٨٩٢ ميلادية ، له كتاب «السنن» أو «الجامع الصحيح وهو أحد كتب الحديث المعتمدة الستة وللترمذي أيضاً «الشمائل النبوية» و«العلل» .

بستان . وكان رحمه الله تعالى ظريف المحاورة ، لطيف المؤانسة ، ظريف المجالسة . يمتع الجليس ، ويؤانس الأنيس ، وكان له رضي الله عنه من أمره شأن يغنيه[1] فلا يتكلّم إلاّ فيما يعنيه . وأما فخر النساء أخته ، بل فخر الرجال والعلماء ، فبعثت إليها ، لأسمع عليها ، وذلك لعلوّ روايتها فقالت : «فني الأمل ، واقترب الأجل ، وشغلني عمّا تطلبه منّي من الرواية ، الحثّ على العمل . فكأنّي بالموت قد هجم ، فأقرع سنّ الندم» .

فعندما بلغني كلامها كتبت إليها أقول شعراً :

حـــالي وحـــالك في الرواية واحـــد
مـا القـــصـــد إلاّ العلم واســـتـعـــمـــاله

فأذنت لأخيها أن يكتب لنا نيابة عنها إجازة[2] عنها في جميع روايتها ، فكتب رضي الله تعالى عنه وعنها ذلك ، ودفعه لنا ، وكتب لنا جميع مسموعاته إجازة عامّة وكتبت إليه من قصيدة عملتها فيه قولي :

ســـمـــعت التـــرمـــذي على المكين
إمـــــــام النـــاس في البـــلـــد الأمـين

وكان لهذا الشيخ رضي الله تعالى عنه بنت عذراء ، طفيلة هيفاء ، تقيد النظر ، وتزين المحاضر والمُحاضر ، وتحيّر المناظر . تسمّى بالنظام ، وتلقّب بعين الشمس والبها ، من العابدات ، العالمات ، السايحات ، الزاهدات ، شيخة الحرمين ، وتربية البلد الأمين الأعظم بلا مين[3] . ساحرة الطرف ، عراقية الظرف ، إن أسهبت أتعبت ، وإن أوجزت أعجزت ، وإن أفصحت أوضحت . إن نطقت خَرِس قسّ بن ساعدة[4] وإن كرمت

(١) إشارة إلى الآية ٣٧ من سورة عبس .

(٢) الإجازة هي «عبارة عن إذن الشيخ لتلميذه برواية مسموعاته أو مؤلفاته ولو لم يسمعها منه ولم يقرأها عليه» عن علوم الحديث ومصطلحاته للشيخ الدكتور صبحي الصالح .

(٣) المين هو الكذب .

(٤) خطيب وشاعر جاهلي ، أدركه النبي محمد (ص) ، ويروى عنه أنه كان معجباً به وقد صار قسّاً وهو رتبة نصرانية لا اسم علم ، صار رمزاً للفصاحة .

خنس[١] معن بن زائدة[٢] . وإن وفّت قصّر السموأل[٣] خطاه ، وأغرى ورأى بظهر الغرر وامتطاه . ولولا النفوس الضعيفة السريعة الأمراض ، السيئة الأغراض ، لأخذت في شرح ما أودع الله تعالى في خلقها من الحسن ، وفي خُلُقها الذي هو روضة المُزن[٤] ؛ شمس بين العلماء ، بستانَ بين الأدباء ، حقّة مختومة[٥] ، واسطة عقد منظومة[٦] ، يتيمة دهرها ، كريمة عصرها ، سابغة الكرم ، عالية الهمم ، سيِّدةً والديها ، شريفة ناديها ، مسكنها جياد[٧] ، وبيتها من العين السواد ومن الصدر الفؤاد . أشرقت بها تهامة[٨] وفتح الروض لمجاورتها أكمامه ، فنمت أعراف المعارف ، بما تحمله من الرقائق واللطائف . علمها عملها عليها مسحة مَلَك ، وهمّة ملك . فراعينا في صحبتها كريم ذاتها ، مع ما انضاف إلى ذلك من صحبة العمّة والوالد ، فقلّدناها من نظمنا في هذا الكتاب أحسن القلائد ، بلسان النسيب الرائق ، وعبارات الغزل اللائق ، ولم أبلغ في ذلك بعض ما تجده النفس ، ويثيره الأنس ، من كريم ودّها ، وقديم عهدها ، ولطافة معناها ، وطهارة مغناها ؛ إذ هي السؤال والمأمول ، والعذراء البتول . ولكن نظمنا فيها بعض خاطر الاشتياق ، من تلك الذخائر

---

(١) خنس خنوساً تعني توارى وغاب .

(٢) قائد أموي ، توفي حوالي ٧٦٨م ، عاصر المنصور العباسي وكان جواداً من أجواد العرب يضرب بكرمه المثل .

(٣) هو السموأل (صموئيل) ابن عادياء (توفي حوالي ٥٦٠م) شاعر جاهلي يهودي ، رضي بمصرع ابنه كيلا يخون الأمانة التي تركها عنده امرؤ القيس ، وصار رمزاً للوفاء . له القصيدة الشهيرة التي يقول في مطلعها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل

(٤) المُزن هو السحاب يحمل الماء .

(٥) الحقّة وعاء للطيب .

(٦) الواسطة من العقد أو القلادة هي الجوهرة الأثمن والأجود وتكون في الوسط . وإذا كان الشخص في واسطة قومه فهو في خيارهم .

(٧) كذا وردت ، والصواب أجياد بلفظ كأنه جمع جيد ، وهو أحد جبال مكّة وهو الجبل الأخضر بغربي المسجد الحرام . انظر : الروض المعطار للحميري .

(٨) هي الأرض الساحلية الممتدة من شبه جزيرة سيناء حتى أطراف اليمن جنوباً وفيها مكة المكرمة .

والأعلاق[1] ، فأعربت عن نفس توّاقة ، ونبّهت على ما عندنا من العلاقة ، اهتماماً بالأمر القديم ، وإيثارا لمجلسها الكريم .

فكّل اسم أذكره في هذا الجزء فعنها أكنّي ، وكل دار أندبها فدارها أعني . ولم أزل فيما نظمته في الجزء على الإيماء إلى الواردات الإلهية ، والتنّزلات الروحانية ، والمناسبات العلوية ، جرياً على طريقتنا المثلى ، فإن الآخرة خير لنا من الأولى[2] ، ولعلمها رضي الله عنها بما إليه أشير ، ولا ينبئك مثل خبير . والله يعصم قاري هذا الديوان من سبق خاطره إلى ما لا يليق ، بالنفوس الأبية ، والهمم العلية ، المتعلّقة بالأمور السماوية ، آمين بعزّة من لا ربّ غيره : ﴿**والله يقول الحق وهو يهدي السبيل**﴾[3] .

وكان سبب شرحي لهذه الأبيات أن الولد بدر الحبشي ، والولد إسماعيل بن سودكير[4] سألاني في ذلك وهو أنهما سمعا بعض الفقهاء بمدينة حلب ينكران هذا من الأسرار الإلهية ، وأن الشيخ يتستر لكونه منسوباً إلى الصلاح والدين . فشرعت في شرح ذلك ، وقرأ عليّ بعضه القاضي ابن العديم[5] بحضرة جماعة من الفقهاء . فلمّا سمعه ذلك المُنكرُ الذي أنكره تاب إلى الله سبحانه وتعالى ، ورجع عن الإنكار على الفقراء وما يأتون به في أقاويلهم من الغزل والتشبيب ويقصدون في ذلك الأسرار الإلهية . فاستخرت

(١) العلق والجمع أعلاق هو النفيس من كل شيء .

(٢) إشارة إلى الآية الرابعة من سورة الضحى .

(٣) استظهار للآية الرابعة من سورة الأحزاب .

(٤) كذا والصواب «ابن سودكين» وهو : إسماعيل بن سودكين بن عبدالله ، أبو الطاهر ، شمس الدين النوري . صوفي حنفي تونسي . من أصحاب ابن عربي وله شرح التجليات الإلهية لابن عربي ، وله أيضاً «لواقح الأسرار ولواقح الأنوار» في ٧ أجزاء ، وله «تحفة التدبير» في الكيمياء . توفي ١٢٤٨ (الأعلام للزركلي ، وانظر أيضاً .عثمان يحيى في حاشية على التجليات ذكر فيها مؤلفاته ، وابن شاكر الكتبي في الفوات ، وابن الصابوني في التكملة ، وابن العديم في بغية الطلب ، وأيضاً الذهبي ، وابن خلدون في تاريخه ، والمقريزي في المقفى الكبير ، وابن العماد في شذرات الذهب ، والقرشي في طبقات الحنفية ، وأخيراً الجبرتي في عجائب الآثار) .

(٥) هو عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي ، كمال الدين ابن العديم المؤرخ والمحدّث . ولد في حلب وتوفي بالقاهرة . له كتاب «بغية الطلب في تاريخ حلب» وقد اختصره في «زبدة الحلب في تاريخ حلب» وله كتب أخرى . توفي سنة ١٢٦٢م (عن الأعلام للزركلي) .

الله تعالى تقييد هذه الأوراق ، وشرحت ما نظمته بمكّة المشرّفة من الأبيات الغزلية في حال اعتماري[1] في رجب وشعبان ورمضان ، أشير بها إلى معارف ربّانية ، وأنوار إلهية ، وأسرار روحانية ، وعلوم عقلية ، وتنبيهات شرعية ، وجعلت العبارة عن ذلك بلسان الغزل والتشبيب ، لتعشق[2] النفوس بهذه العبارات ، فتتوفّر الدواعي على الإصغاء إليها ، وهو لسان كل أديب ظريف ، روحاني لطيف ، وقد نبهّت على المقصد ذلك بأبيات وهي :

كلما أذكره من طلل
أو ربوع أو مغان كلما

وكذا إن قلت ها أو قلت يا
وألا إن جاء فيه أو أما

وكذا إن قلت هي أو قلت هو
أو هما أو هنّ جمعا أو هما

وكذا إن قلت قد أنجد لي
قدرٌ في شعرنا أو أتهما[3]

وكذا السحب إذا قلت بكت
وكذا الزهر إذا ما ابتسما

أو أنادي بحداة يمّموا
بانة الحاجر أو ورق الحما[4]

(١) الاعتمار هو لبس العمامة أو ما يعلو الرأس وزيارة مكان ما عامر ، بيد أن المراد هنا القيام بما يسمى بالحج الأصغر أي العمرة ، وقوامها : الإحرام والطواف والسعي بين الصفا والمروة والحلق . وتجمع العمرة على عمر وعمرات .

(٢) كذا وأحسبها «لتعلّق» .

(٣) أنجد أتى نجد وأتهم أتى تهامة أو نزل فيها .

(٤) الحاجر موضع في ديار بني تميم (عن الروض المعطار للحميري) . أما ورق الحمى فحمام آمن كحمام البلد الأمين والورقاء حمامة يضرب لونها إلى الخضرة . والورقاء في اصطلاحات الشيخ «النفس الكلية وهو اللوح المحفوظ» .

أو بـدور فـي خـــــــــدور أفـلـت
أو شـمـــوس أو نبـــات أنجـــمـــا[1]

أو بـروق أو رعـــــود أو صـــبـــا
أو ريـاح أو جـنـوب أو ســـمـــا

أو طـريـق أو عـــقـــيـق أو نقـــا
أو جــبــــال أو تـلال أو رمـــا[2]

أو خـلـيـل أو رحــــيـل أو ربـى
أو ريـاض أو غـــيـــاض أو حِـــمـــا

أو نســـاء كـــاعـــبــات نهّــدٌ
طـالعـــات كـــشـــمـــوس أو دمـــا[3]

كـلـمـــا أذكــــره ممـا جــــرى
ذكـــره أو مـــثـلـه أن تـفـــهـــمـــا

مـنـه أســــرار وأنـوار جـلـت
أو عـلـت جـــاء بـهـــا ربّ الســـمـــا

لـفـــــؤادي أو فـــــؤاد مـن لـه
مـــثـل مـــا لـي مـن شـــروط الـعـلـمـــا

صــفـــة قـــدســيـــة عـلـويـة
أعـلـمـت أن لـصـــدقـي قـِــدمـــا

فـــاصــرف الخـــاطـر عـن ظـاهـرهـا
واطـلـب البـــاطـن حـــتـى تـعـلـمـــا

(١) أفلت أي غابت ، وأنجم يعني ظهر وطلع .
(٢) العقيق عقيقان ، أحدهما على مقربة من المدينة المنورة وآخر يقع في واد اسمه بقوّ ويقرب من الأول . ووصفه النبي بأنه واد مبارك ، وكان أهل المدينة يزدحمون للنزهة هناك عندما تسيل الماء في واديه ، وفي الأغاني للأصفهاني مثلاً الكثير من الأخبار والأصوات التي نشأت حوله . أما رما فهي رمال وقد خففت للضرورة .
(٣) الكاعب الصبية وقد بدا ثديها ونهد كالكعب ، وأما «دما» فكذا وردت وحقها أن تكتب «دمى» .

قال الشيخ رحمه الله :

فمن ذلك حكاية جرت في الطواف ؛ كنت أطوف ذات ليلة بالبيت فطاب وقتي وهزّني حال كنت أعرفه ، فخرجت من البلاط من أجل الناس ، وطفت على الرمل فحضرتني أبيات فأنشدتها أُسمِع بها نفسي ومن يليني لو كان هناك أحد وهي قوله :

ليت شعري هل دروا
أيّ قلب ملكوا

وفؤادي لو درى
أي شِعب سلكوا[1]

أتراهم سلموا
أم تراهم هلكوا

حار أرباب الهوى
في الهوى وارتبكوا

فلم أشعر إلا بضربة بين كتفيّ ، بكفّ ألين من الخز ، فالتفتّ فإذا جارية من بنات الروم لم أرَ أحسن وجهاً ، ولا أعذب منطقاً ، ولا أرقّ حاشية ، ولا ألطف معنى ، ولا أدقّ إشارة ، ولا أظرف محاورة منها . قد فاقت أهل زمانها ظرفاً وأدباً وجمالاً ومعرفة ، فقالت : يا سيدي كيف قلت؟ فقلت :

ليت شعري هل دروا
أيّ قلب ملكوا

فقالت : عجباً منك وأنت عارف زمانك ، تقول مثل هذا ! أليس كل مملوك معروف؟ وهل يصحّ المُلك إلاّ بعد المعرفة ، وتمنّي الشعور يؤذن بعدمها ، والطريق لسان صدق؟ فكيف يجوز لملك أن يقول مثل هذا؟ قل يا سيدي فماذا قلت بعده؟ فقلت :

(١) الشعب الطريق في الجبل أو ما انفرج بين جبلين .

وفــــــــــــؤادي لــــو درى
أيّ شـــــــــــعب ســـلــكــوا

فقالت : يا سيدي الشعب الذي بين الشغاف[1] والفؤاد هو المانع له من المعرفة ! فكيف يتمنّى مثلك ما لا يمكن الوصول إليه إلا بعد المعرفة؟ والطريق لسان صدق فكيف يجوز لمثلك أن يقول مثل هذا؟ يا سيدي ! فماذا قلت بعده؟ فقلت :

أتــــراهــم ســـلــــمـــــــوا
أم تــــراهــــم هــــلــــكــــوا

فقالت : أمّا هم فسلموا ! ولكم اسأل عنك ، فينبغي أن تسأل نفسك ؛ هل سلمتَ أم هلكت ! يا سيدي ، فما قلت بعده؟ فقلت :

حــــــــار أرباب الـهـــــــــوى
فـي الـهـــــــــوى وارتـبـكــوا

فصاحت وقالت : يا عجباً ! كيف يبقى للمشغوف فضلة يحار بها والهوى شأنه التعميم ، يخدّر الحواس ويُذْهبُ العقول ويدهش الخواطر ويذهب بصاحبه في الذاهبين !؟ فأين الحيرة وما هنا باقٍ فيحار؟ والطريق لسان صدق ، والتجوّز[2] من مثلك غير لائق !؟ فقلت : يا بنت الخالة ما اسمك؟ قالت : قرّة العين ! فقلت : لي[3] . ثمّ سلّمت وانصرفت . ثمّ إنّي عرفتها بعد ذلك وعاشرتها ، فرأيت عندها من لطائف المعارف الأربع ، ما لا يصفه واصف .

(١) الشغاف بالشين المضمومة هو جنون الحب ، وأما الشغاف بالشين المفتوحة فحجاب القلب وهو المقصود هنا .
(٢) التجوز هنا يعني الاجتزاء بالقليل دون الكثير ، فالتجوز في الصلاة مثلاً هو إتيانها بأقلّ ما يكفي ، والتجوز الإغضاء والعفو والكلام بالمجاز واحتمال الآخر .
(٣) أي أنها قرّة عينه هو .

شرح الأبيات الأربعة

ليت شعري هل دروا
أيّ قلبٍ ملكوا

يقول : ليتني شعرت هل دروا . الضمير يعود على المناظر العلى عند المقام الأعلى حيث المورد الأحلى ، التي تتعشّق بها القلوب ، وتهيم بها الأرواح ، ويعمل لها العمّال الإلهيون .

(أيّ قلبٍ ملكوا) يشير إلى القلب الكامل المحمّدي ، لنزاهته عن التقييد بالمقامات ، ومع هذا فقد ملكته هذه المناظر العُلى . وكيف لا تملكه وهي مطلوبة ويستحيل عليها العلم بذلك ، لأنها راجعة إلى ذاته ، إذ لا يشهد منها إلا ما هو عليه . ففيه يتنزّه ، وإيّاه يحبّ ويعشق .

(وفؤادي لو درى أي شِعْبٍ سلكوا)

أراد بالشِّعْب الطريق إلى القلب ، لأن الشعاب الطرق في الجبال . فكأنه لما غابت عنّي هذه المناظر العُلى ، تُرى أي طريق لبعض قلوب العارفين الذين سلكوا هذه الطرق . واختصّ ذكر الشِّعب لاختصاصه بالجبل وهو الوتد الثابت ، يريد المقام[1] فإنه الثابت ، إذ الأحوال لا ثبات لها ، وإذا نسب إليها الثبات والدوام فلتواليها لا غير على القلوب .

(أتُراهم سلِموا أم تُراهم هلكوا)

المناظر العُلى ، من حيث هي مناظر لا وجود لها إلاّ بوجود الناظر ، كالمقامات لا وجود لها إلاّ بوجود المقيم ، فإذا لم يكن ثمّ مقام ، لم يكن ثمّ مقيم . وإذا لم يكن ناظر فما ثمّ منظور إليه ، من حيث ما هو منظور إليه . فهلاكهم إنما هو من حيث عدم الناظر . فهذا المراد بقوله : «سلموا أم هلكوا» .

---

(١) الحال عند الشيخ هو «ما يرد على القلب من غير تعمّل ولا اجتلاب ، ومن شرطه أن يزول ويعقبه المثل بعد المثل إلى ان يصفو وقد لا يعقبه المثل . .وأما المقام فهو عنده عبارة عن استيفاء حقوق المراسم على التمام . انظر اصطلاحات الصوفية لابن عربي .

(حار أرباب الهوى في الهوى وارتبكوا)

لما كان الهوى يُطالبُ بالشيء ونقيضه ، حار صاحبه ، وارتبك ، فإنه من بعض مطالبه موافقة المحبوب فيما يريده المحبوب ، وطلبه الاتصال بالنخبوب . فإن أراد الهجر فقد ابتلي المحبّ صاحب الهوى بالنقيضين أن يكونا محبوبين له . فهذه هي الحيرة التي لزمت الهوى واتصف بها كل من اتصف بالهوى . والهوى عندنا عبارة عن سقوط الحب في القلب في أول نشأة في قلب المحبّ لا غير . فإذا لم يشاركه أمر آخر ، وخلص له وصفاً ، سُمِّيَ حبّاً . فإذا ثبت سميّ ودّاً . فإذا عانق القلب والأحشا والخواطر ، لم يبقَ فيه شيء إلاّ تعلّق القلب به سمّي عشقاً من العشق وهي اللبلابة المشوكة[1] .

وقال رضي الله عنه :

مـا رحّلوا يوم بانوا البـزّل العـيـسـا

إلاّ وقـد حـملوا فـيـهـا الطواويسـا

(فيها) ، بمعنى عليها .

و(البزّل) الإبل المسمّنة .

و(رحّلوها) جعلوا رحالها عليها .

و(الطواويس) ، كناية عن أحبّته ، شبههم بهنّ لحسنهن .

المقصد :

البزّل يريد الأعمال الباطنة والظاهرة ، فإنها التي ترفع الكلم الطيّب إلى المستوى الأعلى كما قال الله تعالى : ﴿**إليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه**﴾[2] ، والطواويس المحمولة فيها أرواحها ، فإنه لا يكون العمل مقبولاً ولا صالحاً ولا حسناً ، إلاّ حتى يكون له روح مزيّنة عاملة ، أو همّة . وشبهها بالطيور لأنها روحانية ، وكنّى عنها أيضاً بالطواويس لتنوّع اختلافها في الحسن والجمال .

---

(١) العشقة نبات معمّر عارش وليفي مخشوشب ويتسلّق بواسطة أظافيره .

(٢) الآية العاشرة من سورة فاطر .

من كل فـــاتكة الألحـــاظ مـــالكة
تخـــالهـــا فـــوق عـــرش الدرّ بلقـــيـــسا

(الفتك) ، القتل .

في صورة (مالكة) ، حاكمة .

(تخالها) تحسبها .

(العرش) السرير .

(بلقيس) المذكورة في القرآن في قصّة سليمان عليه السلام[1] .

المقصد :

يقول من كل حكمة إلهية حصلت للعبد في خلوته فقتلته عن مشاهدة ذاته ، وحكمت عليه . فإذا رأيتها حسبتها فوق سرير الدرّ ؛ يشير إلى ما تجلّى لجبريل والنبي عليهما الصلاة والسلام في بعض إسرآته في رفرف الدرّ والياقوت عند سماء الدنيا[2] ، فغشي على جبريل وحده لعلمه بمن تجلّى له في ذلك الرفرف الدريّ . وسمّاها بلقيساً لتولّدها بين العلم والعمل . فالعمل كثيف ، والعلم لطيف ، كما كانت بلقيس متولّدة بين الجن والإنس ، فإن أمّها من الإنس وأباها من الجنّ . ولو كان أبوها من الإنس وأمّها من الجنّ لكانت ولادتها عندهم وكانت تغلب عليها الروحانية ، ولهذا ظهرت بلقيس عندنا .

إذا تمشّت على صـــرح الزجـــاج ترى
شـــمـــساً على فلك في حـــجـــر إدريـــسا

(إذا تمشت) ، أي إذا سرت وسارت .

---

(١) انظر سورة النمل ففيها تفصيل لاتصال بلقيس بسليمان ، وانظر أيضاً كتاب كبرا نجست الإثيوبي ففيه تفصيل أكبر ، وانظر جواد علي في المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام فهو يعرض لبلقيس .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة النجم عن قبيصة عن سفيان عن الأعمش . . الخ ، قال : «لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، قال رأى رفرفاً أخضر قد سدّ الأفق» ، انظر أيضاً الترمذي في تفسير السورة عينها .

المقصد :

ذكر صرح الزجاج[١] لما شبّهها ببلقيس ، وشبّه الصرح بالفلك ، وكنّى بإدريس[٢] عن مقام الرفعة والعلو[٣] . وكونها في حجره أي في حكمه من جهة تصريفه إيّاها حيث يريد ، كما قال عليه الصلاة والسلام : «لا تعطوا الحكمة غير أهلها»[٤] . فلولا الحكم عليها لما صحّ التحكّم فيها ، بخلاف المتكلّم بغلبة الحال عليه . فيكون في حكم الوارد[٥] ، فينبّه في هذا البيت على تملّكه ميراثاً نبوياً . فإن الأنبياء يملكون الأحوال ، وأكثر الأولياء تملكهم الأحوال . وقرن الشمس وإدريس لأنها سماؤه ، وشبّهها بالشمس دون القمر تعريفاً بمقام هذه الحكمة من غيرها . فكأنّه يقول : قوّة سلطان هذه الحكمة إذا وردت على قلب صاحب التجريد[٦] أثمرت فيه أحوالاً حساناً ، ومعارف مختلفة . وإذا وردت على قلب متعشّق بما حصل فيه من المعارف أحرقتها وأذهبتها . وذكر المشي دون السعي وغيره لنخوتها وعُجْبِها وانتقالها في حالات القلب من حال إلى حال بضربٍ من التمكّن .

تحيي إذا قتلت باللحظ منطقها
كأنها عندما تحيي به عيسى

(١) انظر سورة النمل وخبر بلقيس حين عبرت قاعة العرش السليماني وقد شمّرت لأنها حسبت الأرض أو الصرح لجة .

(٢) هو إدريس وهو إيليا وهو أخنوخ وهو هرمس وهو أبو الكيمياء وأبو علوم أخرى ، عمّر ما ينوف على ثلاثة قرون ثم ارتفع إلى السماء .

(٣) إشارة إلى سورة مريم والآيتين ٥٦-٥٧ : ﴿اذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً * ورفعناه مكاناً علياً﴾ .

(٤) ورد عند الدارمي كالتالي : «ولا تحدّث الحكمة للسفهاء» ، وفي الإحياء لأبي حامد الغزالي ، وكذلك في طبقات السلمي : «لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموها» .

(٥) هو في اصطلاحات الشيخ : «ما يرد على الخواطر من الخواطر المحمودة من غير تعمّل» ، ويطلق بإزاء كل ما يرد من كل اسم على القلب .

(٦) التجريد هو : إماطة السوء والكون من القلب والسر «اصطلاحات الصوفية» .

المقصد :

نبّه على مقام الفناء في المشاهدة بقوله ، قتلت باللحظ . وكنّى بالإحياء عند النطق لتمام التسوية لنفخ الروح . ووقع التشبيه بعيسى عليه السلام[1] دون التشبيه بقوله : ﴿**ونفخت فيه من روحي**﴾[2] أو بقوله تعالى أن يقول له كن[3] من وجهين : الوجه الواحد الأدب فإنّا لا نرتفع إلى التشبيه بالحضرة الإلهية إلاّ بعد أن لا نجد في الكون من يقع التشبيه به فيما قصدوا لوجه . الآخر أن عيسى لما وُجدَ من غير شهوة طبيعية ، فإنه كان من باب التمثيل في صورة البشر ، فكان غالباً على الطبيعة بخلاف من نزل عن هذه المرتبة . ولما كان الممثّل به روحاً في الأصل ، كانت في قوة عيسى إحياء الموتى . ألا ترى السامريّ[4] لمعرفته بأن جبريل معدن الحياة حيث سلك أخذ من أثره قبضة فرماها في العجل فخَارَ[5] وقام حيّاً .

توراتهـــا لوح سَـــاقَـــيْـــهـــا سناً وأنا
أتلو وأدرســـهـــا كـــأنني مـــوسى

الساق هنا جيء به لما كنّى ، عنى ببلقيس والصرح . وكانت قد كشفت عن ساقيها ، أي بيّنت أمرها ومنه قوله : ﴿**يوم يكشف عن ساق**﴾[6] الأمر الذي يقوم عليه بيان الآخرة ومنه : ﴿**والتفّت الساق بالساق**﴾[7] ، أي ألتفت أمر الدنيا بأمر

---

(١) بعث عيسى في الإنجيل ألعازر الميت حياً حين ناداه ، وأما في القرآن فهو يحيي الموتى . انظر سورة آل عمران الآية رقم ٤٩ : ﴿**وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله . .**﴾ ، وسورة المائدة الآية رقم ١١٠ : ﴿**وتخرج الموتى بإذني . .**﴾ .

(٢) انظر سورة الحجر الآية ٢٩ ، وسورة ص الآية ٧٢ ، وانظر أيضاً الآية التاسعة من سورة السجدة .

(٣) يقول الله للشيء كن فيكون ، انظر سورة الأنعام الآية رقم ٧٣ ، وسورة النحل الآية رقم ٤٠ ، وسورة مريم الآية رقم ٣٥ ، وسورة يس الآية رقم ٨٢ ، وسورة غافر الآية رقم ٦٨ .

(٤) للوقوف على خبر السامري انظر سورة طه وكتب التفسير التي تروي كيف أن السامري قد أخذ تراباً وطئته أقدام جبرائيل واستخدمه في صناعة العجل - الصنم لقدرة ذلك التراب العجائبية .

(٥) خار العجل صاح ، والخوار صوت البقر .

(٦) سورة القلم ، الآية ٤٢ ، وتمام الآية : ﴿**يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون**﴾ .

(٧) سورة القيامة ، الآية ٢٩ .

الآخرة . والتوراة من وري الزند فهو راجع إلى النور . ويُنْسَب إلى التوراة أن لها أربعة أوجه ، فشبّه ساقيها بالتوراة في الأربعة أوجه ، والنور والأربعة الذين يحملون العرش الأن ، وهي الكتب الأربعة ، وستأتي الإشارة إليها مع مناظريها مع أصحاب الكتب الأربعة في هذه القصيدة . فكأنه يقول : إن أمر هذه الحكمة قام على النور ، ولذا قال سنا . فإن النور الذي وقع به التشبيه ، إنما وقع بأربعة : المشكاة والمصباح والزجاج والزيت المضاف إلى الزيتونة المنزهة عن الجهات ، الثابتة في خطّ الاعتدال[1] . ولما كنّى عن ساقيها بالتوراة ، احتاج إلى ما يناسب ما وقع به التشبيه من التلاوة والدرس ، وذكْرَ من أُنْزلت عليه . وأتلو هنا أتبع وأدرسها أي أطأ أثرها فيتغيّر بصفتي ، كما يطأ أحدكم أثر غيره ، فيغيّره بوطئه إلى شكل ما وطئه ، فإن الدرس التغيير .

أسقفة من بنات الروم عاطلة
ترى عليها من الأنوار ناموسا

(الأسقف) ، عظيم الروم .

(والعاطلة) ، الخالية من الحلي .

(والناموس) ، الخير .

المقصد :

يقول إن هذه الحكمة عيسيوية المحتد ، ولهذا نسبها إلى الروم ، وقوله عاطلة أي هي من عين التوحيد ليس عليها من زينة الأسماء الإلهية أثر ، كأنه جعلها ذاتية لا أسمائية ولا صفاتية ، لكن يظهر عليها من الخير المحض ما يكنّى عنه بالأنوار ، وهي

(١) انظر سورة النور ، الآية رقم ٣٥ : ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درّي يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكلّ شيء عليم﴾ .

السبحات المحرقة التي لو رفع سبحانه الحجب النورانية والظلمانية لأحرقت سبحات وجهه . فهذه السبحات هي التي كنّى عنها بالأنوار التي في قوة هذه الحكمة العيسوية . فهي الخير المحض ، إذ هي الذات المطلقة .

وحشيّة ما بها إنسٌ قد اتخذت

في بيت خلوتها الذكر ناووسا

(الناووس) ، قبر من رخام كانت ملوك الروم تدفن فيها .

المقصد :

يقول إن هذه الحكمة العيسوية لا يقع بها إنس فإن مشاهدته فناء ليس فيها لذّة كما قال السيادي[1] : «ما التذّ عاقل بمشاهدة قط ، لأن مشاهدة الحق فناء ليس فيها لذّة» وجعلها وحشيّة ، أي أنها تشره إلى مثلها النفوس الشريفة ، وهي لا تألف إليها لعدم المناسبة ، فلهذا جعلها وحشية .

وقوله بيت خلوتها ، فكنّى بالبيت عن قلبه ، وخلوتها فيه نظرها إلى نفسها . فإن الحق يقول : «ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن»[2] ، ولما كان هذا القلب الذي وسع هذه الحكمة الذاتية العيسوية في مقام التجريد والتنزيه[3] ، كان كالفلاة وكانت فيه كالوحش . فلهذا قال أيضاً وحشيّةً . ثم ذكر مدافن ملوك الروم تذكرة لها ، أي يتذكّر الموت الذي هو فراق الشمل . فألفت من التألّف بعالم الأمر والخلق من أجل الفراق فيذكرها ذلك القبر حالة الفراق فيزهدها في اتخاذ الإلفة .

---

(١) كذا والصواب السياري ، وهو عبد الواحد بن علي السياري . والحديث كما جاء في طبقات الصوفية للسلمي ، طبعة ليدن ، صفحة ٤٦٥ يقول : «ما التذّ عاقل بمشاهدة قط ، لأن مشاهدة الحق فناء ليس فيها لذّة ولا التذاذ ولا حظ ولا احتظاظ» .

(٢) انظر ثبت الأحاديث النبوية الملحق بالمعجم الصوفي للدكتورة سعاد الحكيم تحت رقم ٣٠ وفي الصفحة ١٢٦٥ ، وفي ملحق كتاب اللمع المنشور بعناية د .عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور الخاص بتخريج الأحاديث نقلاً عن الحافظ العراقي قوله : «لم أرَ له أصلاً» . هذا وقد ورد الحديث في الفتوحات مراراً في فصول مختلفة ولكن من دون إسناد .

(٣) التنزيه هو «عبارة عن تبعيد الرب عن أوصاف البشر» عن التعريفات للجرجاني ، صفحة ٧١ ، نسخة فلوغل المصورة .

قـــد أعـــجـــزت كلّ عـــلاّمٍ بملتنا
وداوديا وحـــبـــرا ثم قـــســـيـــســـا

لما كانت هذه المسألة ذاتية ، وكانت الكتب الأربعة لا تدلّ إلاّ على الأسماء الإلهية خاصة لها ، لم يقاومها ما تحمله هذه الكتب من العلوم وكنّى عنها بحاملها . فكنّى عن القرآن بالعلاّم وعن الزبور بالمنسوب إلى داود وعن التوراة بالحبر وعن الإنجيل بالقسيس .

إن أومــأت تطلب الإنجــيل تحـســبـهـا
أقــسّــةً أو بطاريقــاً شــمــامــيــســا

يقول إن كان من هذه الروحانية ، إشارة من كونها عيسوية إلى الإنجيل ، بطريق التأييد له فيما وضع له بحسب الخواطر هنا ، كنّا لديها بمنزلة هؤلاء المذكورين ، الذين هم جمال هذا العلم ، وساداته ، والقائمون به ، خادمون بين يديها ، لما بقي عليه من العزّة والسلطان .

ناديت إذ رحّلت للبين ناقــتــهــا
يا حــادي العــيس لا تحـدو بهـا العـيـسـا

يقول هذه الروحانية الذاتية ، لما أرادت الرحيل عن هذا القلب الشريف ، لرجوعه من مقام «لي وقت لا يسعني فيه غير ربي»[(١)] ، إلى النظر في مصالح ما كلّف به من القيام بالعوالم ، وبالنظر إلى الأسماء . رحلت الهمة التي جاءت عليها لهذا القلب . وكنّى عنها بالناقة والملائكة المقربون المهيمنون ، هم حُداة هذه الهمم . فأخذ يخاطب روحانياً بكناية الحادي أن لا يسيروا بها لما لها من التعشّق والتعلّق والإنسانية . تمنّى استدامة هذه الحالة .

عــبّــيت أجــيــاد صــبــري يوم بَيْنهم
على الطريق كــراديســاً كــراديســا

(١) انظر الرسالة القشيرية ، فقد ورد الحديث كالتالي : «لي مع الله وقت لا يسعني فيه معه شيء» .

سـألت إذ بلغت نفسي تراقيها[1]

ذاك الجمال وذاك اللطف تنفيسا

أراد بالطريق المعراج الروحاني . والكراديس الجماعات ، وأحدها كردوس . وقوله تنفيسا يريد ما أراد النبي صلّى الله عليه وسلّم بقوله : «إن نفَسَ الرحمن يأتيني من قِبَلِ اليمن»[2] . يقول : أريد إذ ولا بدّ من رحيلها ، فلا يزال عالم الأنفاس من جهتها يأتيني مع الأحوال ، وهو الذي أيضاً تشير به العرب في أشعارها ، بإهداء التحية والأخبار مع الرياح إذا هبّت . فكنّى عن هذا المقام هنا بالأنفاس .

فأسلمت ووقانا الله شرّتها

وزحزح الملك المنصور إبليسا

يقول : فأجابت وانقادت إلى سؤالي . ووقانا الله سطوتها كما قال ، «وأعوذ بك منك»[3] هذا مقامه . وزحزح الملك ، يريد خاطر العلم والهداية .

(إبليسا) خاطر الاتحاد . فإن هذا مقام صعب ، قلّ من حصل فيه فسلم من القول بالاتحاد والحلول ، فإنه المشار إليه بقول الله : «كنت سمعه وبصره»[4] الحديث .

---

(١) إشارة إلى سورة القيامة ، الآية رقم ٦٢ : ﴿كلا إذا بلغت التراقي﴾ ، والتراقي جمع ترقوة وهي العظم الذي في أعلى الصدر بين ثغرة النحر والعاتق ، وبلوغ النفس التراقي كناية عن دنو المرء من الموت دنواً شديداً .

(٢) أخرجه الأخوان مرعشلي في موسوعة الحديث في ج ١ ص٤٦ ، وأخرجه أحمد بن حنبل/ ٢ : «وأجد نفس ربكم من قبل اليمن» .

(٣) ورد في الفتوحات السفر ١٣ الفقرة ٤٥٦ ولكن من دون إسناد .

(٤) أخرجه البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلعم إن الله قال : « . . .وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها» ، وأخرجه الهندي في كنز العمال من طرق وبألفاظ مختلفة في الأحاديث ١١٥٨/ ١١٥٩/ ١١٦١.

خليلي عـوجـا بالكثـيب وعـرّجـا
على لَعْلَعٍ واطلب مـيـاه يَلَمْلَمِ[1]

يخاطب عقله وإيمانه أن يعرجا بالكثيب الذي هو محل المشاهدة التي نصّ عليها الشرع ، وعرّجا قبل الوصول على لعلع ، موضع حال دهش وحيرة وتولّع ، لتقع الرؤية عن محبة وشوق ، واطلب مياه يلملم ، جهة كائنة ، أي ردْ على موطن الحياة ، إذ كان من الماء كل شيء حيّ[2] ، ولما كانت الأنفاس يمنية ، فلتكن الحياة أيضاً من مناسبة هذه الجهة للمشاكلة .

ثم قال :

فـإن بهـا من قـد علمت ومن لهم
صيامي وحجّي واعتماري وموسمي
فـلا أنس يومـاً بالمحـصَّب من منى
وبالمَنحـر الأعلى أمـوراً وزمـزم

أفرد الخطاب ، يريد الإيمان دون العقل ، فإن العلم بالذات وما تستحقّه من النعوت ، إنما هو من طريق الإيمان لا من طريق العقل .

فلهذا قال (من قد علمت) ، ولم يقل علمتها والضمير في بها يعود على المياه ، فإنها التي تعلم ، لا على الذات ، إذ الذات ترى ولا تعلم ، لأنها لو علمت أحيط بها ، وهو سبحانه لا يحيط به علم ، تقدّس وتعالى عن أن يحيط به علم الممكن ، أو تكون ذاته تعطى الإحاطة ، فهو المحيط ولا يحيط به شيء ، إذ لو أحاط به شيء لحصره ذلك الشيء .

(١) الكثيب هو التل من الرمال ولا أحسب أنه المراد ، بل لعل الشيخ أراد «الكثيبة» وهي ، بحسب الحميري في الروض المعطار ، حصن من حصون خيبر . أما لعلع فموضع أو جبل بظهر الكوفة قريب من العذيب وقيل من الجزيرة ، وأما يلملم فقرية على بعد ليلتين من مكة وهي في طريق اليمن إلى مكة وهي ميقات من حجّ من هناك وماؤها من آبار وعيون .

(٢) انظر سورة الأنبياء ، الآية رقم ٣٠ : ﴿ . . .وجعلنا من الماء كل شيء حيّ أفلا يؤمنون﴾ .

ثم قال (ومن لهم) ، خطابا لنعوت الإلهية .

وقوله (صيامي) يريد صفة الصمدانية كما قال تعالى : «الصوم لي»[1] أي الصمدانية للعبد لا تصح ولا يستحقّها . والصوم مُدخلٌ فيها ، لأنه إمساك عن الطعام والغذاء .

وقوله (وحجّي) يريد تكرار القصد ، بالتوجه إلى هذه الذات المنزّهة ، من أجل دعاء الأسماء الإلهية في كل نفس وحين .

وقوله (واعتماري) يريد : فزياراتي إليها في وقت شوقي وطلبي ، والعلّة دائمة ، والزيارة دائمة ، لايزال العبد مع الأنفاس حاجّاً ومعتمراً ، لأنه في كل نفس في انتقال من اسم الهي إلى اسم إلهي .

وقوله (وموسمي) كما قال الآخر[2] حين جعله عيده . ولمّا كان الموسم عبارة عن محل مكاني وزماني ، تجتمع فيه قبائل مختلفة لمقصد واحد ، بلغات مختلفة ، جعله عيده ، تدلّ على معنى واحد ، كذلك مقامات هذا العبد ، وأحواله ، والحقائق الإلهية ، إذا حصل القلب في محل الجمع لما ذكرناه ، كان ذلك موسمه وعيده . وإنما سمّيَ موسماً من حيث السّمة ، أي أنه علامة على تحصيل هذا المقام الجمعي ، وسمي عيد العودة على بدئه ، لأن الأمر فيه دوريّ ، وإن كانت الواردات الإلهية لا تتناهى ، فالمقامات بلا شك تتناهى .

وقوله (فلا أنسى يوماً) يقول : تخلّقاً إلهياً من مقام «كنت سمعه وبصره»[3] فنبّه على أنه أيضاً قد حصل في مقام ﴿وما كان ربّك نسيّا﴾[4] ، تخلّقاً إلهياً واعتناء .

---

(١) أخرجه النسائي وأبو داود ، وأخرجه الترمذي في باب ما جاء في فضل الصوم عن أبي هريرة قال رسول الله صلعم : «إن ربكم يقول كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والصوم لي وأنا أجزي به . . .» .

(٢) أحسب أن المقصود هنا هو عمر بن أبي ربيعة ، فشعره حافل بمغامراته أيام الحج .

(٣) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث .

(٤) انظر سورة مريم ، الآية رقم ٦٤ .

وقوله (بالمحصّب من منىً) الذي هو موضع رمي الجمار ، يقول : فلا أنسى يوماً بمقام قوله : ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً﴾[1] ، أي أدموا[2] ذكر آبائكم في هذا الموطن من قلوبكم وألسنتكم ، فإن قوله تعالى : ﴿أن اشكر لي ولوالديك﴾[3] ، إنما ذلك في مقام إيجاد عين العبد حيث كان إيجاده عند سبب اجتماع والديه بالنكاح ، وتعبهما في إيجاده . وهذا ما هو ذلك المقام ، فلا يلزم هنا هذا الدخل على من قيل له : «اطرح ذكر آبائك هنا» فإن كل مقام يعطي حقيقته ، وذكر منى لأنه من باب الأماني ، وقد قيل : «ولا تغرنّكم الأماني»[4] .

وقوله (وبالمنحر الأعلى) يشير إلى القربان ، كما قال تهدى الأضاحي ، وأهدي مهجتي ودمي ، يعني نفسه .

وقوله (أموراً) يريد الحياة الأبدية .

محصّبهم قلبي لرمي جمارهم
ومنحرهم نفسي ومشربهم دمي

الضمير في هذا البيت بمحصّبهم وغيره ، يعود على الحقائق الإلهية ، فإنها الواردة على القلب بهذه الصفات كلها . فرمي جمارهم هو ما يحصبون به الخواطر النفسانية والشيطانية ، وإن كانت إلهية ، ولكن من حيث المحلّ الذي وردت على هذا القلب منه . لذلك كان المحصّب ، ولذلك كان توجّه الذمّ كما قال : ﴿وما أصابك من سيّئة فمن نفسك﴾[5] ، وقال : ﴿كلٌّ من عند الله﴾[6] ثم قال : ﴿فما لهؤلاء القوم لاّ يكادون يفقهون حديثاً)﴾[7] إشارةً ، فأجرىَ قديماً .

(١) انظر سورة البقرة ، الآية رقم ٢٠٠.
(٢) كذا والصواب أديموا .
(٣) انظر سورة لقمان ، الآية رقم ١٤.
(٤) انظر الآية ١٤ من سورة الحديد : ﴿وغرّتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغرّكم بالله الغرور﴾ .
(٥) انظر سورة النساء ، الآية رقم ٧٩.
(٦) انظر سورة النساء ، الآية رقم ٧٨.
(٧) انظر سورة النساء ، الآية رقم ٧٨.

يقول فما لهؤلاء المعترضين لا يفقهون ما حدّثناهم به من أن الكل من عندنا ذمّاً وحمداً ، فلا يذمّون ما سميناه مذموماً ، يحمدون ما سمّيناه محموداً . وينظرون الأشياء من حيث ما علّمناهم ووضعناها ، لا من حيث إسنادها إلينا بحكم الإيجاد .

وقوله (ومنحرهم نفسي) يريد قربانها كما قلنا :

وأهدي عن القربان نفساً معيبةً

وهل رئ خلق بالعيوب تقرّبا[1]

والحكاية مشهورة في الفتى الذي قرّب نفسه بمنى بهمّته حين رأى الناس قرّبوا قرابينهم ، فجعل نفسه قربانه ، فمات من حينه .

وقوله (ومشربهم دمي) وإن الدم لما كان سريانه في العروق ، سبب الحياة الحيوانية ، كنّى عنه بالشرب . فإن الماء جعله الله سبباً لكل شيء حيّ فقال : ﴿وجعلنا من الماء كلّ شيءٍ حيّ﴾[2] .

ثم قال :

فيا حادي الأجمال إن جئت حاجزا[3]

فقف بالمطايا ساعةً ثمّ سلّم

الحادي هو الذي يسوق الإبل من خلفها ، والهادي هو الذي بيده زمامها . فهو يخاطب الشوق الذي يحدو بالهمم إلى منازل الأحبّة .

وقوله (إن جئت حاجراً) ، الحاجر العقل . والطريق إنما هو بالإيمان والمشاهدة لا بالعقل ، من حيث قوّة فكره ، بل هو من جهة عرفانه وإيمانه . والحاجر هو الحاجز بين شيئين ، ليتميّزا ، والأحبّة قد حجروا على نفوسهم وأعيانهم ، ليمتازوا عن سائر المقصودين . فإنه قد يصدق الشيء من كونه محبوباً ، وسبباً لاتصال بمحبوب . ثم أنه

(١) لم أجد هذا البيت في ديوانه .

(٢) انظر سورة الأنبياء ، الآية رقم ٣٠.

(٣) كذا والصواب «حاجراً» وحاجر قد سبق تعريفها .

أمرٌ لهذا الحادي الذي هو الشوق ، بالسلام على منازل الأحبّة ، ولكن بعد وقوف ساعة ، وذلك أن المحبّ إذا ورد على منزل الأحبّة ، أخذه دهشٌ وحيرةٌ في أول وروده ، وربما غشي عليه ، فيدركه كذلك تبلبلٌ فلا يوفي الأدب في السلام مع هذا الدهش . فقال له : قف ساعة حتى يزول عنك الدهش والبهْتُ ، فتعرف ما تستحقّه الأحبّة من الأدب في السلام ، وحينئذ كما قالت العامّةُ «لكل داخلٍ دهشة» وهذا ذوقٌ محقق .

وناد القباب الحمر من جانب الحمى
تحيّة مشتاق إليكم متيّم

يقول لشوقه : إذا سلّمت ، ونظرت إلى اختلاف ألوان القباب ، فلا تناد منها إلاّ القباب الحمر ، فإنها محل الجمال ، والمخصوصة بالعرائس المخدّرات . ولهذا يقول حين ذكرت الألوان فقالت في الخضرة أنها أنبل ، وقالت في السواد إنه اهول ، وقالت في البياض إنه افضل ، وقالت في الحمرة إنها أجمل . ولذا قال ترجمان اليمامة ، حين قصدته سجاح بعساكرها[1] ، فقال : «أنصبوا لها القبّة الحمراء ، فإنها إذا رأتها تشتهي النكاح» وخلا بها فيها . ولهذا نهى رسول الله صلّى الله عليه وسلم عن الركوب على المياثر[2] الحمر ، لأن الحب أعظم شهوة وأكملها .

وقوله (من جانب الحمى) يقول : إنها عزيزة المنازل ، لحجاب العزّة ، إلاّ حمى الأعز من هو أهل لها ، وهي أهل له كما قال الآخر[3] :

فلم تك تصلح إلاّ له
ولم يك يصلح إلا لها

(١) ترجمان اليمامة هو مسيلمة المتنبئ والذي ينبزه المسلمون عادة بالكذاب ، وللوقوف على خبره وخبر سجاح المتنبئة ولقائهما ، وفيه قدر من البذاءة والفحش عظيم ، يراجع الطبري مثلاً في تاريخه .

(٢) جمع ميثرة وهي مخدة أو مرفقة تجعل على السرج . أما فيما يتعلّق بالنهي عن المياثر فلقد أخرج البخاري الحديثَ في كتاب الأشربة عن البراء بن عازب قال : « . . .ونهانا عن خواتيم الذهب وعن الشرب في الفضّة أو قال آنية الفضة وعن المياثر والقسي وعن لبس الحرير والديباج» .

(٣) الأبيات من قصيدة لأبي العتاهية في الخليفة العباسي المهدي ومطلعها (الديوان ، ص٣٧٥) :
ألا ما لسيدتي ما لها
أدلّت ، فأجمل إدلالها

ولو رامـــهـــا أحـــدٌ غـــيـــره

لـزلـزلـت الأرض زلـزالـهـــــــا

وجعلها قبّة لكون الشكل الكريّ أفضل الأشكال وأول الأشكال ، فيقول أن الأحبّة في المنازل الأول ، التي هي عند الحقّ لا عند شيء ، فهي من عالم الأمر . والشكل الكرّيّ ليس له أول ولا آخر ، إلاّ بحكم العرض فيه ، كذلك هؤلاء الأحبة الذين هم الحقائق الإلهية ، الأمر فيها دوريٌّ كريٌّ .

قال :

فـإن سلّمـوا فـأهدي السـلام مع الصبـا

وإن سكتـــوا فـــارحل بهـــا واقـــدّم[1]

يقول : إن ردّوا عليك السلام فتعرف أنك من أهلهم وممن أهل لهم ، فابعث سلامهم مع عالم الأنفاس ، من مقام الميل . فإن الصبا الميل . فلهذا قصد الصبا دون الجنوب والشمال وغيرها . أي إهدِ السلام مع من ترى من عالم الأنفاس مائلاً إلى جهتنا .

وقوله (وإن سكتوا) يقول : إن لم يردّوا عليك السلام فتعلم أنك لست ممن أهل لأهل تلك المنازل ، ولا أُهِّلَت لك ، فارحل واطلب منازل غيرها ممن أُهّلتَ لها وأُهِّلَتْ لك ، ولكن أقدم لا ترجع وراءك تحرّزاً ممن قيل لهم : ﴿**ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا**﴾[2] .

إلى نهـر عـيـسى حـيث حلّت ركـابهم

وحـيث الخـيـام البـيض من جـانب الفم

يعني فم النهر .

---

(١) فأهدي ، كذا وردت والصواب «فاهد» فالصيغة أمر . وأقدم كذا وردت والصواب «وتقدّم» .

(٢) انظر الآية رقم ١٣ من سورة الحديد .

يقول : تقدّم إلى نهر عيسى ، أي العلم المتسع العيسوي المشهد ، فافعل معه ما فعلت مع القباب الحمر ، واجعل خيام هؤلاء الأحبّة بيضاً لأنه مقام عيسوي نزيه عن الشهوة النكاحية ، فإنه كان عن غير نكاح بشري ، فلهذا كان أبيض ، ولم يكن أحمر .

يقول : ويكون مجيئك لهذا العلم العيسوي من جانب الفم ، أي من جانب الفهوانية[1] واللّسَن ولذلك أُعطي كُنْ .

ونادِ بدعد والرباب وزينب

وهند وسلمى ثم لبنى وزمزم

يقول :

إذا وصلت المنازل ، فِنادِ بأسماء هذه الحقائق الإلهية على اختلافها ، حتى يجيئك منها ما هو لك ، فتعرف عند ذلك مقامك منها ما هو . فكنّى عنها بهذه الكنايات من أسماء محبوبات الأعراب .

وقوله وزمزم يريد قم في مقام السماع[2] لهم ، فإن السماع منشأ الوجود . فإن كل موجود يهتزّ ، كما قال النبي صلّى الله عليه وسلّم : «ما أذن الله لشيء[3] كإذنه لمن يتغنّى بالقرآن»[4] . فانظر منظر هذه الحقيقة الإلهية في الإصغاء الإلهي لصاحب

(١) هي عند ابن عربي «خطاب الحقّ بطريق المكافحة في عالم المثال» ، وكذلك هي عند الجرجاني في تعريفاته .

(٢) السماع هو : «استجمام من تعب الوقت ، وتنفّس لأرباب الأحوال ، واستحضار لذوي الأشغال . . . سمعت أبا القاسم البغدادي يقول : «السماع على ضربين : فطائفة سمعت الكلام فاستخرجت منه عبرة ، وهذا لا يُسمع إلاّ بالتمييز وحضور القلب . وطائفة سمعت النغمة وهي قوت الروح . . . قال الجنيد : «الرحمة تنزل على الفقير في ثلاثة مواضع : عند الأكل ، فإنه لا يأكل إلا عند الحاجة ؛ وعند الكلام ، فإنه لا يتكلم إلاّ عند الضرورة ؛ وعند السماع ، فإنه لا يسمع إلا عند الوجد» عن التعرّف للكلاباذي .

(٣) كذا وردت والصواب «لنبي» .

(٤) أخرجه أبو داود وأخرجه البخاري في كتاب التوحيد وفي فضائل القرآن عن أبي هريرة : «لم يأذن الله لشيء ما أذن للنبي صلعم يتغنّى بالقرآن» ، وأخرجه النسائي عن أبي هريرة : «ما أذن الله بشيء كأذنه لنبي حسن الصوت ينغنّى بالقرآن» ، وأخرج الترمذي الحديث : «ما بعث الله نبياً إلا حسن الصوت» ، وفي اللمع للطوسي حديث يقول : «لقد أعطي أبو موسى مزماراً من مزامير آل داود» .

هذا المقام . وهذا الحديث ، يقوّى أحد محتملات قوله عليه الصلاة والسلام : «ليس منّا من لم يتغنَّ بالقرآن»[1] . فهو من الغنى لا من الاستغناء .

ثم قال :

وسَلْهُنَّ هل بالحلبة الغادة التي
تريك سنا البيضاء عند التبسّم

الحلبة محلة ببغداد . والغادة المائلة والبيضاء ، اسم من أسماء الشمس .

يقول :

وسَلْ من ناديت من الحقائق الإلهية ، والنعوت الأزلية ، هل بالحلبة ، والحلبة مجاري الخيل في السباق ؛ فإن الحقائق الإلهية تتسابق إلى الكيان لتظهر آثارها ، فيظهر سلطانها فيهم ، ولهذا سمّاها غادة ، أي مائلة إلى الكون . ثم وصفها بأن لها نور الشمس إذا ابتسمت . قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : «ترون ربكم في الجنّة كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب»[2] . فأوقع التشبيه في الرؤية لا في الشمس . وكنت في مقام عيسوي ، وأنت الآن تسأل عن مقام إدريسي علويّ قطبيّ ، فإن له السماء الرابعة[3] .

ثم ذكر التبسّم في هذا المقام ، يشير إلى مقام البسط[4] ، فإن المقامات العلية ، لما كانت الهيبة تستصحبها ، لم يتمكّن القادم عليها أن ينبسط لسموها وعلوها . فإذا وقع منها حالة التبسّم ، بسطت العبد ، وانشرح القلب ، وعرف أنها معه في مقام الأنس والجمال .

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد عن أبي هريرة قال : «قال رسول الله صلعم : ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن» ، وزاد غيره : «يجهر به» ، وأخرجه أيضاً الترمذي والدارمي .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد عن أبي هريرة : « . . .قال (أي رسول الله) : فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ، قالوا : لا يا رسول الله ، قال : فإنكم ترونه كذلك . . .» ، وأخرجه أيضاً في الكتاب نفسه عن أبي سعيد الخدري بلفظ جمع فيه بين الشمس والقمر .

(٣) جاء في كتاب التوحيد للبخاري ، أن هارون في السماء الرابعة وأن إدريس في الثانية .

(٤) يقول الشيخ في اصطلاحات الصوفية ، عن البسط : «هو عندنا من يسع الأشياء ولا يسعه شيء ، وقيل هو حال الرجا ، وقيل هو وارد توجبه إشارة إلى قبول وأنس» .

وقال رحمه الله :

سـلام على سلمى ومن حلّ بالحمى
وحقّ لمثلي رقّةً أن يسلّما

يشير بسلمى إلى حالة سليمانية وردت عليه من مقام سليمان عليه السلام ، ميراثاً نبوياً .

(ومن حلّ بالحمى) ، يعني أشباهها .

وقوله (بالحمى) أي أنها في مقام لا يناله ، وهو النبوة ، فإن بابها مسدود[1] ، فنعته بالحمى .

فذوق هذه الحكمة لسليمان عليه السلام من كونه نبيّاً ، خلاف ذوقه لها من كونه وليّاً ، وهو المقام الذي شاركناه فيه ، بذوقنا لها من الولاية ، التي هي الدائرة العظمى .

وقوله (وحقّ لمثلي) يعني أنه في مقام المحبة والرّقة ، إشارة إلى الانتقال إلى عالم اللطف ، فإن الكثيف غليظ الحاشية .

يقول : أن يسلّم على الوارد عليه ، فإن السلام في هذه الواردة إنما يتقدّم المورود عليه لا الوارد . وسببه لأنه الطالب ، وليس في قوته المعراج في الحقائق الإلهية . فلما وردت عليه ، بدأ هو بالسلام عليها ، يشير أنه الطالب لها ، وهو أولى بالقدوم لو أعطت الحقائق العروج . وسبب عدم العروج الجهل الذاتي بالمكانة الإلهية فلا تعرف ، ولا تقصد بالمعراج ، لكن بالسؤال .

وماذا عليها أن تردّ تحيّةً
علينا ولكن لاحتكام[2] على الدمى

(١) يشير هنا إلى الحديث النبوي الشهير بأن «لا نبي بعدي» ، وسياقه هو أن علياً من النبي بمنزلة هارون من موسى ولكن لا نبي بعد محمد . وقد أخرجه الترمذي في كتاب المناقب عن جابر بن عبدالله وعن سعد بن أبي وقّاص أن النبي صلعم قال لعلي : «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي» .

(٢) كذا وردت ، وأحسب أن الصواب «لا احتكام» .

يقول : إن ردّت التحية علينا فمن باب المنّة لا من باب أنه يجب عليها ذلك . فإن الله لا يجب عليه شيء ، تعالى من ذلك . فكل ما يكون لنا منه ابتداءً أو إعادةً ، إنما ذلك منه منّةً سبحانه .

وكنّى عن هذه النكتة الإلهية السليمانية النبوية ، بالدمى التي هي صورة الرخام ، صفة جمادية ، أي لا تردّ بلسان نطق ، لأنه لو ردّت بلسان نطق لكان نطقها غير ذاتها ، فتكون مركّبة ، وهي وحدانية الذات من جميع الجهات . فورودها عين كلامها ، وعين شهودها ، وعين سماعها . وهكذا جميع الحقائق الإلهية والنِّسَبُ الربّانية . فلو كنّي عنها بالصورة الحيوانية ، لم يتبيّن هذا المقام الذي هو مراد القائل .

ثمّ قال :

سـروا وظلام الليل أرخى سدوله
فقلت لها صبّاً غريباً متيّما

قوله (سَروا) الإسراء لا يكون إلاّ بالليل ، وكذا معارج الأنبياء ، لم تكن قط إلاّ بالليل ، لأنه محل الأسرار والكتم وعدم الكشف .

وقوله (وظلام الليل) أي حجاب الغيب ، أرخى حجابه ، الذي هو وجود الجسم الكثيف ، فهو ليل هذه النشأة الحيوانية ، لما كان ستراً على ما تحويه من اللطائف الروحانية ، والعلوم الشريفة ، فلا يدرك جليسه ما عنده إلاّ بعد العبارة عن ذلك . والإشارة إليه .

أي : كان سُراه بالأعمال البدنية ، والهمم النفسية ، وذلك لما سَرَت ورحلت هذه الحكمة عن قلبه وقت شغله بتدبيره بعض عالمه الكثيف ، فلما عاد إلى سرّه وجدها قد رحلت ، فأسرى خلفها بهمّة يطلبها وهو يقول لها : ارحمي صبّاً ، أي مائلاً إليك بالمحبّة والصبابة ، التي هي رقّةُ الشوق ، غريباً من أرض وجوده ، متيّماً أي قد تيّمه الحب ، يقول تعبّده وتذلّله .

أحــاطـت بـه الأشــواق صــونـاً وأرْصَـدتْ
لـه راشــــقــــات النبـل أيّانَ يمّـمــــا

يقول :

إن الأشواق لما أحاطت بهذا المحبّ ، ولزمته في حال بُعْد وقُرب ، وصفها بالشوق إليه . ولما كانت التجليات[1] في أوقات تقع في الصُور الجميلة الحسنة في عالم التمثيل ، كما قال تعالى : (فتمثّل لها بشراً سويّا)[2] . وصف هذه الصور بأنها ترشق قلبه بسهام اللحظ حيث توجّه القلب .

يصف قلبه بعمارات الشهود[3] ، كما قال تعالى : ﴿فأينما تولوا فثمّ وجه الله﴾[4] .

ثم قال :

فـــــأبـدت ثـنـايـاهـا وأومـض بـارق
فـلـم أدر مـن شـق الحنـادس منهـــمـــا

لّما كان التبسّم كشفاً يسرع إليه الستر ، وكان البرق مثل ذلك ، لذلك قَرَنَه به ، ووجد هذا المحبّ ذاته كلها نوراً ، كما يستر الليل عند وميض البرق من قوله تعالى : ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره﴾[5] ، وقول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في

(١) التجلي عند الشيخ في اصطلاحات الصوفية هو : «ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب» ، وينقل الكلاباذي في التعرّف عن سهل قوله : «التجلي على ثلاثة أحوال ، تجلي ذاتي وهي المكاشفة ، وتجلي صفات الذات وهي موضع النور ، وتجلي حكم الذات وهي الآخرة ومافيها» ، انظر أيضاً التعريفات للجرجاني وعوارف المعارف للسهروردي .

(٢) انظر سورة مريم ، الآية رقم ١٧.

(٣) الشهود عند التهانوي في «كشاف اصطلاحات الفنون» هو : «رؤية الحق بالحق . . . عندئذ يرى نفسه وجميع الموجودات قائمة بالحق فتنتفي الغيرية والاثنينية من أمام بصره فيكون الحق في كل ما يبصره ويكون الحق في كل ما يعلمه» .

(٤) انظر سورة البقرة ، الآية رقم ١١٥ : ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثمّ وجه الله إن الله واسع عليم﴾ .

(٥) انظر سورة النور ، الآية رقم ٣٥.

دعائه : «اللهم أجعل في سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً»[1] . وذكر الشعر والبشر والقلب والعظام وجميع الأعضاء ، إلى أن قال : «واجعلني كلّي نوراً» ، يعني بهذا التجلّي . والتجلّي الذاتي هو البارق ، لعدم ثبوته . فكأنّه يقول : لما أضاءت زوايا كوني كلها ، وأضاء هيكل طبيعتي ، وأنا في حكمة متجلّية من حقيقة إلهية ، في صورة مثالية ، في مقام بسط ، وتبسّمت هذه الصورة فأشرقت أرضي وسمائي بنورها ، واستنار ليلي ، واتفق معها تجلّي[2] ذاتي مقارن لتبسّمها ؛ لم أدر ممن أشرق كوني منهما ولا من شق حندس[3] ذاتي ، من هذين التجليين بنوره .

يقول : التبس عليّ الأمر في ذلك .

ثم قال :

وقالت أما يكفيه أني بقلبه
يشاهدني في كلّ وقت أما

يقول :

قالت ، هذه الحقيقة الإلهية ، في هذه الصورة المثالية ، بلسانها : لا تطلبني من خارج . ويكفيه تنزّلي عليه بقلبه ، كما قال تعالى : ﴿**نزل به الروح الأمين على قلبك**﴾[4] فهو يشاهدني في ذاته بذاته في كل وقت ، يعني بالأوقات ، أيام الله الذي يقول تعالى : ﴿**كل يوم هو في شأن**﴾[5] . فتلك أيامه سبحانه التي يوقع الشوق فيها .

(١) انظر إحياء علوم الدين للغزالي الجزء الأول ، كتاب الأذكار الباب الثالث . وانظر الحديث ٣٤٢٨ في كتاب الدعوات عند الترمذي وقد أخرجه عن ابن عباس ، وانظر أيضاً البخاري وغيرهم .

(٢) كذا وحقها ان تكتب «تجلٍّ» .

(٣) الحندس هو الظلمة والليل الشديد الظلمة والجمع حنادس .

(٤) انظر سورة الشعراء ، الآية رقم ١٩٣ ، وتمام الآية : ﴿**لتكون من المنذرين**﴾ .

(٥) انظر سورة الرحمن ، الآية رقم ٢٩ ، وكمال الآية : ﴿**يسأله من في السموات والأرض كلّ يوم هو في شأن**﴾ .

أنجـــد الشـــوق وأتهـم العـــزاء
فـــأنا مـــا بين نجـــد وتهـــام[1]

يقول :

طلب الشوق نجداً ، لأن تعلّقه بالمستوى الأعلى . وطلب الصبر تهامة ، يريد أن الصبر والشوق لا يجتمعان ، كما أن العلو والسفل لا يجتمعان ، وأنا ما بينهما في برزخ الآلام ، فالموطن يطلبني بالصبر لأنه ليس محلّ اللقيا ، والشوق يطلبني بمفارقة التركيب الذي هو هذا الهيكل الطبيعي المانع اللطيفة الهائمة المتيّمة لما ناسبها من العالم العلوي ، لكونها وجدت مدبّرةً له إلى أجل مسمّى . فالشوق يجذبني إلى العلو ، والصبر يجذبني إلى السفل ، والصبر أغلب من الشوق ولإعانة الموطن له ، الذي هو الحياة الدنيا .

وهمـــا ضـــدّان لن يجـــتـــمـــعـــا
فـــشـــتـــاتي مـــا له الدهرَ نِظام

يقول :

لما كانت اللطيفة الإنسانية[2] لا توجد دنيا ولا آخرة ، إلاّ مدبّرة لمركّب ، لا تُتْركُ لحظة لمشاهدة بسيطها ، عربت عن مُركّبها من غير علاقة ، كما يراه بعض الصوفية والفلاسفة ، مما لا علم له بما هو الأمر ، فلهذا قال (فشتاتي ما له الدهر نظام) ، أي لا أتصل بالمنزّه إلاّ على البسيط المشاكل الذاتي والحقيقي ، فإن مرتبة التدبير لي وصف لازم لا يصحّ مفارقته ، لكوني على الصورة الإلهية والرحمانية ، مخلوق ، كما أن الألوهية نعت لازم للحقّ سبحانه . وإذا كان الأمر هكذا ، فالشوق جهلٌ لهذا المقام ،

(١) أنجد وأتهم أي ذهب الواحد باتجاه نجد والآخر باتجاه تهامة ، ولكن تحوّل استخدام الفعلين للكناية عن الذهاب مذاهب مختلفة .

(٢) اللطيفة الإنسانية ، هي النفس الناطقة ، المسمّاة عندهم بالقلب ، وهي في الحقيقة تنزّلُ الروح إلى رتبة قريبة من النفس مناسبة لها بوجه ، ومناسبة للروح بوجه . ويسمّى الوجه الأول الصّدر ، والثاني الفؤاد (عن أنور أبي خزام عن الكاشي) .

فإنه لا يحصل . لكن الشوق للمحبّة وصفٌ لازمٌ تابعٌ لها ، وهو مؤمن حكمها[١] . فلهذا لا تنفكّ عنه مع العلم بأن المشتاق إليه لا يقع به وصلة فهو غير نافع .

ما صنيعي ما احتيالي دُلّني

يا عذولي لا ترعني بالملام

أقسم الله بالنفس اللوامة[٢] ، غير أن اللوم المقصود في هذا البيت من هذا اللائم ليس هو حالٌ بعينه ، وأيضاً المحبّ أي اسم تعلّق به وحنّ إليه ، وأي عالم وجد عذولاً في نفسه يعذله عن تعلّقه ويدعوه إلى جنابه ، وذلك أنه لما كان مجموع العلم والحضرة الإلهية صار كل جزء منه وكل حقيقة تطلب مناسبها أن تتصل به وتعذله أن لا ينظر إلى غيرها بحكم الميل والإشارة . والعارف لا يخلو عن ميل ، فلا يخلو عن عذل دائما أبداً .

زفراتٌ قد تعالت صعّداً

ودموع فوق خدّيّ سجام[٣]

يقول :

إن النيران الشوقية تعالت نحو عنصرها الذي هو الشوق الأعظم ، الموصوف به الجناب العالي ، كالمحبة منا تطلب المحبّة الإلهية ، من قوله : ﴿يحبهم ويحبونه﴾[٤] ، فحبّنا نتيجة عن حبّه .

يقول :

إنّ سرّ الحياة الذي هو الماء[٥] تختلف عليه الأسماء والأحكام باختلاف محلّه ؛ فيسمّى في العين دمعاً ، وفي الفم ريقاً ، وفي المعيّ بولاً ، فقال إن هذا السرّ ظهر في

(١) أحسب أن المراد القول : «مؤمن بحكمها» .

(٢) انظر سورة القيامة ، الآية ٢ .

(٣) سجم الدمع : صبّه .

(٤) انظر سورة المائدة ، الآية رقم ٥٤ : ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبّونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين﴾ .

(٥) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حيّ﴾ .

العين بحكم ما في النفس من ألم البعد ، ووجود الصدّ والهجران الذي هو نعت لازم كما ذكرناه ، فكان فيه حرارة ، لأن زفرات الأشواق ، التي هي أصوات نيرانها ، سخنة . وظهوره للعين تظهر له لملاحظة الأغيار إذ كان ينبغي له أن لا ينظر إلى غير محبوبه إلى أن يغلب عليه مقام نظرة بعين الله أو مقام رؤية الله ، في كل شيء ، فحينئذ يرتفع عنه البكاء والزفرات لهذا المشهد الكريم ، وهو الغاية التي يصل إليها العارف . ومن هذا المقام قال عيسى عليه السلام : ﴿والسلام عليّ يوم ولدت﴾[1] فكان أكمل في الوصلة ممن قيل عنه : ﴿وسلام عليه يوم ولد﴾[2] وهو يحيى . فهذا مقام أول لهذا المقام الثاني العالي ، فإن يحيى من الحياة وهي المسخّرة لعيسى عليه السلام ، فإنه كان يحيي الموتى ، فلهذا قلنا فيه إنه أعلى في قوله : «والسلام عليّ» فافهم .

حنت العيس إلى أوطانها
من وجيز السير حنين المستهام
ما حياتي بعدهم إلاّ الفنا
فعليها وعلى الصبر سلام

يقول : إن الأعمال التي يصعد عليها الكلم الطيب إلى المستوى الأعلى ، يقول : حنّت إلى أوطانها ، التي هي الأسماء الإلهية التي عنها صدرت وبها تصرفت . وهذا الحنين ، هو الذي أوجب لها سرعة السير . وقد تكون أيضاً الهمم[3] ، وهي عندنا من الأعمال ، فلهذا شرحناها بالأعمال لتضمّنها الهمم . وجعله حنين محبة وشوق لا حنين عَرَضٍ يزول بزوال متعلّقه .

(١) انظر سورة مريم ، الآية رقم ٣٣.
(٢) انظر سورة مريم ، الآية رقم ١٥.
(٣) الهمة عند الشيخ في اصطلاحات الصوفية : «تطلق بإزاء تجريد القلب للمنى ، وتطلق بإزاء أول صدق المريد ، وتطلق بإزاء جمع الهمم بصفاء الإلهام» ، أما عند الجرجاني في التعريفات فهي : «توجه القلب وقصده بجميع قواه الروحانية إلى جانب الحق لحصول الكمال له أو لغيره» .

وقوله (ما حياتي بعدهم إلا الفنا) ؛ يقول : إذا ارتفعت الهمم نحو مقصودها ، أقيمت في الفنا عن الفنا فاتصلت بالحياة التي لا تنفد ولا يعقبها صدّ . ثم سلّمَ ، وأودع الصبر ، والحياة الطبيعية ، لفراقه موطنها الذي هو عالم الحسّ والتركيب الطبيعي .

بان العزاءُ وبان الصبر إذ بانوا
بانوا وهم في سويدا[1] القلب سُكَّانُ

يقول : بان مقام المنعة والصبر بانوا يعني المناظر الإلهية عنى .

وقوله (في سويدا القلب سكان) يقول : لما كان المناظر الإلهية لا تشبه لها إلاّ بالمنظور إليه وهو الله وهو سبحانه في سويدا القلب كما يليق بجلاله من قوله تعالى : «ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن»[2] ، فهو في قلب العبد لكنه لما لم يعط تجلى في هذه الحالة لم توجد المناظر فبانت من كونها مناظره مع كونه في القلب ، ويقال عزّ الأمر إذا امتنع فلم يوصل إليه والصبر حبس النفس عن الشكوى يقول بان هذا كله لبينهم .

ثم قال :

سألتهم عن مقيل الركب قيل لنا
مقيلهم حيث فاح الشيح والبان

يقول سألت العارفين حقائق الشيوخ المتقدمين الذين أبانوا لنا الطريق وأوضحوا لنا مناهج التحقيق لما رأيناهم في تجلياتنا كشفاً ، فالضمير في سألتهم يعود عليهم من ركب هذه المناظر الإلهية أين قالوا[3] يقول أي قلب وعين اتخذوه مقيلاً فقالوا لنا

(١) السويداء من القلب سواده .
(٢) انظر المعجم للدكتورة سعاد الحكيم ففيه تخريج لهذا الحديث ضمن الفقرة ٣٠ من ثبت أحاديث النبي الملحق بالمعجم .
(٣) قال قيلاً : نام في منتصف النهار .

اتخذوا كل قلب ظهرت فيه أنفاس الشوق والتوقان وهو قوله (فاح الشيح والبان) فالشيح من الميل والبان من البعد وفاح من الفوح وهي الأعراف الطيبة وإن أراد أن يجعله من الفيح الذي هو الاتساع ساغ أيضاً ، فإنه يليق به فإن السعة مطلوبة في هذه الحالة لأنه قال ما وسعني ، ولا يكون الفيح هنا من فاحت الجيفة تفيح فيحاً وهي الرائحة الكريهة فإن هذه المقامات لا تليق بها وهذا أن النبات ريحها طيب فكان المعنى يناقضه .

ثم قال :

فقلت للريح سيري والحقي بهم
فإنهم عند ظلّ الأيك قطّان

يقول : لما قال لي المسؤولون إن قيلولة أحبتي حيث كان عالم الأنفاس الشوقية لذلك قال (فقلت للريح) يقول بعثت نفساً شوقياً من أنفاسي الحق بهم ليردهم إليّ .

(والأيك) ، شجرة الأراك وهي مساويك يشير إلى مقام الطهارة ومرضاة الرب ، للخبر الوارد أن «السواك مطهرة للفم ومرضاة للرب»[1] .

(وقطّان) ، مقيمون في راحة فإن الظل الراحة ، لاسيما ظل الأشجار والكنف ، فإنه من قعد في ظلك فهو في كنفك .

وبلغيهم سلاماً من أخي شجنٍ
في قلبه من فراق القوم أشجان

يقول وأوصلي إليهم سلاماً من قوله تعالى : ﴿**وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً**﴾[2] مصدر ، يعني لا يعترض عليكم ، من أخ ذي شجن .

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصوم عن عائشة بلفظه ، وأخرجه الهندي في كنز العمال من طرق وبألفاظ مختلفة .

(٢) انظر سورة الفرقان ، الآية رقم ٦٣.

يقول : من صاحب حزن (في قلبه من فراق القوم أشجان) ، يقول : أنه في مقام التلوين[1] فكنى عنه بالقلب ، من تقلبه في هذه الأحوال والأحزان التي في قلبه لفراقهم . إنما هو من حيث إنه لم يرَ وجه الحق فيمن أعقبهم في محله حين لا يحس بفراق أصلاً ، وإن كان لا يصح قبل هذا المقام ، لأن الحقائق تأباه وتردّ وجوده ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : «لي وقت لا يسعني فيه غير ربي»[2] فغرق بين الأحوال ، وإن كان الحق مشهوداً له في كل حال . غير أنه لما كان حال شهود الذات أسنى الشهود ، وأحلاه ، وأعظم أثراً ، لذلك يقوم عنده وجه الحق فيما عدا هذا الشهود ، كما يقول لو تعشق بالتعلقات الإلهية ، لكانت لذّة شهود تعلق العلم أعلى من شهود تعلق القدرة ، لأنه اعمّ وتعلّق القدرة أخص ، لأن محلها الممكنات لا غير .

وقال رضي الله عنه :

وزاحمني عند استلامي أوانس
أتين إلى التطواف معتجزات[3]

يقول : لما امتدت اليمين المقدسة إليّ لأبايعها البيعة الإلهية ، من قوله تعالى : ﴿إنّما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾[4] جاءت الأرواح الحافون من حول العرش ، يسبِّحون بحمد ربهم ، ويطلبون يبايعونه هذه البيعة في هذه الحال التي أقمت فيها . وسماهم أوانس لوقوع الأنس بهنّ ، وأنّثهم لأن اللفظة التي تطلق عليهم تقتضي التأنيث وهو الملائكة والجنّة ولهذا جعلهم بناتاً وإناثاً ، وقوله معتجرات أي غير مشهودة له سبحات وجوهِهم ، لأنهم غيب لنا لا نراهم .

(١) التلوين في اصطلاحات الصوفية للشيخ ، هو : «تنقل العبد في أحواله» ، وهو عند الأكثرين مقام ناقص ، وعندنا هو أكمل المقامات وحال العبد فيه حال قوله تعالى : ﴿كل يوم هو في شأن﴾ .

(٢) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث .

(٣) كذا والصواب معتجرات ، وقد جاء اللفظ بحسب اللسان لابن منظور من المعجار وهو رداء تلفه النسوة حول رؤوسهن ثم يضعن الجلباب من فوقه ، وفي السيرة لابن هشام الجزء الرابع أن الرسول صلعم قد دخل مكّة يوم الفتح «وقف على راحلته معتجراً بشقّة برد حبرة حمراء» .

(٤) انظر سورة الفتح ، الآية رقم ١٠ .

ثم قال :

حسرن عن أنوار الشموس وقلن لي
تورّعْ فموت النفس في اللحظات

يقول : ظهرن له ، وارتفع الحجاب ، فسطعت أنوارهم لعينه مثل الشموس . واختص ذكر الحافين حول العرش لمناسبة الطائفين فإنهم حافون من حول الكعبة . وقوله تورع يقول اجتنب الملاحظة ، لئلا تذهب بنور بصرك المقيّد . كما جاء «لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه»[1] . فيقول : هذه الأرواح تقول له : لا تنظر إلينا فتعشق بنا حالاً ومقاماً ، وأنت إنما خلقت له لا لنا ، فإن احتجبت بنا عنه أفناك عن وجودك به ، فَمُتَّ فتكون عليك لحظة مشومة . فنصحوه بقولهم تورّع تنبيها .

وكم قد قتلنا بالمحصب من منى
نفوساً أبيّات لدى الجمرات

يقول : كم من نفس أبية ، يعني بالنفوس الأبية هي التي تحب معالي الأمور ، وتكره مذام الأخلاق ، والتعلق بالأكوان . ومع هذا حجبهم وتيَّمهم جمال الأكوان في أوقات ما وفي مقامات ما . فتَحَفَّظْ لئلا تلحق بهم . ولم يريدوا أنفسهم خاصة بهذا الخطاب فإن هؤلاء الأرواح ما لهم دخول في المحصب ولا غيره ، فإنهم حافّون ، وليس لهم مناسبة إلا مع الطائفين . وإنما تعني أمثالها من الأرواح في كل مقام . كما قال : ﴿كخيفتكم أنفسكم﴾[2] يعني أمثالكم . لا يريد عين نفس الخائف .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب في قوله عليه السلام «حجابه النور لو كشفه . إلخ» ، عن أبي موسى قال : «قام فينا رسول الله صلعم بخمس كلمات فقال : إن الله عزّ وجلّ لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور» ، وفي رواية أبي بكر : «لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» .
(٢) انظر سورة الروم ، الآية رقم ٢٨ .

وفي سـرحـة الـوادي وأعـلام رامـة[١]
وجـمـع وعند النفـر من عـرفـات

يقول : في هذه المواطن المذكورة كلها ، ماتت نفوس أبيّات ، كانت تزعم أن لا تعلّق لها ولا تعشق إلاّ بالنور المحض المطلق . فلما تجلى عند مفارقتها ظلمة الطبيعة والهبا[٢] وارتفعت عن حضيضها إلى أنوار الروحانيات العلى ، في هذه المواطن وأمثالها ، بهرها حسن ذلك النور وجماله وبهاؤه ، فوقفت معه عن مقصودها لجهلها به . فلا تكن مثلهم فتندم .

ألـم تدرِ أن الحـسـن يسـلـبُ من لـه
عـفـافٌ فـيُـدْعَى سـالِب الحـسـنات

فـمـوعـدنا بـعـد الطواف بزمـزم
لدى القـبَّـة الوسطى لدى الصـخـرات

يقول : إن الجمال محبوب لذاته ومن ملكه شيء ، كان لما ملكه . والحسنة مشتقة من الحسن . والحسن معشوق لذاته . والحسنة ما لها قوة الحسن ، فإنها معنوية ، من باب الإيمان غيب في الشهود ، وهو من نتائج الأعمال الشاقة ، وتحمل المكاره فهي نتائج مضافات[٣] ومكاره . فلهذا كان الحسن المشهود غالباً عليها ، حاكماً على من شاهده فلهذا يقال له (سالب الحسنات) لا يتركك التلذذ بمشهد الحسن فيمن كان يفعل إلاّ ما يشير به حامل ذلك الحسن . وقد يشير بما يحول بينك وبين معالي الأمور من حيث التوصل إليها ، لا من حيث هي . فإن التوصل إليها بالمكاره كما قال عليه الصلاة والسلام : «حفّت الجنة بالمكاره»[٤] .

(١) رامة هي بحسب الحميري «موضع بالعقيق ، وقيل بل هي وراء القريتين في طريق البصرة إلى مكّة . . .» وسرحة بحسب المرجع نفسه هي : «مدينة في طريق اليمن . . .» .
(٢) كذا وحقها أن تكتب «الهباء» .
(٣) كذا وأحسب أن السياق يفترض مضايقات .
(٤) تمام الحديث «حفّت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات» رواه مسلم والترمذي وأحمد عن أنس ، ورواه مسلم أيضاً عن أبي هريرة .

وكما رأى بعض المشاهدين معروفاً[1] في النار ، في وسطها وقد حفت به ، وكانت المكاره التي حازها إلى مكانه الذي رآه فيه ، يشير له في كشفه ، أنه لا يصل إلى مقامه إلاّ بعد أن يخوض غمرات تلك النيران .

ثم قال : (فموعدنا بعد الطواف بزمزم . . .) البيت بكامله ، يقول : تقول له هذه الروحانيات أشهدناها من مقامات الحياة التي نحن لها فإنها أرواح ، والمناسبة بينها وبين الماء الحياة .

وقوله (لدى القبة الوسطى) يعني البرزخ[2] .

(لدى الصخرات) يقول : تنزل المعاني النفسية في القوالب المحسوسة ، وكنّى عنها بالصخرات ، التي هي الجمادات الخالية للعبادة والعرف . أي أن الأرواح في هذه الصور الخيالية مَعَان لا ثبات لها ، فإنها سريعة الزوال من النائم باليقظة ، ومن المُكَاشَف بالرجوع إلى حسِّه ، كما أن النساء الذين يصلون إلى ذلك الموضع ، إنما يعمرونه ساعة ثم ينصرفون[3] إلى أماكنهنّ فلهذا أوقع التشبيه بذلك . يقول : لا تغتر بتجلي حسن الأكوان العلوية والسفلية لعينك ، فإنه «كل ما خلا الله باطل»[4] أي عدم مثلك . فكأنك ما زلت عنك ، فكن له ليكون لك ، لا تكن لك فقد نصحوا صلوات الله عليهم .

---

(١) هو معروف بن فيروز الكرخي أحد أعلام الزهاد والمتصوفين . . ولد في كرخ بغداد ونشأ وتوفي في بغداد سنة ٨١٥م (عن الأعلام للزركلي) . وانظر أيضاً طبقات الصوفية للسلمي وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان .

(٢) البرزخ في اصطلاحات الشيخ هو : «العالم المشهود بين عالم المعاني وعالم الأجسام» .

(٣) كذا والصواب «اللاتي يصلن إلى ذلك الموضع ينصرفن ، إنما يعمرنه ساعة ثم ينصرفن» .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق عن أبي هريرة عن النبي صلعم قال : «أصدق بيت قاله الشاعر (ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل) . والبيت للبيد بن ربيعة العامري من قصيدة رثاء في النعمان بن المنذر وتمام البيت (الديوان) :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل
وكل نعيم لا محالة زائل

هنالك من قد شَفَّه الوجد يشتفي
بما شاءه من نسوة عطرات

يقول : في عالم البرزخ ، يشتفى من أراد التلذذ بالمعاني القدسية في القوالب الحسية من عالم الأنفاس والأرواح ، وسبب ذلك الجمع بين الصورتين ؛ المعنى والصورة فليلتذ عيناً وعلماً .

إذا خفنَ اسدلنَ الشعور فهنّ من
غدائرها في ألْحَف[1] الظلمات

يقول : هذه الصور الجليلة ، إذا خفن في تجسدهنّ من تقييدهنّ بالصورة عما هي عليه من الإطلاق ، أشعروك بأنهنّ حجاب على أمر ، هو ألطف مما رأيت . فعندما تحس أنت بذلك الشعور ، ارتفعت همتك لذلك ، فانسترت عنك فأخْلَيْن الصور ، واسترحن من التقييد ، وانفسحن في مراتبهنّ المنزهة .

دَرَسَتْ[2] ربوعهمُ وان هواهمُ
أبداً جديداً بالحشا مما يدرس

يقول : إن محالّ الرياضات والمجاهدات ، التي هي منازل الأعمال ، تغيرت للسِّن وعدم قوة الشباب . واختص ذكر الربع دون الطلل والرسم والدار والمنزل ، ليكون له اشتقاق من زمن الربيع ، الذي هو بمنزلة الشباب من عمر الإنسان . فإن التغيير إنما لحق قوة الشباب وريعانه .

وكنى عن النفس التي هي محل الهوى بالحشا ، لأنها كالحشوة في البدن . أي هو حشو فيه ولذا قال : ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم﴾[3] يعني عند خروجها بالموت . فنقول إن هواهم بالنفس ما يتغير ، بل هو على غضاضته وطراوته ، لأنه قائم بذات غير طبيعية .

(١) لحف لحفا غطاه باللحاف ، ولحف القمر امتحق ، واللحف أصل الجبل . وعندي أن المراد من أفعل التفضيل ألحف هو القول إنه في أشدّ الظلمات عتمة كناية عن شدة سواد الغدائر .

(٢) درس البناء مثلاً ، أتى عليه الدهر وانطمست معالمه وتقادم وعفت آثاره . وجديداً كذا وردت وحقها أن تكتب جديدٌ .

(٣) انظر سورة الواقعة ، الآية رقم ٨٣.

هـذي طـلـولـهـمُ وهـذي الادمـعُ
ولـذكـرهـم أبـداً تـذوب الأنـفـس

يقول : هذي طلولهم . يقول ، أشخاص منازلهم . كأن الشخص هو الطلل ، وهو من طل إذا بدا يظهر ، ومنه الطل الذي هو أول نشء المطر ، فهو ضعيف . وهذه الأدمع مناسبة للطلل لاشتقاقه من الطل ، أي يبكي على التقصير لعدم مساعدة الآلات فيما يريده من الطاعات .

وقولهم[1] (ولذكرهم) وهو حنين العارفين في نهايتهم إلى موطن بدايتهم ، وانه ليس شيء اعظم لذة من البداية .

ناديت خلف ركـابهم من حـبـهم
يا من غناه الحـسن ها أنا مـفـلس

يقول لما رحلت قوى الشباب ، وملذوذات البداية ، في الفترة والحيرة والهمم تزعج ، والمركب غير مساعد ، بقيت في صورة المفلس الذي يرى أطايب الملذوذات ويدخل سوق النعيم والشهوات ، وما له درهم يصل به إلى نيل شهوته من شهواته . والضمير في غناه يعود إلى عصر الشباب ، وعلى عصر البدايات . فهو متوجه لهما ونسب إليه الحسن لكونه معشوقاً ، فإن الحسن معشوق لذاته في كل شيء ظهر .

مـرّغت خـدي رقـةً وصـبـابةً
فـبـحق حق هواكم لا تؤيسـوا

يقول : (مرّغت خديّ رقةً وصبابة) يشير إلى نزوله لحقيقة من الذلّ والافتقار ، طلباً للوصال . فإن الحقّ يقول «تقرّب إلي بما ليس لي»[2] هو والذلة والافتقار .

(١) كذا والصواب في ظني «وقوله» .
(٢) جاء في الفتوحات المكية السفر العاشر الفقرة ٢٠٥ ، والسفر الثاني عشر الفقرة ١٠٣ : أن الحق تعالى قال لأبي يزيد البسطامي : تقرّب إليّ بما ليس لي أي الذلة والافتقار .

(والصبابة) ، رقة الشوق ، فإذا كانت الذلة بضرب المحبة ، هي أمكن في الوصلة من الذلة بلا حب .

وقوله (رقة) يشير إلى حالة اللطف والارتقاء عن عالم الكثافة . وجعل للهوى حقاً يقسم به ، لكونه ذا سلطان ، لأنه من العالم العلوي ، ولهذا سمي سقوطه فقيل فيه هوى أي سقط .

من ظلّ في عبراته غرقاً وفي
نار الأسى حرقاً ولا يتنفس

يقول : إن حالته مترددة بين عبرته وزفرته ، فكنى بالعبرة عن الاعتبار ، الذي هو الجواز عن حالة النجاة له إلى الهلاك فيه ، وهو الغرق ، وكنى بالزفرة عن نار الأسى ، أي مقام الحزن وحرارة الشجن ، ولا نفس رحماني بارد يثلج به الفؤاد ، فيبرد حرارة الحزن ، لفوت المحزون عليه بمشاهدة ما ، عن عناية الهبة ، ولا منح يأخذ بيده ليخلص من الغرق في بحر الدموع ، من كونها عبرات فلا يجوز إلى شيء من شيء بل يشهده في كل شيء ، فإن التفرقة للمعارف من حيث المشهود شديدة .

يا موقد النار الرويدا هذه
نار الصبابة شأنكم فلتقبسوا

يخاطب كل طالب نار يقول له : لا تتعنّ في طلب نار بوجودي ، فهذه نار الشوق في كبدي ظاهرة فخذ حاجتك منها ، أي انتقل إلى النار اللطيفة التي هي حالة موسوية[1] منشأ لطلب نار لأهله يصلح به عيشهم ، فنودي من حيث طلبهم في نار يسرع بالإجابة من غير انتقال من حال إلي حال ، وكان التغيير في النارين لما في الطلب ، فإن أوحد الهمة لأنه ما تراءى له المشهود إلاّ في صورة نارية متعلقة بشجرة

(١) إشارة إلى سورة طه ، وفيها أن موسى رأى ناراً فذهب قائلاً لمن معه : ﴿لعلّي آتيكم بقبس﴾ ، ومعلوم أنها لم تكن ناراً بل هو الرب وقد تجلّى له .

وادية من التشاجر ، وهو مقام تداخل المقامات لأنه مشهد للكلام والكلام متداخل المعاني على كثرتها فأشبه الشجرة فنودي من الشجرة هذا المعنى وفي النار لأنها مطلوبة فلا يتغير عليه حالٌ .

لمعت لنا بالأبرقين[1] بروق
فصفت لها بين الضلوع رعود

الأبرقين مشهدين للذات : مشهد في الغيب ومشهد في الشهادة ، فالغيب غير متنوع لأنه سلبي ، والشهادة متنوع لأنه في الصور .

وقوله (بروق) لتنوع الصور فيه ، وكنّى عنها بالبروق لسرعة زوالها . وجاء بالرعود بعده الذي هو الصوت ، عبارة عن مناجاة إلهية حصلت . عقيت هذه الشهود حالة موسوية ؛ تراءى له عن النار الذي هو كالبرق ، ثم نوجي فأعقبه الكلام ، فكنّى عنه بالرعد لأجل البرق ولأنها مناجاة زجر .

وهَمَتْ سحائبها بكل خميلة
وبكل مَيّاد عليك تميد

الخميلة الروضة ، وهي قلب الإنسان بما يحمله من المعارف الإلهية . والسحاب هنا هي الأحوال التي تنتج المعارف . وَهَمَتْ سَحَتْ وسكبت عن المطر . وذكر السحاب لتضمنها مع قوله همت ، فاستغنى . وكذلك الخميلة ، فهي مطر في السحاب ، وأزهار في الرياض . وكنى بالغصن في هذه الروضة ، يعني الحركة المستقيمة ، التي هو نشأة الإنسان من قوله : «خلق آدم على صورته»[2] فمن هذا المقام يميد أي يميل عليك ليفيدك .

(١) في المعاجم الجغرافية القديمة ذكر لأكثر من أبرق ، ولكن البغدادي في مراصد الإطلاع يقول : «فإذا جاءوا بالأبرقين فأكثر ما يريدون به حجر اليمامة وهو منزل على طريق مكة من البصرة بعد رميلة اللوى» . أما فصفت في البيت فصوابها «قصفت» .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الاستئذان عن أبي هريرة عن النبي صلعم قال : «خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعاً ، فلما خلقه قال اذهب . .الخ» ، وأخرجه مسلم أيضاً في موضعين .

ثم قال :

فجرتْ مدامعها وفاح نسيمها

وهفت مطوقة وأورق عودُ

يقول : سالت أودية معارفها ، وتم عالم الأنفاس بما تحمله من طيب أعراف أزهار المعارف الإلهية بحسب مشامّ الطالبين . والمطوقة[1] إشارة إلى النفس الكلية ، بالأثر الذي لها في النفس المروية ، التي ظهرت على صورتها في كونها ذات قوتين علاّمة فعّالة . وقوله (وأورق عود) الذي هو لباس الأغصان . يقول : ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾[2] فإن زينة الله غير محرمة علينا ، والذي وقع الذمّ عليها زينة الحياة الدنيا[3] أي الزينة القريبة الزوال . أي لا تلبسوا من الملابس إلا ما يكون دائماً كملابس العلوم والمعارف ، فإنها لا تخلق ولهذا قال : ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾[4] يعني المعلم الذي ألبسك التقوى من قوله : ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾[5] .

نصبوا القباب الحمر بين جداول

مثل الأساود بينهنّ قعود

---

(١) المطوقة الحمامة ذات الطوق ، ولابن سينا عينية رائعة عن النفس ، وقد رمز إليها بالمطوقة فقال في مطلعها :

هبطت إليك من المحل الأرفع

ورقاء ذات تدلل وتمنع

(٢) انظر سورة الأعراف ، الآية رقم ٣١.

(٣) انظر سورة الكهف الآية رقم ٢٨ : ﴿ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾ ، وأعتقد أن الإشارة إلى هذه الآية لا إلى الآية ٤٦ من السورة نفسها التي تقول : ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ فالأولى أشبه بمراده وأكثر موائمة .

(٤) انظر سورة الأعراف الآية رقم ٢٦.

(٥) انظر سورة البقرة ، الآية رقم ٢٨٢.

أشار بالقباب الحمر إلى حالة الأعراس بالمخدرات ، يريد الحكم الإلهية والجداول فنون العلوم الكونية التي متعلقها الأعمال الموصلة ، أي هذه الحكم وشبهها بالأساود وهي الحيات لمشيها على بطونها ، فإنه قال تعالى : ﴿فمنهم من يمشي على بطنه﴾[1] يشير إلى الباحثين من أهل الورع عن أغذيتهم ، فإنه بطيِّب المطعم على الوجه المشروع الذي يحدث القوى لاستعمال الطاعات ، يتنور القلب فتنزل هذه الحكم الإلهية التي قال عنها بأنهنّ قعود بين هذه الجداول في القباب الحمر . فتنبه لما أشرنا إليه .

ثم أخذ يصف مراتبهنّ في البيت بعده :

بيضٌ أوانس كالشموس طوالعٌ
عين كريماتٌ عقائل غيدُ

وصفهنّ بالبياض ، أي لا شك فيهنّ مثل النصوص[2] . كما قال : «ترون الشمس بالظهيرة ليس دونها سحاب»[3] ، أي هي من الوضوح بحيث أن لا يدخل فيها شك لمن ينظر إليها .

وقوله (أوانس) ، يتونّس بهنّ من الأنس والنظرة والنظر فيها ، أي يبصرهنّ كما جاء في الخبر الإلهي «كنت بصره الذي يبصر به»[4] .

وقوله (كالشموس) في الرفعة ، ومقام القطبية ، وارتفاع الشكوك ، وإعطاء المنافع في المولدات والطوالع المستشرفات على القلوب الطالبة لها المتشوقة لنزولها عليها وظهور أنوارها فيها . (والعين) ، الواسعات النظر ، يريد قوة النور والكشف .

(١) انظر سورة النور ، الآية رقم ٤٥.
(٢) جمع نص ، وهو عند الأصوليين الكتاب والسنّة ، أي أنهن كالكتب التي لا ريب فيها .
(٣) إشارة إلى الحديث : «ترون ربكم كما ترون . .الخ» وقد سبق لنا تخريجه .
(٤) أخرجه البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلعم إن الله قال : « . . .وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها . . .» .

(والكريمات) ، الطيبات الأصول ، أي أنها على نتائج أوضاعهم ويعرف ذلك أصحاب الذوق .

(والعقائل) ، مشتقة من العقل ، أي هن ممن يعقلن ما يلقى إليهنّ ويعرفن مقداره ويميزنه ، يكون تنزلهن على ذلك القدر والحد .

وقوله (غيد) أي مائلات لمن نزلت[1] عليه بضرب من الحنوّ ، فإن الميل حنوّ يشير إلى مقام الحنان والرأفة والعطف والمحبة والرغبة ، والميل لا يكون إلاّ من استواء ، فيشير إلى أنهن من حيث هن في مقام الاستواء والاعتدال وعدم الالتفات ، وإذا استدعوا بالسؤال والرغبة والتواضع والشوق والمحبّة ، ملن عن ذلك الاستواء إلى المنادي ، لما لم يكن في قوته العروج إليهن فكان منها النزول .

وقال رضي الله عنه :

إني عجبت لصبّ من محاسنه
تختال ما بين أزهار وبستانِ
فقلت لا تعجبي ممن ترين فقد
أبصرت نفسك في مرآة إنسان

قالت ، يعني الحضرة الإلهية ، عجبت لصبّ ، يعني المائل إليها بالمحبة ، ووصفها بالتعجب من باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : «إن الله يتعجب من الشاب ليست له صبوة»[2] .

وقوله (من محاسنه تختال ما بين أزهار وبستان) يعني بالأزهار الخلق ، والبستان المقام الجامع ، وهي ذاته . ووصفه بالخيلاء مناسبة لقولها عجبت ، ومن باب قول عتبة

(١) كذا وأحسب أن الصواب «نزلن» .
(٢) أخرجه ابن حنبل في المسند ٤/ ١٥١.

الغلام[1] لما اخذ يختال ويتيه في مشيته ، فقيل له في ذلك فقال : «وكيف لا آتيه وقد أصبح لي مولى وأصبحت له عبداً !» . وإذا تحقق العبد بالحق تحقق «كنت سمعه وبصره» وتحقق أن يكون كله نوراً . فجميع ما ينسب إلى الحق إذا انتسب إليه ، يستحقه ذلك المقام .

ثم أعاد القول ، هذا المحب ، على الحضرة فقال (لا تعجبي مما ترين) فإني لك كالمرآة ، وهذه أخلاقك التي تخلّقت بها ، فنفسك أبصرت لا أنا ، ولكن في إنسانيتي القابلة لهذا التجلي . فهي لها كالبستان ، وهذا مقام رؤية الخلق في الحق في الخلق ، وعند بعضهم مقام رؤية الحق في الخلق ، أعلى من مقام رؤية الخلق في الحق . وسر هذين المقامين عجيب ، فإن الناس في حال نعيمهم في الجنة وتصرفاتهم ، هو في مقام رؤية الخلق في الحق ، فلهم الاقتدار وهم في الكثيب في رؤية الخلق في الحق ، وبتلك الصفة يرجعون إلى الجنة ، والأمر على الحقيقة رؤية حق في حق ، لأنهم يشهدونه في الكثيب .

ألا يا حمامات الأراكة والبان
ترفقن لا تضعفن بالشجو أشجاني

أراد بالحمامات واردات التقديس والرضى والنور والتنزيه ، فالتقديس والرضى للأراكة لأنه شجر يستاك به ، وهو مطهرة للفم ومرضاة للرب[2] . والنور والتنزيه للبان من حيث الدّهن ومن حيث البعد . كما قال فكانت البان أي كانت سليمى فقال للواردات وفقاً على لا تضعفن من التضعيف : ما تلقين إليّ في خطابكن من ثمرات التعشق والمحبة المهلكة للمحبين ، أي خطابكن يشجي ويضاعف شجوي ، وقد يكون

(١) هو عتبة بن أبان ، وسمّي بالغلام «لأنه كان في العبادة كأنه غلام رهبان» ذكره الشعراني في طبقاته وذكره النبهاني في جامع كرامات الأولياء : ج٢ ص١٤٢ ، وانظر أيضاً حلية الأولياء ج٦.
(٢) سبقت الإشارة إلى الحديث .

من الضعف أي شجوي يضعف لشجوكن من باب قوله من «تقرب إلي شبراً تقربت منه ذراعاً»(١) .

ترفــــقن لا تظهـــــرن بالنوح والبكا
خَــفيَّ صـــبـــاباتي ومكنون أحـــزاني

يخاطب الواردات التي ذكرناها ، يقول : لا تظهرن بالنوح التي هي المقابلة في الشجو والبكاء إرسال المدامع لسبق المقدور وعدم تبدله . وقد رأيته في مشهد من المشاهد يبكي على ما سبق في العلم من شقاء الدجال وأبي لهب وأبي جهل(٢) من باب قوله تعالى : «ما ترددت في شيء كترددي في قبض روح عبدي المؤمن وهو يكره الموت وأنا اكره مساءته ولا بد له من لقائي»(٣) فمن هذا المقام يكون هذا البكاء . وقوله خفي صباباتي ، ما تنطوي عليه الضلوع من رقة الشوق للمنظر الأجلي . ومكنون أحزاني ما تستره من ألم الفقد عند رجوعها إليها .

أطارحــــهـــا عند الأصـــيل وبالضـــحى
بَحنَّة مــــشــــتــــاق وأنّه هيــــمـــان

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلعم : «يقول الله عزّ وجلّ أنا عند ظنّ عبدي بي وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم وإن اقترب إليّ شبراً اقتربت منه ذراعاً وإن اقترب إلَيّ ذراعاً اقتربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» ، وأخرجه البخاري أيضاً في كتاب التوحيد ومسلم في الذكر .

(٢) أما الدجال فضدٌ يظهر في آخر الزمان ومكتوب على جبينه «كافر» (ك ف ر) ويتبعه خلق كثير ويعيث في الأرض فساداً ، ولكن مهدي الأمة له بالمرصاد فيقتله ويملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً . انظر كتب الصحيح فالأحاديث في صفته كثيرة . أما أبو لهب فهو عبد العزّى بن عبد المطلب بن هاشم وهو عم النبي وكان من أشد الناس عداوة للمسلمين وكان يسمّى بأبي لهب للون بشرته وصباحته ، نزلت فيه وفي زوجه أم جميل سورة المسد وفيها ونبزت زوجه بحمّالة الحطب . وأما أبو جهل فهو عمرو بن هشام وكان زعيم بني مخزوم ومثله في العداء للمسلمين مثل أبي لهب ، كان لقبه «أبو الحكم» فلقّبه النبي بأبي جهل ، قتل في معركة بدر سنة ٦٢٣م .

(٣) مرَّ تخريج هذا الحديث سابقاً ، إلا أنني لم أنقل هذه الفقرة الخاصة بقبض روح المؤمن مع ما سبقها .

يقول : أطارحها أتقول مثل ما تقول . يشير إلى حالة الصدى الذي هو رد الصوت إليك بما يخرج منك . قال الله تعالى للنفس أول ما خلقها من أنا؟ قالت له من أنا لصفائها ، فأسكنها في بحر الجوع أربعة آلاف سنة ، فقالت له أنت ربي .

وقوله (عند الأصيل وبالضحى) وهما طرفا النهار وهو قوله تعالى : ﴿**بالعشي والإبكار**﴾[1] ، وقوله : ﴿**قبل طلوع الشمس وقبل غروبها**﴾[2] ، فهو المُقَدِّس نفسه بنفسه ويظهر الأثر في غيره فينسب إليه الأمر . وهو ليس هناك لأنه به يتكلم وبه يسمع وبه يبصر . وقوله تحية مشتاق وأَنَّةُ هيمان من قوله : «يحبّهم ويحبونه» فمن هذا المقام تكون المطارحة بين من ذكرنا ، والحنين للاشتياق وللأنين الهيمان .

تناوحت الأرواح في غيضة الغضا
فمالت بأفنان عليَّ فأفناني

يقول : تقابلت الأرواح ، جمع روح . وإذا أراد جمع ريح فيريد عالم الأنفاس . وكنىً عن نيران الحب بالغضا[3] .

و(الغيضة) شجرة . ووصفها بالميل ، فإن لهيب النار الذي هو المارج فإنها للنار بمنزلة الأغصان للشجر ، فتميلها الرياح كما تميل الأغصان ، فمن هنا أوقع التشبيه لها بالغيضة والأفنان . قال وكان ميل هذه الأفنان الشوقية اللهبية لتغنيني عني ، حتى يكون هو ولا أنا ، غيرةً على المحب أن يكون له وجود في نفسه لغير محبوبه ، فكان كما أراد ، فقال : فأفناني ميل هذه الأفنان . ووصفها بالمناوحة لكون المحبة تقتضي الجمع بين الضدين .

---

(١) انظر سورة آل عمران ، الآية رقم ٤١ : ﴿قال ربِّ اجعل لي آية قال آيتك ألاّ تكلم الناس ثلاثة أيام إلاّ رمزاً واذكر ربّك كثيراً وسبّح بالعشيّ والإبكار﴾ ، وسورة غافر ، الآية رقم ٥٥ : ﴿فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبّح بحمد ربّك بالعشي والإبكار﴾ .

(٢) انظر سورة طه ، الآية رقم ١٣٠ : ﴿فاصبر على ما يقولون وسبّح بحمد ربّك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى﴾ .

(٣) الغضا شجر من الأثل خشبه صلب وجمره لا ينطفئ سريعاً بل يلبث طويلاً .

وجـــاءَت من الشـــوق المبـــرّح والجـــوى
ومـــن طـــرف البـــلـــوى إلـــيّ بـــأفـــنـــان

يقول : ساقت معها إليّ فنوناً كثيرة من الشوق المبرح أي المظهر لما يكنه جناني من هواه (والجوى) ، الذي هو الانفساح في المحبة ، لأنه على الحقيقة مأخوذ من الجوّ .

(ومن طُرَف) جمع طرفة ، وهي أوائل كل طرفة . وأول كل بلاء أصعبه . فإذا سكنت إليه النفس هان عليها .

(والبلوى) ، من الابتلاء أي ساقت إليّ أوائله التي هي أصعبها .

فـــمن لي بجـــمع والمحـــصب من منىً
ومن لي بذات الأثل من لي بنعـــمـــان[١]

يقول : من لي بالجمع بالأحبة في مقام القربة وهي المزدلفة .

(والمحصب) موضع تحصيب الخواطر المانعة من قبل هذه النية المطلوبة للمحبين .

(ومن لي بذات الأثل) الذي هو الأصل ، فإن الأصل في المحبة أن تكون أنت عين محبوبك ، وتغيب فيه عنك ، فيكون هو ولا أنت .

(من لي بنعمان) ، أي بهذا المقام الذي يكون به النعيم الإلهي القدسي .

تطوف بقلبي ســـاعـــةً بعـــد ســـاعـــة
لوجـــدٍ وتبـــريح[٢] وتلثمُ أركـــاني

(١) جمع هي المزدلفة وكلها مشعر إلا بطن محسّر ومنها تؤخذ حصى الجمرات . . والمحصب في مكة معروف ، وأما ذات الأثل فواد في حيّز بدر طوله ثلاثة أميال واسمه الأثيل ، ولكن لذي الرمة بيت يقول :
أراجـــعـــة يا مي أيامنا الأولى
بذي الأثل أم لا مـــا لهن رجـــوع
وأما نعمان بفتح النون وتسكين العين فوادي عرفة دونها إلى منى وهو كثير الأراك وفيه قال الشاعر النميري بيته المشهور (عن الحميري في الروض المعطار) :
تضـــوّع مـــسكاً بطن نعـــمـــان إذ مـــشت
به زينب في نســـوة خـــفـــرات

(٢) «التبريح» هو شدة الأذى والتعب من الأمر واستعمل في الحب .

كـمـا طاف خـيـر الرسل بالكعـبـة التي
يقـول دليل العـقل فـيـهـا بنقـصـان
وقـبّل أحـجـاراً بهـا وهو ناطقٌ
وأين مـقـامُ البـيـت من قـدر إنسـان

شرح البيت الأول : أي تتقرر عليه مع الأنات لتقلبه هو في الحالات ، ولذلك جاءه بالقلب ولم يقل بالنفس ولا بالروح .

وقوله (لوجد وتبريح) من أجل إلقائها في الوجد بها ، والشوق المزعج إليه .

(وتلثم أركاني) يعني بالأركان الأربعة التي قام عليها هذا الهيكل . وتلثمه أي تقبله فوق اللثام يعني الحجاب ، فإنه ما في قوته مشاهدتها إلاّ بواسطة وقد طافت بقلبه فقد غمرت ذات المحب حساً ومعنى هذه الحقائق .

فكم عـهـدتْ أن لا تحـول وأقـسـمت
وليس لمخـضـوبٍ وفـاءٌ بإيمان

يقول : هذه الواردات ، قد يكون منها ما فيه امتزاج بالمزاج ، فكنّى عما فيها منها بالمخضوب ، ولهذا وصفها بعدم الوفاء . وتسمّى هذه واردات نفسية ، وهي التي وردت على النفس حين خاطبها الحق : ﴿ألست بربكم﴾[1] ، واخذ عليها العهد والميثاق ، ثم بعد ذلك لم تثق بمقام التوحيد له ، بل أشركت على طبقاتها ، فإنه ما سلم من هذا الشرك أحد . فإن كل أحد قال أنا فعلت وقال على حين غفلة عن مشاهدة القائل ، فيه وبه من هو .

ومن عـجـب الأشـيـاء ظبيٌ مـبـرقعٌ
يشـيـر بعنّاب[2] ويومي بأجـفـان

(١) انظر سورة الأعراف ، الآية رقم ١٧٢ ، وتمامها : ﴿وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ومن ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين﴾ .
(٢) يريد بالعنّاب الأنامل وهو تشبيه قديم ساد إلى زمن غير بعيد .

يقول : من أعجب الأشياء ظبيٌ يريد لطيفة الإلهية .

(مبرقع) يقول : محجوب بحالة نفسية ، وهي أحوال العارفين المجهولة ، فإن العامة تظهر بما تظهر به الطائفة المحققة من الصور بخلاف أصحاب الأحوال . ولا يتمكن التصريح من أهل هذا المقام بأحوالهم فإنهم يكذبون لعدم الشاهد ، ولكن يعرفون بالإشارة والإيماء ، عند بعض الذائقين لأوائل أحوالهم .

وأراد (بالعنّاب) هذا ما أراده بالمحصّب في اليد قبله .

(والإيماء بالأجفان) يقول : أدلة النظر في أحكام أصحاب هذا المقام ، يقوم للذائقين لأوائله فتقع المعرفة لهم فيهم أنهم ، وإن اشتركوا مع العامة في صورة الحكم الظاهر ، فهم بائنون في أسرارهم في أصلها . فشتّان بين من ينطق بنفسه وبين من ينطق بربه . واللسان واحد عند السامع في الشاهد .

ومرعاه ما بين الترائب والحشا
ويا عجباً من روضة وسط نيران

يقول : (ومرعاه بين الترائب والحشا) ، من العلوم التي في صدره . والحشا ما حشي به باطنه وقلبه من الحكم والإيمان ، كما قال وضرب بيده إلى صدره إن هاهنا لعلوماً جمة لو وجدت لها حملة[1] ، ثم أخذ يتعجب من محبّ أحرق بنيران المحبة والاشتياق ، كيف لم تحرق ما يحمله من الحكم والعلوم ، التي بين ترائبه وفي حشاه . ووصفه بالروضة لاختلاف أزهارها وأثمارها ، فإن فنون العلوم كثيرة متنوعة ، ومن شأن النار إذا تعلقت بالأشجار أحرقتها ، وهذه علوم محمولة في هذا الشخص ، ونار الحب متأججة في ذاته ، فكيف لم تذهب بهذه العلوم فلا يبقى لديه علم أصلاً؟ والجواب عن هذا أنه منه تكوّن وإذ تكوّن شيء عن شيء لم يعدمه ذلك الشيء ، كما

(١) في كلام للإمام علي لكميل بن زياد النخعي قال : « . . . يا كميل هلك خُزّان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة ها إنّ هاهنا لعلما جمّاً (وأشار إلى صدره) لو أصبت له حَمَلَةً . . » (نهج البلاغة ، ج٢ ، طبعة الشيخ المرصفي) .

يقال في السمنْدَل[1] إن كان حقاً أنه حيوان يتكوّن في النار فلا تعدو عليه . ولما كانت هذه العلوم والمعارف نتائج عن نيران الطلب والشوق إليها لم تغن[2] بها .

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فمرعىً لغزلان ودير لرهبان

(لقد صار قلبي قابلاً كل صورة) ، كما قال الآخر «ما سمي القلب إلاّ من تقلبه»[3] ، فهو يتنوّع بتنوّع الواردات عليه . وتنوّع الواردات بتنوّع أحواله ، وتنوّع أحواله لتنوع التجليّات الإلهية لسرّه ، وهو الذي كنىً عنه الشرع بالتحول والتبدل في الصور . ثم قال (فمرعى لغزلان) أي إذا وصفناه بالمرعى ، كنينا عن السارحين فيه بالغزلان دون غيرهم من الحيوانات لأن كلامنا بلسان الهوى ، وبالغزلان يقع التشبيه بالأحبة للمحبين في هذا اللسان . ولا شك أن عين الفرس سوداء متسعة ولكن ما وقع التشبيه إلا بعين الغزلان .

وقوله (ودير لرهبان) يقول إذا جعلناهم رهباناً من الرهبانية وموضع إقامتهم .

وبيت لأوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن

يقول : وهذا القلب صورة بيت الأوثان ؛ لما كانت الحقائق المطلوبة للبشر قائمة به ، التي يعبدون الله من أجلها ، فسمّى ذلك أوثاناً . ولمّا كانت الأرواح العلوية حافّين بقلبه ، سمّى قلبه كعبة ، وهي الأرواح المذكورة له إذا مسّه طائف من الشيطان ، فهن أصحاب الملمات الملكية . ولمّا حصّل من العلوم الموسوية العبرانية ، جعل قلبه ألواحاً لها . ولما ورث من المعارف المحمدية الكمالية ، جعلها مصحفاً ، وأقامها مقام القرآن لما حصل له من مقام «أوتيت جوامع الكلم»[4] .

(١) نقل ابن منظور في اللسان عن أبي سعيد أن : «السمندل طائر إذا انقطع نسله وهرم ألقى نفسه في الجمر فيعود إلى شبابه» . وقال غيره : «هو دابة يدخل النار فلا تحرقه» .

(٢) كذا وأحسب أن الأصح هو لفظ تفنى مع ملاحظة الجزم بالطبع .

(٣) أخرجه الهندي في كنز العمال ج ١ عن أبي موسى عن النبي أنه قال : «إنما سمّي القلب من تقلّبه . إنما مثل القلب مثل ريشة بالفلاة تعلّقت في أصل شجرة تقلبها ريح ظهراً لبطن» .

(٤) أخرجه البخاري في التعبير ، وأخرجه مسلم في المساجد ، وذكره الشيخ في فتوحاته في عدة مواضع .

وقال :

أدين بدين الحبّ أنّى توجهت
ركائبه فالدين[1] ديني وإيماني

يشير إلى قوله : ﴿فاتبعوني يحببكم الله﴾[2] ، فلهذا سمّاه دين الحبّ ودان به ، ليتلقّى تكليفات محبوبه بالقبول والرضى والمحبّة ورفع المشقة والكلفة فيها بأي وجه كانت . ولذا قال (أنّى توجهت) أي : أيّةً سلكت مما يرضى ولا يرضى ، فهي كلها مرضيّة عندنا . وقوله (فالدين ديني وإيماني) أي : ما تمّ دين أعلى من دين قام على المحبّة والشوق لمن أدين له به ، وأمر به على غيب ، وهذا مخصوص بالمحمديين ، فإن محمداً صلّى الله عليه وسلّم له من بين سائر الأنبياء مقام المحبة بكمالها ، مع أنه صفيّ ونجيٌّ وخليل ، وغير ذلك من معاني مقامات الأنبياء ، وزاد عليهم أن الله اتخذه حبيباً أي محبّاً محبوباً ، وورثته على منهاجه .

لنا أسوة في بشر هند وأختها
وقيس وليلى ثم ميّ وغيلان[3]

ذكر المحبين في عالم الكون المهيمن بعشق المخدرات في الصور من الأعراب المتيَّمين .

---

(١) هكذا ورد البيت ولكن المشهور هو قوله في العجز : « . .فالحب ديني وإيماني» ، وعلى شعبية وذيوع المشهور فإن ما هو مثبت أعلاه أعمق وأعمّ .

(٢) انظر سورة آل عمران ، الآية رقم ٣١ : ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ .

(٣) هي هند بنت كعب النهدي وصاحبها هو عبدالله بن عجلان وهو شاعر جاهلي وأحد مشاهير العشاق وصار عشقه مضرب مثل ، وأما قيس وليلى فقيس هو ابن الملوح المعروف بمجنون ليلى المتوفي حوالي ٦٨٨م فشاعر نجدي من بني عامر هوي ليلى ، وهي ليلى بنت سعد بن مهدي وهي من قومه ، وذكرها في شعره فأبى أهلها أن يزوجوها به فجنّ بها وهام على وجهه إلى أن مات في أحد الأودية ، وقد صارت حكايتهما رمزاً للعشق الصوفي وخصوصاً عند الفرس ، وقد وضع محمد غنيمي هلال كتاباً بهذا الخصوص استفرغ فيه الوسع فلينظر . وأما مي وغيلان فإن غيلان هو الشاعر المعروف بذي الرمة توفي سنة ٧٣٥م وقد عشق مي برواية الأغاني ، ومية بنت طَلَبَة بن قيس بن عاصم المنقري وكانت من أجمل نساء زمانها وقد ذكرها غيلان في شعره واشتهر بها واشتهرت به (رواية تزيين الأسواق للأنطاكي وعيون الأخبار لابن قتيبة) .

ويعني بأختها جميل ابن معمر[1] مع بثينة ، وبياض ورياض وابن الذريح ولبنى[2] وغيرهم .

يقول : الحبّ من حيث ما هو حبٌّ لنا ولهم حقيقة واحدة ، غير أن المحبين مختلفون لكونهم تعشقوا بكون ، وإنّا تعشّقنا بعين . والشروط واللوازم والأسباب واحدة . فلنا أسوة بهم ، فإن الله تعالى ما همَّم هؤلاء وابتلاهم بحبّ أمثالهم إلاّ لقيم بهم الحجج على من ادّعى محبته ولم يهم في حبّه هيمان هؤلاء ، حين ذهب الحبّ بعقولهم ، وأفناهم عنهم لمشاهدات شواهد محبوبهم في خيالهم . فأحرى من يزعم أنه يحبّ من هو سمعه وبصره ومن يتقرب إليه أكثر من تقرّبه ضعفاً .

بذي سلم والدير من حاضر الحما
ظِباءٌ تريك الشمس في صورة الدمى

(ذو سلم)[3] مقام ينقاد إليه لجماله .

و(الدير) حالة سريانية .

---

(١) هو الشاعر العذري جميل بن عبدالله بن معمر (توفي ٧٠١م) وكان يعشق بثينة وله فيه جلّ أشعاره .

(٢) وأما ابن الذريح ، والصواب بإسقاط أداة التعريف ، فهو قيس بن ذريح المتوفي سنة ٦٨٨ ، وكان من الشعراء العشاق وكان يحبّ لبنى بنت الحباب الكعبية (توفيت سنة ٦٨٨م) التي تزوجها ثم طلقها بسبب من أبويه . أما بياض ورياض فأنا لا أعلم حقاً من هما ، إلا أن في تزيين الأسواق أخبار عن ريّا وبيا ، وأما الأولى فصاحبة عتبة بن الحباب بن المنذر الأنصاري الشاعر وهي ريّا بنت الغطريف السلمي ، وثمة ريّا أخرى عشقها أبو مالك الصمة بن عبدالله بن مسعود بن رقاش القشيري الثعلبي وهي قريبته واسمها ريا بنت مسعود بن رقاش وله فيها شعر أشهره قوله :

وأذكر أيام الحمى ثم انثنى
على كبدي من خشية أن تصدّعا
فليست عشيات الحمى برواجع
عليك ولكن خلّ عينيك تدمعا

وأما بيا فعشقها عمرو بن عوف وزوّجها أهلها من غيره ، فطاش عقله مثله في ذلك مثل غيره من العشاق (انظر تزيين الأسواق للأنطاكي) .

(٣) يقول البغدادي : «ذو سلم ووادي سلم» : بالحجاز وذو سلم واد ينحدر على الذنائب ، وهي أرض في بني البكاء على طريق البصرة إلى مكة .

و(حاضر الحمى) ما طاف بحجاب العزّة الأحمى . ثمّ شبَّه ما ينزل على روحه من الحكم الإلهية النبوية بالظِّباء في شرودها وملازمتها الفيافي التي هي مقام التجريد .

و(بالشمس) من نورها وشموسها وسَرَيان منافعها .

و(بالدمى) صور الرخام وهي المعابد السريانية العيسوية ؛

معارف لم يقترن معها عقل ولا شهوة ، مجعلها جمادية ، فإن الجماد والملك مجبولان على المعارف من غير شهوة ولا عقل . والحيوانات فطروا[1] على المعارف والشهوات ، ورُفع عنهم[2] الحرج في ذلك من جانب المطالبة الإلهية ، والإنسان والجن فطروا على العقول والشهوة وجُعل لهم القوة والفكر وسائر القوى ، لتحصل المعارف ، فعقولهم لردّ شهواتهم لا لإفشاء العلوم .

فأرقب أفلاكاً وأخدم بيعة
وأحرس روضاً بالربيع منمنما

فمن كون هذه المعرف شمساً ، قال (أرقب أفلاكاً) أي أرصد مجاريها التي تدور بها وفيها ، وهي الحالات التي تظهر فيها هذه المعارف في باطنه . ويقول : ومن حيث هي دمى ، أي صورة الرخام ، أخدم بيعة ، لأنها محل هذه الصور وهي المعابد السريانية العيسوية ، من مقام الكلمة والروح .

ويقول ومن حيث هي ظِباء (أحرس لها روضاً بالربيع منمنما) لتسرح فيه ، وهي ميادين المعاملات والأخلاق الإلهية . والمنمنم الموشّى بضروب الألوان ، أي أنها مزيّنة بالحقائق الإلهية ، وجعل لها الربيع لأنه زمان استقبال الشباب لحداثتها وطروها[3] من قوله تعالى : ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدَث﴾[4] فهو أعشق للنفوس وأمكن في

(١) كذا والصواب «فطرت» .
(٢) كذا والصواب «عنها» .
(٣) طرأ طرءاً وطروءاً الشيء يحدث فجأة أو يقدم على المرء دون علم مسبق .
(٤) انظر سورة الأنبياء ، الآية رقم ٢.

القبول ، لأن اللذة بالجديد الطارئ أعظم في النفس من ملازمة الصحبة وفي هذا أسرار في حدوث نعيم الجنان مع الأنفاس وحدوث الأنفاس .

فـــوقـــتـــاً أُســـمَّى راعي الظبي بالفـــلا
ووقـــتـــاً أُســـمّى راهبـــاً ومنجّـــمـــا

يقول : من كوني أحرس الروض لهذا الظبي ، سمّيت راعياً ، ومن كوني أخدم البيعة من أجل الدمية ، سمّيت راهباً ، ومن كوني أرقب الشمس في فلكها ، سمّيت منجّماً . والمقصد اختلاف الحالات عليه في باطنه ، فتختلف عليه الواردات الإلهية والعلوم بحسب ما تعطيه فحوى هذه الأحوال بما وقع به التشبيه من هذه الأكوان . فهذه أذواق مختلفة وإن كانت العين واحدة في هذا كلّه ، فهو من باب ما ذكر مسلم في كتاب الإيمان ، من التحوّل في الصور بالعلامات على الاعتقادات ؛ فمن عبده في الشمس رأى شمساً ، ومن عبده في الحيوان رأى حيواناً ، ومن عبده في الجمادات رأى جماداً ، ومنهم من عَبَدَه ليس كمثله شيء رأى ليس كمثله شيء ، فلهذا الباب يرجع ما ذكرناه .

تثلّث مـــحـــبـــوبي وقـــد كـــان واحـــدا
مـــا صـــيّـــروا الأقنام بالذات أقنمـــا[1]

يقول : العدد لا يولّد كثرة في العين كما تقول النصارى في الأقانيم الثلاث[2] ، ثم تقول الإله واحد ، كما تقول : باسم الرب والابن وروح القدس إله واحد[3] . وفي شرعنا المنزل علينا قوله تعالى : ﴿قل ادعوا اللهَ أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا﴾[4] فَفَرَّقَ ﴿فله الأسماء الحسنى﴾[5] فوحّد .

(١) الأقنام والأقنم وهي عنده جمع أُقنوم وهو معرّب ويعني الأصل ، تجمع على أقانيم والأقانيم الثلاثة في المسيحية معروفة .
(٢) كذا والصواب الثلاثة فالأقنوم مذكّر .
(٣) كذا وصوابها كما هي الليتورجيا المسيحية الآن : الآب والابن والروح القدس أي بتعريف الروح وبلفظ الآب مكان الرب .
(٤) انظر سورة الإسراء ، الآية رقم ١١٠.
(٥) انظر سورة الإسراء الآية رقم ١١٠.

وتتبعنا القرآن العزيز فوجدناه يدور على ثلاثة أسماء أمهات ، إليها تضاف القصص والأمور المذكورة بعدها وهي : الله والربّ والرحمن . ومعلوم أن المراد إله واحد وباقي الأسماء أجريت مجرى النعوت لهذه الأسماء ولاسيما اسم الله . فمن ذلك النفس هو ما ذكرناه في هذه الأبيات .

فـــلا تنكرن يا صـــاح قـــولي غـــزالة
تضيء لغـــزلان يطفن على الدمـــا[١]

يقول : لا تنكروا هذا الليث مع كوني أريد عيناً واحداً ، فإن لكل إشارة معنىً مقصوداً . والغزالة هنا اسم من أسماء الشمس وقد ذكرنا القصد في البيت الذي يأتي بعده :

فللظبي أجـــياداً وللشـــمس أوجـــهاً
وللدمـــية البـــيضـاء صـدراً ومعـصـما

يقول : فاتخذنا من الظبي عنقه ، وهو إشارة إلى النور من باب قوله عليه السلام : «المؤذّنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة»[٢] ، أي أنواراً .

(وللشمس أوجهاً) من قوله عليه السلام : «ترون ربكم كما ترون الشمس»[٣] (وللدمية البيضاء صدراً ومعصماً) ما جاء في حديث الصدر وذراع الجبار[٤] .

---

(١) كذا وحقها أن تكتب «الدمى» .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة وابن ماجه في الأذان ، وأخرجه الهندي في كنز العمال من طرق وبألفاظ مختلفة .

(٣) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث .

(٤) أما حديث الصدر فلقد أخرجه مسلم في كتاب الصلاة عن النعمان بن بشير : «كان رسول الله صلعم يسوّي صفوفنا حتى كأنما يسوي بها القداح حتى رأى أنّا قد عَقَلنا عنه ، ثم خرج يوم فقام حتى كاد يكبّر فرأى رجلاً بادياً صدره من الصفّ فقال : عباد الله لتُسوُّنَّ صفوفكم أو ليخالفنّ الله بين وجوهكم» ، وأخرجه البخاري بلفظه في قسمه الأخير في كتاب الصلاة ، كذلك في باب تسوية الصفوف . وأما ذراع الجبار فلا أدري ما إذا كان ما جاء في كتاب الصلاة وما جاء في فصل بلا وصل في رفع الأيدي في الصلاة في الفتوحات المكية ، السفر الأول ، الفقرة ٤٩٥ هو المراد .

كـمـا قـد أعـرنا للغـصـون مـلابسـا
وللروض أخـلاقـاً وللبـرق مـبـسـمـا

يريد بالغصون النفوس المهيمة بجلال الله تعالى ، التي أمالها الحبّ عن رؤية ذاتها ومشاهدة كونها . والملابس ما حملته من الأخلاق الإلهية . والروض مقام الجمع الذي أقامهم الحق فيه أخلاقاً للأنفاس الرحمانية العطرية النشرية الطيبة الريح ، وهي الثناء الجميل من باب : أنت كما أثنيت على نفسك . وللبرق مشهد ذاتي مبسماً من قوله عليه السلام : «للّه أفرح بتوبة عبده»[1] ، ومن باب ما ذكره مسلم : «أن الله يضحك»[2] . فالمخرج واحد والمقصد .

وهذه قصيدة ما رأيت نَفَسَها في نظم ولا نثر لأحد قبلي ، وهو مشهد عزيز ساعدتني على إبرازه عبارة لطيفة روحانية غزلية مشوّقة ، كل بيت منها فيه تثليث .

نـاحـت مـطـوّقـةٌ فـحـنَّ حـزين
وشـجـاه ترجـيـع لـهـا وحـنـين[3]

يقول : قابلتُ صورةً ، ونفخت فيه من روحي المتولّد عنه ، وهي اللطيفة الإنسانية ، والتطويق المنسوب إليها وهو ما أُخذَ عليها من الميثاق الذي طُوِّقَت به ، فوصف بأن الكلّ بكاءٌ على جزئيه بضربٍ من المقابلة . ولهذا جاء بالنوح ليجمع بين المقابلة بحالة البكاء .

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات عن قتيبة عن المغيرة عن . . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلعم : «لله أفرح بتوبة أحدكم من أحدكم بضالّته إذا وجدها» .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية ، عن أبي هريرة أخبره أن ناساً قالوا لرسول الله صلعم : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال . . . فلا يزال يدعو الله حتى يضحك الله تبارك وتعالى منه فإذا ضحك الله منه قال أدخل الجنة . . . » ، والحديث هذا هو الحديث الخاص برؤية الله وإن المؤمن يراه كالشمس أو القمر ليس من دونهما سحاب .

(٣) الترجيع في الصوت ترديده في الحلق وفق مبدأ يعرف أهل هذا الفن من المغنين .

وقوله (فحنّ حزين) يريد الروح الجزئي الإنساني من هذا المعين[١] .

وقوله (وشجاه) أي أحزنه ترجيع وهو ما أتت به من طيِّب نغمات الاستدعاء إلى الاتصال الذي هو الحشر الأول بالموت والحنين من باب الرأفة والتعطّف الذي للوالد على ولده . ومن الجزئي حنين الولد إلى والده ، والشخص إلى وطنه . وليس يريد هنا قوله : «خلق آدم على صورته»[٢] من أجل الطوق ، وإن كان قد دخل المقام الأقدس تحت قوله : «كتب ربكم على نفسه الرحمة»[٣] ، وتحت قوله فيمن جاء بالصلوات الخمس : «لم يضيّع من حقّهن شيئاً أن له عند الله عهداً»[٤] . وقد أدخل الله سبحانه مع عبده نَفْسَه في عهود منه منّةً وفضلاً لا إيجاباً .

ولكن ما هو مقصودٌ في هذا البيت من أجل الحنين وإن كان سبق القضاء له أثر في الحكم كما جاء التردّد في قبض نفس المؤمن[٥] ، كما قلت في بعض قصائدي له :

يحنّ الحبيب إلى رؤيتي
وإني إليه أشدُّ حنينا
وتهفو النفوس ويأبى القضا
فأشكو الأنين ويشكو الأنينا[٦]

(١) المعين الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض ، وفي سورة الملك الآية رقم ٣٠ : (فمن يأتيكم بماء معين) ، وقد ورد اللفظ في سورة الصافات الآية رقم ٤٥ : ﴿يطاف عليهم بكأس من معين﴾ ، وكذلك في سورة الواقعة الآية رقم ١٨. أقول إن المعين من مجمل ما تقدم ماء صاف له لذة ولا تكلّف في نيله ولا جهد .

(٢) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث وللشيخ في السفر الثاني من الفتوحات في الفقرة ١٢٢ تعليق على هذا الحديث وعلى حديث لعكرمة ينسب فيه إلى النبي قوله إنه رأى الله في صورة شاب ينتعل خفين من ذهب . .الخ ، وهو حديث سيرد في هذا الشرح ، قال : «اعلم أن المثلية الواردة في القرآن لغوية لا عقلية» .

(٣) انظر سورة الأنعام ، الآية رقم ١٢.

(٤) في الحقيقة لم أهتد إلى مصدر هذا الحديث في كتب الصلاة على وفرة ما جاء من أحاديث في الصلاة وفضلها مع ما يتبعها من أعمال .

(٥) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث .

(٦) لم أجدها في ديوانه ولم ترد في الترجمان أيضاً .

وعلمي بأن أصحابنا من أهل هذا الشأن يعرفون ما أشرنا إليه في هذا الإيماء ، والإجمال أغنانا عن التفصيل والتصريح . وعَلَمَ الله ما قيّدت هذا القدر في هذا البيت ، إل والحمّى تنفضني في باطني مما أجدَه من قوة الوارد[1] وازدحام تموّج المعارف فيه ، ولا أقدر على إذاعة ما أجده مع القوة التي أعطاني الله على التعبير عنه ، وإيصاله إلى الأفهام القاصرة ، فأجرى ما فوقها من الأفهام ، ولكن الغيرة الإلهية وحجاب العزّة الأحمى المنصوب بين عينيّ منع ذلك ، وهذه نفثة مصدور .

جرت الدموع من العيون تفجّعاً
لحنينها فكأنهنّ عيون

وصف الأرواح بالبكاء وجريّ الدموع ، وإن كانت هذه الأوصاف مما يتعلّق بالعالم الطبيعي . ولكن لمّا كان في قوة الأرواح التمثّل في الصور الجسدية ، كما قال تعالى : ﴿فتمثّل لها بشراً سويّاً﴾[2] ، لذلك قبلت هذه النعوت الطبيعية . وقد ورد في الخبر أن جبريل وميكائيل يبكيان من خوف مكر الله[3] . وكان سبب هذا البكاء من هذه الأرواح الجزية لحنين الروح الكلّي إليها ، الذي هو أبوها ، فإنها وإن حنّت إليه بالأصالة والتولّد ، فحنينه أشدّ إليها . فإن حنين الأبوة أعظم ، فإن النبوّة[4] من الأبوّة وليست الأبوة منها بل هي عينها . فهو من باب حنين الشيء إلى نفسه . وشبهها بكثرة الدموع بعيون المياه الجارية ، أي أنها لا تنقطع ، وجريانها من غيب إلى شهادة . وقد يريد تفجّعاً لحنينها ، أي يريد أن يكون لها مثلاً لذلك الحنين إلى المناظر العلى ولا تُحْجَب لتعشق الأكوان عمّا خلقت له .

(١) الوارد عند الشيخ في اصطلاحات الصوفية هو : «ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة من غير تعمّل ويطلق بإزاء كل ما يرد من كل اسم على القلب .

(٢) انظر سورة مريم الآية الآية ١٧ ، وتمامها : ﴿فاتّخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سويّاً﴾ .

(٣) ورد في اللمع لطوسي عن النبي قوله : «مررت ليلة أسري بي بالملأ الأعلى وجبريل كالحلس البالي من خشية الله» .

(٤) كذا وأحسب أن المراد البنوّة فالسياق يقتضي ذلك .

ثم قال :

طارحتها ثُكلاً بفقد وحيدها

والثُكل من فقد الوحيد يكون

الوحيد الذي فقدته هي الخاصّية التي انفردت بها عن العالم ، وفقدها إيّاها كونها لا تعرف ما هي ولا يتعيّن لها . بل تعرف أن ثمّ أمراً تنفرد به عن غيرها على الإجمال وهي وحدانيتها ومنها تعرف وحدانية من أوجدها إذ لا يعرف الواحدَ إلاّ الواحدُ وهي التي أراد القائل بقوله :

وفي كل شي له آيةٌ

تدلّ على أنه واحد[1]

يشير إلى خاصيّة كلٍّ وهي أحدية الأحد الصمد الذي ﴿لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾[2] .

وقوله (طارحتها)[3] أي بكيت مثل بكائها على مثل من بكت هي أيضاً ، فإن أكثر العارفين ماتوا بحسرة فقد هذه المعرفة ، التي هي أحديتهم ، فكلهم عرفوا وحدانيتهم ، والأحدية لا يعرفها إلا القليل من أهل العناية والتمكين .

طارحتها والشجو يمشي بيننا

ما إن تبين وإنني لأبين

يقول : بكيت مثل ما بكت ، غير أنها لما تكن من عالم العبارة والتفصيل لم تبين ما بها من الشجو للسامعين من طريق الفهوانية ، وأنا أبنت لم بما أبديت من العبارة والإيماء والإشارة والتعداد في حال البكاء . وأخبر عما هو الأمر عليه في عينه .

(١) البيت لأبي العتاهية من قصيدة مطلعها : ألا إننا كلّنا بائد وأيُّ بني آدمٍ خالد

(٢) انظر سورة الإخلاص .

(٣) المطارحة في الشعر ونحوه هي المناظرة والمطارحة في الحبّ ، والحديث هي أن يبادل الحبيب محبوبه الحب والجليس جليسه الحديث . والمطارحة أيضاً ضرب من المصارعة قديم وهي ليست المراد هنا .

وقولهم[1] (الشجو يمشي بيننا) كما قال ابن زُهر[2] :

وقـــد تعب الشـــوق مـــا بيننا
فـــمنه إليّ ومنّي إليـــه

يقول : أي طارحتها مطارحة حزن لا مطارحة سرور لأنه عن فقد لا عن وجود .

بي لاعجٌ من حبٍّ رملة عـــالج[3]
حيث الخيام بها وحيث العين

يقول : بي حرقة اشتياق من حبّ دقائق العلوم الكسبية ، وهي علوم التفصيل ، ولهذا جعلها رملية وأضافها إلى عالج ، من المعالجة ، وهي من باب قوله : ﴿ولو أنهم

(١) كذا وأحسب أن المراد قوله .

(٢) ينسب هذا الشعر إلى ذي الوزارتين أبي الوليد مروان بن أبي العلاء بن زهير ، ولكن في أربعة أبيات قالها في ولد له خلّفه وراءه حين توجه إلى مراكش فقال :

ولي واحـــد مـــثل فـــرخ القطا
صـــغـــيـــر أتخلّف قلبي لديه
نأت عنه داري فـــوا وحـــشـــتي
لذا الشـــخـــيص وذا الوجـــيـــه
تـذكّـــرني وتـذكـــرتـه
فـــيـــبكي عليّ وأبكي عليـــه
وقـــد تعب الشـــوق مـــا بيننا
فـــمنه إليّ ومني إليـــه

وينسب إلى الشيخ الرئيس ابن سينا وهو كالتالي :

ولي واحـــد مـــثل فـــرخ القطا
فـــيـــحنو عليّ وأحنو عليـــه
لقـــد تعب الشـــوق مـــا بيننا
فـــمنه إليّ ومني إليـــه

أما ابن زهر فشاعر أندلسي توفي حوالي العام ٥٩٦ هجرية وأخباره في نفح الطيب للمقري وفي معجم ياقوت وفي كثير غيرهما .

(٣) هي عند الحميري في الروض المعطار كالتالي : «ويقال إن وبار (بالدهناء كانت محل عاد وهي بين اليمن ورمال يبرين) صارت إلى رمل عالج وهي الأرض المعروفة بأرض وبار» اهـ . ولحسان بن ثابت شعر يقول :

إذا سلكت حـــوارن من بطن عـــالج
فـــقـــولا لهـــا ليس الطريق هنالك

أقاموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربِّهم﴾[1] ، فهذه هي معالجة الأعمال وهو التكسّب . ثم قال : ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ إشارة إلى هذه المعارف . فما كان من فوقهم هو بمنزلة ما تشبه به العلوم من الأمطار في المشاهد من البرق ، وفي المناجاة من الرعود ، وفي الفنا باحتراقات أعيان الحجب من الصواعق . وما كان من تحتهم بالرمال والحصى وما تحملهم[2] الأرض وتُخْرِج من زهرتها .

وكل علم من ذلك بما يناسبه في التشبيه على حسب ما يعرفه من تنزل .

وقوله (حيث الخيام بها وحيث العين) يعني المقصورات في الخيام[3] ، مقامات الحجب والغيرة والصدق . والعين ما تستره هذه الخيام ، وتحوي عليه من العلوم . وكل علم بحسب خيمته . فإن كان صدقاً فهو جوهر وإن خيمة فهي عذراء .

ثم نعت هذه العين فقال :

من كل فاتكة اللحاظ مريضة
أجفانها لظبى[4] اللحاظ جفون

يقول : من العلوم التي تَردُ على أصحاب الخلوات فتقتلهم في خلواتهم أي تفنيهم عن ذواتهم بسلطانها ونظَرها إليهم ، فإن الفتك القتل في خلوة .

وقوله (مريضة) أي منها أصحاب الخلوات ، والمرض الميل . ونسبها إلى اللحاظ التي هي المشاهدة فيريد أنها علوم مشاهدة وكشف لا علوم إيمان وغيب ، لكنها عن تجليات صور . ولهذا قال (لظبى اللحاظ جفون) أي هي بمنزلة جفون السيف ، فإنه لما ذكر الفتك جاء بآلة القتل فجاء باللحظ وشبهه بالسيف .

---

(١) انظر سورة المائدة الآية ٦٦ ، وكمالها : ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون﴾ .

(٢) كذا والصواب تحمله .

(٣) إشارة إلى الآية رقم ٧٢ في سورة الرحمن : ﴿حورٌ مقصورات في الخيام﴾ .

(٤) جمع ظبّة وهي حدّ السيف أو سنان الرمح ، والجفون جمع جفن ومن معانيه العديدة «غمد السيف» ، والجناس بين الجفون الأولى والثانية واضح .

مـــا زلت أجـــرع دمـــعـــتي من غلّتي
أُخـــفي الهـــوى عن عـــاذلي وأصـــون

يشير إلى حالة الستر والكتمان ، وهي حالة الملامتية[1] الذين يظهرون في كل عالم بحسب المواطن ، وهم رجال هذه الطريقة . والعذّال هم المنكرون على أهل هذه الطريقة أحوالهم ، لأنهم لا يعرفون جمال من تعشقوا به ، فإنه غيب لهم ، وليس عندهم إيمان . فإنه يتجلّى إلى قلب من شاء من عباده بضرب من ضروب المعرفة ، ليهيمهم ذلك التجلّي فيه فتهون عليهم الشدائد التي تجري بها الأقدار عليهم . وسبب إخفائه عن العذول الغيرة عن عرض المحبوب ، لئلا يقع العاذل في جناب من يستحق التعظيم بما لا يليق بجنابه ، فيفعل ذلك صيانة للمحبوب وإيثاراً لا ضجراً لنفسه من الملايمة التي تعود عليه من ذلك ؛ فإنه ملتذٌ بسماع ذكر محبوبه ، لكن لا يحب أن يجري عليه في الذكر الألفاظ التي لا ينبغي بجلاله الأقدس ؛ فهو من باب ﴿وما قدروا الله حقّ قدره﴾[2] .

حـــتى إذا صـــاح الغـــراب بينهم
فـــضح الفـــراق صـــبـــابة المحـــزون

يقول : إن العناية إذا حانت لبعض أهل هذا المقام ، وحيل بينه وبين هذه المناظر التي كانت متجلية له وهو ناظر إليها بفترة[3] تلحقه ، أو وارد إلهي له حكمة بالغة ، ولم يُعْطَ الصبر على ذلك ، أدّاه هذا الفراق إلى إظهار ما كان يخفيه من رقّة الشوق والهوى ، كما اتفق لأبي يزيد[4] لما قال له الحقّ «أخرج إلى خلقي بصفتي» فعندما خطا خطوة وقام الحجاب صُعِقَ ، فإذا النداء «ردّوا عليّ حبيبي فلا صبر له عنّي» والغراب هذا السبب الموجب للفراق ، والصياح من الفهوانية بمنزلة كُنْ .

(١) الملامتية عند الشيخ لإي اصطلاحات الصوفية هم «الذين لم يظهر على ظواهرهم مما في بواطنهم أثر البتة ، وهم أعلى الطائفة وتلامذتهم يتقلّبون في أطوار الرجولية» . أقول : وللمزيد انظر كتاب أبي العلا عفيفي تحت اسم الملامتيه ففيه ما يكفي .

(٢) انظر سورة الأنعام الآية ٩١.

(٣) الفترة عند الشيخ في اصطلاحات الصوفية هي «خمود نار البداية المحلاقة» .

(٤) انظر «شطحات الصوفية» للدكتور عبد الرحمن بدوي وفيه كتاب (النور من كلمات أبي طيفور) .

وصلوا السُّرى قطعوا البُرَى فلعيسهم
تحت المحامل رنّة وأنين

لما كان المقصود لا يتحيّز ولا يتقيّد بالجهات ، كان الرجوع منه سيراً إليه أيضاً . فلهذا قال «وصلوا السرى» أي رجوعهم منه إسراءً أيضاً إليه ، كما ورد في الخبر عن التقاء الأربعة الأملاك من الأربع الجهات ، كل واحد يقول بأنه ورد من الحق ، مع قوله : ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾[1] . والإسراء والتنقّل إنما هو اسم إلهي إلى اسم إلهي ، كما قال تعالى : ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا﴾[2] ، والملتقى إنما هو مع الاسم الشديد البطش ، السريع الحساب ، القويّ ، فلهذا كان حَشْرُه إلى الرحمن محل الأمن مما يَتّقي به ويحذر بالرحمة التي وسعت كل شيء[3] .

وقوله (قطعوا البرى) لقوة سيرهم . والبر ، الحلقة التي تكون في أنف البعير ، تكون فيها خرمة يُقاد بها ، فيقال : لقوّة الجذب للسير تنفصم البرى أو تخرم الأنف . والتي تكون منها السير في هذا الباب ، إنما هي مراكب الأعمال . والبرة العروة الوثقى التي لا انفصام لها[4] ، فهي تخرم الأنوف ولا تنفصم .

وأما نعته بأن لها (تحت المحامل) ، وهي مانحة من تكليفات المجاهدات والأعمال الشاقة (رنّة وأنين) يريد صوت الزفير وحنين القلوب ، والأزيز المسموع من صدورهم عند التلاوة والذكر ، كما قال تعالى : ﴿لرأيته خاشعاً متصدِّعاً من خشية الله﴾[5] فوصفها بأنها تضعف عن حمل هذه الأغيار الواردات ، فإن الأنين لا يكون إلاّ مع الضعف ، والرنة والنغمة ، وكأنها مطابقة لقول المنادي أو الحادي من السامع .

(١) انظر سورة الحديد ، الآية رقم ٤ .
(٢) انظر سورة مريم الآية رقم ٨٥ .
(٣) إشارة إلى سورة الأعراف الآية رقم ١٥٦ ، وسورة غافر ، الآية رقم ٧ .
(٤) إشارة إلى سورة البقرة الآية رقم ٢٥٦ : (لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد إستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) .
(٥) انظر سورة الحشر ، الآية رقم ٢١ .

عـــاينت أســـبـــاب المنيـــة عندمـــا
أرخـــوا أزمَّـــتـــهـــا وشـــدَّ وضين[1]

يقول : لمّا دُعيت إلى الرجوع إلى عالم الكون ، بعد أُنسي بتلك العين المقدّسة والشهود الأقدس الأحديّ ، وجدت من الألم على قرب التشبيه مثل ما يجده المتعشّق عند نزول الموت ومفارقة المألوفات التي كان يتأنس بها ، فلم يجد أعظم رزية يشبهها بها أعظم من المنية لمن لا يحب المفارقة ومعاينة أسباب الموت التي هي كرباته وغمراته أعظم من الموت ، فإن الموت لا يُحسُّ به . فهذا أوقع التشبيه بأسباب الموت لا بالموت ، وهو مجبورٌ في الرجوع إلى عالم الأكوان . ولهذا قال (أرْخُوا أزمَّتها) . يقول : ما لي فيها تعمّد ، وإنما رجع بي ما أنا رجعت من ذاتي . فلم يقل أرخيتَ أزمتها لهذا .

ثمّ قال :

إنّ الفـــــراق مع الغـــــرام لقـــــاتلي
صـــعبُ الغـــرام مع اللقـــاء يهـــون

يقول : إن للغرام في الحبِّ سلطاناً عظيماً ، يقتلك فيه التحوّل والهيمان والدموع والغليل والأنين والسقام وجميع الآلام التي يوجبه الغرام ، ثم يجتمع مع ذلك الفراق وهو الغيبة عن مشاهدة المحبوب ، برجوعه إلى كونه ، مثل ما قال عليه السلام : «ما ابتلي أحدٌ من الأنبياء بمثل ما ابتليت به»[2] ، يشير به إلى حاله في الرؤية ثم رجوعه إلى خطاب أبي جهل[3] وأبي لهب[4] ، فينضاف لا إلى آلام المحبة ألم البين فلذا قال إنه

(١) الوضين بطان عريض ينسج من سيور أو شعر والجمع وُضُن .

(٢) روى الترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن سعد بن أبي وقاص : «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل» ، ورواه الإمام أحمد والنسائي والدارمي من حديث عاصم .

(٣) هو عمرو بن هشام زعيم بني مخزوم وأعدى أعداء الإسلام في فترة التكوين ، وقد نبزه النبي محمد بهذا اللقب فلقد كان يدعى قبل ذلك بأبي الحكم . قتل في معركة بدر في السنة الثانية للهجرة الموافقة ٦٢٣ ميلادية .

(٤) هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم وهو عم النبي وأشد الناس عداوة له وللدين ، نزلت فيه وفي زوجه أم جميل سورة المسد وفيها نبزت أم جميل بلقب «حمّالة الحطب» ، مات سنة ٦٢٤م .

لقاتل ، فلو كانت آلام المحبة التي يعطيها الغرام مع اللقاء ، وهو ضربٌ من الحضور الذي ليس فيه فناء ، هان عليه ما يجده من حُرقة الاشتياق مع اللقاء . وحرقة الشوق أشدّ للمفارقة ، ولهذا ينبغي للعارف أن لا يقف إلاّ مع الذات ، ولا يتعشّق باسم دون اسم فإنه في كل حال مفارق لاسم مواصلٌ لآخر .

مـــالي عـــذول فـي هواها إنهـــا
مـعـشـوقـة حـسناء حـيث تكون

يقول : جميع الهمم والإرادات والتوجهات متعلقة بها من جميع الطالبين ، لكونها مجهولة العين عندهم غير متميّزة . فلهذا قال (إنها معشوقة) لكل طائفة ، ولا أحد يعذل في هواها ، كما علمنا أن النجاة مطلوبة لكل نفسٍ ولأهل كل ملّة ، فهي محبوبة للجميع ، غير أنهم لما جهلوها ، جهلوا الطريق الموصل إليها . فكل ذي نحلة وملّة يتخيّل أنه على الطريق الموصل إليها . فالقَدْحُ الذي يقع بين أهل الملل والنحل إنما هو من جهة الطرق التي سلكوها للوصول إليها لا من جهتها . ولو علم المخطئ طريقها أنه على خطأ ما أقام عليه . فلهذا قال :

(ما لي عذول في هواها إنها معشوقة حسناء حيث تكون)

أي حيث يوجد لها مشهد يشهد فيه إخوان على سرر متقابلين ، قد نُزِعَ ما في صدورهم من غلّ[1] . ولما أشبهت الشمس في السعة في التجلّي ، فكلُّ شخصٍ يرى أنه قد خلا بها ، وهي مع كل واحد من مشاهديها بذاتها ، قد رُفِعَت الغيرة من قلوبهم عليها والحسد . فإن كل مصلٍّ يناجي ربّه من ازدحام بخلاف الحضور القريب الذي إذا كان عند شخص ، فقده شخصٌ آخر ، فوقعت الغيرة بينهم عليه ، وقام العذول والعذال على طالبيه معرفة ومكراً . والمكر من محبٍّ لآخر ليزهد فيه هذا فيتمكّن هو منه ، والمعرفة لكونه تعلّق بمحصور يحاط به .

(١) انظر سورة الحجر الآية رقم ٤٧ : ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ إخواناً على سُرُرٍ متقابلين﴾ .

رأى البـرق شـرقـيّـاً فـحنّ إلى الشـرق
ولـو لاح غـربيـاً لحنّ إلى الغـرب

يشير إلى رؤية الحق في الخلق والتجلّي في الصور ، فأدّاه ذلك إلى التعلّق بالأكوان لما ظهر التجلّي فيها . لأن الشرق موضع الظهور الكوني ، ولو وقع التجلّي على القلوب ، وهو تجلي الهوية الذي كنّى عنه بالغرب ، لحنّ ، أيضاً ، هذا النحبّ إلى عالم التنزيه والغيب ، من حيث ما قد شاهده محلاً للتجلّي في تجلّ أنزه من تجلّي الصور في أفق الشرق . فحنينه أبداً إنما هو لمواطن التجلي من حيث التجلّي لا من حيث هي .

وقد أبان عن ذلك في البيت الذي بعده وهو قوله :

فـإن غـرامي بالبـريق ولمحـة
وليس غـرامي بالأمـاكن والتـرب

يقول : إن غرامي وتهيامي وتعلّقي إنما هو بالتجلّي الذي هو اللمح ، والمتجلّي الذي هو البرق ، ما هو عن غرامي لمن يتجلّى فيه إلاّ بحكم التبعية ، كالتولّع بمنازل الأحبة ، من حيث هي منازل لهم خاصة ، لا من حيث هي منازل[1] . فكنّى بالأماكن عن الموطن الغربي ، وكنّى بالترب عن الموطن الطبيعي الصوري ، لأنه ذكر الشرق والغرب ، وجعل الشرق لعالم الحسّ والشهادة ، فبهذا ذكر الترب ، وجعل الغرب لعالم الغيب والملكوت . فلهذا ذكر المكان فجاء بالأعم ، فإن كل ترب مكان وما كل مكان تربٌ . قال تعالى : ﴿ورفعناه مكانا عليّاً﴾[2] وهو خارج عن العناصر ، لأنه في السماء الرابعة ، فلم يستحيل[3] عليه اسم المكان .

رَوَتْه الصـبـا عنهم حـديثـا مُـعنعناً[4]
عن البثّ عن وجدي عن الحزن عن كـربي

(١) الضمير «هي» إضافة من عندي يقتضيها السياق .
(٢) انظر سورة مريم ، الآية رقم ٥٧ .
(٣) كذا والصواب هو «فلا يستحيل . .الخ» .
(٤) العنعنة مصطلح يختص برواة الأحاديث عن فلان عن فلان عن فلان . .الخ .

الصبا الريح الشرقية ، وإلى الشرق كان حنينه ، لأن من الشرق لاح له البرق الذي هو التجلّي ، وكان في عالم الصور ، فكان في باطن تلك الصور مطلب المعارف ، مُغيَّبٌ مبطون فيها ، وهو الذي أشار إليه بقوله (ولو لاح غربياً) .

قال : فعالم الأنفاس ، التي هي الريح الشرقية ، روت لي عمّا أبطنته تلك الصور في تجلّيها من علم الهوى حديثاً مُعَنْعَنا ؛ يقول خبراً مُسْنَداً عن فلان ، عن فلان ، وأخذ يذكر الإسناد وهم الرواة التي[1] بهم صحّ هذا التجلّي الغربي علماً ، كما كان الشرقي حالاً .

فقال (عن البث) وهي الهموم المتفرقة من أجل الصور الكثيرة ، التي يقع فيها التجلّي ، فله همٌّ بإزاء كل صورة ، فلهذا كنّى عنه بالبث .

(عن وجدي) وهو ما يجده من هذه الهموم ، يقول هي ذوق لي ما أنا مخبر عن حالة غيري .

و(عن الحزن) يعني أصعب النحبة وأشقّها ، فإنه مأخوذ من الحَزَن الذي هو الوعر .

(عن كربي) هو ما يجده من غليل الهوى وحُرُقاته واصطلامه[2] وزفراته .

عن السكر عن عقلي عن الشوق عن جَوىً

عن الدمع عن جفني عن النار عن قلبي

(السكر)[3] ، المرتبة الرابعة في التجليات ، لأن أولها ذوقٌ ثم شربٌ ثم ريٌّ ثم سكر وهو الذي يذهب بالعقل ، فلهذا روى عنه لأنه صاحبه ، والسكر يأخذ عن العقل ما عنده ، والعقل يأخذ من الشوق . ولهذا تزعم الحكماء وتقول في العقول بالشوق ، وفي نفوس الأفلاك أن حركتها شوقية لطلب الكمال .

---

(١) كذا والصواب «الذين» .

(٢) الاصطلام عند الشيخ في اصطلاحات الصوفية هو : «نعتٌ وله يرد على القلب فيسكن تحت سلطانه» .

(٣) السكر في اصطلاحات الشيخ هو «غيبة بوارد قوي» .

(عن جوى) وهو انفساحها في مقامات المحبة ، محصور تحت حيطة النفس كانحصار الجوى تحت حيطة فلك القمر الذي يوصف بالنقص والزيادة وقبول الفيض النوري ، فلهذا قلنا عنه إنه تحت حيطة النفس . ولما ذكر الجوى الذي هو إشارة إلى مقام الجو ، ذكر الدمع والجفن في الجوى بمنزلة المطر والسحاب في الجوّ ، ثمّ ذكر عنصر النار وهو الفلك الأثير ، فقال (عن النار عن قلبي) هو الروح الخارج من تجويف القلب .

يقول : فأخبر هؤلاء الرُواة الثُقَاة الأثبَات أن مثال من همتم فيه ثاوٍ بين ضلوعكم ، فقال :

بـأنّ الـذي تـهـــــــــواه بـين ضـلـوعـكـم
تـقـلّبـــه الأنـفـــاس جنبـــاً إلى جنب

يقـول : من شـفـقـة المحبِّ على محبوبه ، الممثَّل في خلده ، يتخيّل أن نيران الأشواق القائمة به تؤثّر في ذلك المثال الذي خلده منه ، فنحنّ عليه شفقاً ، لنحول بينه وبين النار . فلهذا ذكره بالضلوع ، بالانحناء الذي فيها ، كما قد ذكرنا في قصيدة لنا في هذا الكتاب فقلنا (من حذر عليه شراسفاً)[1] ، أي أطراف الضلوع كانت محنية من أجل لمحبوب لتضمنه[2] عناقاً وحذراً عليه أن يصيبه أذى ، كما قلنا في هذا الباب :

مـــا خــــفـت إذ ضــــرّمت نـار الأسى
فـي أضـلـع تحـــــــــــرقـك الـنـار[3]

(١) هي قصيدة في هذا الديوان والبيت هو :
يقـــتـــادُها قَـــمَـــرٌ عليـــه مـــهـــابةٌ
فطويت من حـذر عليـه شـراسـفـا
والشراسف جمع الشُرسُوف وهو طرف الضلع المشرف على البطن .
(٢) كذا وأحسب أن المراد لتضمّه .
(٣) لم أجد هذا البيت لا في الديوان ولا في الترجمان .

وقال الآخر :

أودع فـــؤادي حـــرقـــاً أو دعِ
ذاتــك تــؤذي أنــت فــي أضــلــعــي
وارم ســـهــام الجــفن أو كــفَّـــهــا
أنت بما ترمـي مـــصــاب مـــعي
مـــوقـــعـــهـــا القلـب وأنت الذي
مـــــســكـنـه فـي ذلـك الموضـع(١)

وأراد بالأنفاس هنا سطوات هيبة التجلي ، وقصد تقلّبه هذه السطوات ، أي تؤثر فيه أحوالا مختلفة لاختلافها .

وقوله (جنباً إلى جنب) أي من شمال ليمين ومن يمين لشمال ، ولم يقل ظهراً لبطن لئلا تحرقه سبحات الوجه ، أو يهلكه الحجاب . فجاء بالجنب لأن فيه تجلّياً لا عن مقابلة وهو انحراف كون ، لأن الرؤية في صورة الكون حصلت .

فـــقـلـت لهـــا بـلّغ إليـــه بـأنّه
هـو الموقـــد الـنار التـي داخل القـلـب

والوجد الذي في القلب ، وما أوقدها إلاّ وقد علم أنه منها في حمى ذاتي ، أي لا تعدو عليه . فلم يبقَ اعتداء هذه النار إلاّ على المحلّ ، فلا ذنب للصبٍّ في إحراق محل الحبّ ومسكن المحبوب .

فــإن كـــان إطفــاء فــوصل مـــخلّد
وإن كـــان إحـــراق فـــلا ذنب للصبٍّ

يقول : إذا جاء برد السرور ، وثلج اليقين فيحجب سلطان هذه السطوات لبقاء العين ، فيكون الوصل دائماً . وإن تركت سطواتها فلا يبقى هناك من يعمر هذا المقام ،

(١) هذه الأبيات لمهيار الديلمي وهو أبو الحسن مهيار بن مرزويه ، كان مجوسياً فأسلم على يد شيخه وأستاذه الشريف الرضي .

فلا ذنب على الهالك . وهذا كلام غلبة الحال ، كما قال عليه السلام وهو يناشد ربّه ببدر : «إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد من بعد اليوم»[1] . وما كان ذلك إلاّ من غلبة الحال عليه ، وأبو بكر رضي الله عنه يسكّنه يقول : «إن الله منجزٌ لك ما وعدك» فهذا من ذلك الباب ، وهو باب من ملكه الحال . ومن هنا نقول إن الأنبياء قد تملكهم الأحوال مثل هذا سواء .

وقال رضي الله عنه :

غادروني بالأثيل والنقا
أسكب الدمع وأشكو الحرقا

لما عاين جلساءه من الروحانيات الملكية ، قد رحلوا عنه جائلين في الفسحات العلى ، لا يقيّدهم مكان طبيعي ، وبقي مرتهن[2] هو بهذا الهيكل وتدبيره ، مقيّد[3] به عن الأنفاس في مسارح فرج تلك الأطباق العلى ، جعل يسكب الدمع بذلك ، ويشكو حرقة الشوق الذي بفؤاده مما حلّ به .

و(الأثيل) عبارة عن أصله الطبيعي ، يريد الطبيعة .

و(النقا) عبارة عن جسمه فإنه أفضل ما انتقى . فمن هذه الطبيعة هذا الجسم الإنساني ، فإنه أعدل النشآت الطبيعية ، ولذلك قَبِل الصورة الإلهية ، فكنّى عنه هنا بالنقا .

وقد يريد بقوله (أسكب الدمع) يقول : تركوني بعالم الطبيعة ، أبثّ المعارف المتعلّقة بالمناظر العلى لأبناء الجنس المحبوسين عن هذه الأذواق العلية ، ونيل ما ناله الرجال بصدق الأحوال .

---

(١) أخرجه البيهقي عن ابن مسعود قال : «ما سمعت مناشداً ينشد حقاً له أشد من مناشدة محمد صلعم يوم بدر جعل يقول : اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد» ، وأخرجه البخاري عن ابن عباس ، وأخرجه البيهقي بلفظ مختلف عن ابن عباس وحكيم بن حزام . .الخ .

(٢) كذا والصواب «مرتهناً» .

(٣) كذا والصواب «مقيّداً» .

و(أشكو الحرقا) من الحسرة عليهم ، حيث لم يكن هذا الخبر عيانا . فيكون من باب الرحمة بالخلق . والأول أمكن في القصد من الثاني . لكن الثاني متوجه في حق السامعين ، فإنهم مع الوقت .

ولو كان هذا البيت مفرداً لتحقق به هذا الوجه الثاني ، وإنما كان الوجه الأول أمكن من أجل الأبيات التي تأتي بعده . فالأول والثاني للسماع ، والأول وحده للسماع وزيادة وهي معرفة ما بعده .

بأبي من ذبت فيه كمدا

بأبي من متّ فيه فرقا

يفديه بأبيه الذي هو الروح الكلي الأعلى ، فإنه أبوه الحقيقي العلوي ، وأمّه الطبيعة السفلية . فيفدي بهذا الأب هذا السرّ الإلهي النازل عليه ، الذي وسعه قلبه ، وهو المُعبَّر عنه في هذا البيت بمن . ونسب الذوبان فيه إلى الكمد .

يقول : إنه في مقام العشق له ، للاسم الجميل الذي تجلّى له فيه . ثم كرَّر الفداء له بأبيه فقال (بأبي من متّ) يشير إلى مقام الذوبان أيضاً بالموت ولكن خوفاً من أنوار إلهية .

يقول : فُطر عليَّ الذوبان والفناء عنّي ، بحالة منّي وهي العشق ، وبما اقتضاه ذلك الجمال الأعلى من الهيبة ، وإن الجمال مهوب ، معظّم ، محبوب ، والجلال ليس كذلك ؛ فإنه مهوب معَظَّمٌ وليس بمحبوب ، فإنه من سطوات القهر والجبروت ، فتفرق منه النفوس . ولمّا اطلع هذا السر الإلهي ، الذي وسع هذا القلب الشريف ، على ما أثر فيه من الذوبان والموت ، استحيا منه ، حيث لم تتنزّل معه إليه الألطاف الخفية التي تبقيه ، فقال :

حُمرة الخجلة في وجنتيه

وضح الصبح يناغي الشفقا

فذكر أنه خجل لما ذكرناه ، ومن أسمائه الحي . وقد جاء أن الله تعالى يستحي من عبده ذي الشيبة أن يكذّبه فيما كذب فيه[١] .

ولما كان هذا التجلي في الصور المثالية ، مثل حديث عكرمة[٢] عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، حديث قال : «رأيت ربي في صورة شاب أمرد عليه حلة من ذهب وعلى رأسه تاج من ذهب وفي رجله نعلان من ذهب»[٣] ، وأشباه هذه الأحاديث المشكلة التي ذكرتها العلماء . قال الله تعالى : ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾[٤] ، كما قال الشيخ رحمه الله ، وتكلمت عليها فتلك الصورة هي المنسوب إليها هذه الخجلة ، فتقبل أيضاً الحمرة من حيث ما هي صورة جسدية . و(الوجنة) ثم أوقع التشبيه في بياض الوجه وحمرة الخجلة في الخد ، فوضح الصبح الذي هو بياضه ، وحمرة الشفق كأنهما يتحدثان بالسبب الذي أوجب هذا الحياء مما طرأ على هذا القلب من هذا التجلي .

قوّض الصبر فطنّب الأسى
وأنا ما بين هذين لقا

يقول : (قوّض الصبر) ، أي رفع خيامه ورحل ، والحزن نزل ، ومد طنبه[٥] ، وضرب فسطاطه . يقول : فأدّاني عدم الصبر ونزول الحزن ، وما ثمّ ما يقاومه ، إلى الهلاك وأنا ملقى لا حراك بي ، هالك تحت سلطان الوجد ، في مقام البوح والإفشاء ،

(١) لم أهتد إلى مصدر هذا الحديث .

(٢) هو عكرَمة بن أبي جهل ، صحابي من رواة الحديث ، قتل في اليرموك عام ٦٣٤ (انظر أسد الغابة لابن الأثير والطبقات لابن سعد) .

(٣) أخرج الهندي في كنز العمال ج ١ الحديث رقم ١١٥٤ عن النبي أنه قال : «رأيت ربي في المنام في صورة شاب موفر في الخضر عليه نعلان من ذهب وعلى وجهه فراش من ذهب» ، وفي الحديث رقم ١١٥٥ عن معاذ بن عفراء : «رأيت ربي في حظيرة الفردوس في صورة شاب عليه تاج يلتمع في البصر» . هذا وقد تعرّض الشيخ لحديث عكرمة في السفر الثاني من فتوحاته وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

(٤) انظر سورة الذاريات الآية رقم ٢٠-٢١ : ﴿وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ .

(٥) الطُنب ويجمع على أطناب وطنبة ، هو حبلٌ طويل يُشدُّ به بيت الشعر .

والإعلان بما تنطوي عليه الضلوع من الأسرار الشوقية . يقول : انتقلت عن الاسم الصبور ، فلم أقدر أن أملك وجدي ، فظهر في سلطانه .

ثم أخذ يقول :

من لبـــــثّي من لـوجــــدي؟ دلَّـني
من لحــــزني ، من لصـبٍّ عــشـــقــا؟

يقول : هل من جامعٍ لما تفرق من همومي؟ من يرثي لما حلَّ بي؟

(من لوجدي) أي ما أحس به من آلام البلوى ، بالانتقال مع الأسماء والوقوف معها ، عما تعطيه الذات من الثبات .

(من لحزني) يقول : من لصعوبة هذا الأمر بتسهيله؟

(من لصبٍّ) يقول : مائل ما له مقيم من ميله .

(عشقا) عانق الشدائد تعانق اللام للألف ، مأخوذ من العشقة .

يقول : دلوني على من يأخذ بيدي من مقام التفرق ، فيدلني في عين جمع الجمع والشهود بلا مزيد ، فإن المزيد حالة تؤذن بعدم الكمال .

كـلـمـــا ضـنـت تـبـــاريـح الـهـــوى
فـــضـح الـدمـع الجـــوى والأرقـــا

يقول : كلما رُمت أن أقوم في مقام الكتمان ، مما اكنه من الجوى والأرق ، أبَت الدموع بانسكابها ، إلا الإفشاء والبوح . فإن الوجد أملك ، وهو أبلغ في المحبة من الكتمان . فإن صاحب الكتمان له سلطان على الحب ، والبائح يغلب عليه سلطان الحب فهو أعشق ، ولا يحجبنك قولَ المحبِّ القائل :

بـاح مـــجـنـون عــــامــــر بـهـــواه
وكـــتـــمـت الـهـــوى فـــمـتُّ بـوجـــدي

فـإذا كـان في القـيـامـة نودي
من قـتـيل الهـوى تقـدمت وحـدي[١]

فإن هذا القائل ، لم يتمكن منه الحب تمكن من لم يترك فيه سلطان غيره ، فإن الذي حجب الحب عن ظهور سلطانه أقوى منه ، فكان عقله أغلب . ولا خير في حب يُدبِّر العقل ، بل أحكام المحبة تناقض تدبير العقول .

فـإذا قلت هبـوا لي نظرة
قـيل مـا تُمْنَع إلا شـفـقـا

يشير إلى قوله عليه السلام : «لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره»[٢] . فكان إرسال الحجب بين السبحات وبين الخلق رحمة بهم وإشفاقاً على وجودهم . فإن قيل فقد وعد بالرؤية في دار الآخرة ، فكيف يكون البقاء هناك ولا فرق بين الدارين من كونهما مخلوقين وممكنين؟ قلنا : إذا فهمت معنى إضافة السبحات إلى وجهه ، وفرقت بين هذا القول وقوله : «ترون ربكم»[٣] ، وقوله تعالى : ﴿**وجوه يومئذ إلى ربها ناظرة**﴾[٤] ، فعلّق الرؤية بالرب ، والإحراق بالوجه . وقوله : ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾[٥] يعني الوجه ، عرفت حينئذ الفرق بين الخبرين ، وتحققت أن هذا الاعتراض غير لازم . ويريد أيضاً بقوله (هبوا لي نظرة) ، وقوله (ما تمنع إلا شفقا) لأن الوجد وأليم الحب والنظر إلى المحبوب ، يزيده وجداً إلى وجده ، وحباً إلى حبه فكأنه يطلب الزيادة من عذابه ، فقيل له نحن نشفق عليك لذلك ، وليس مع الحبِّ تدبير ، فإنه يعمي ويصم ، والمحبوب صاح ، فيرفق به من حيث لا يريد الحب .

(١) هذان البيتان ينسبان إلى ليلى صاحبة مجنون بني عامر وقد تقدمت الإشارة إليهما ، ولمن شاء المزيد فعليه بتزيين الأسواق للأنطاكي وكتب الوفيات وكتاب الأغاني للإصفهاني ، ولكن المعرّي في رسالة الغفران ينسبهما إلى الشبلي الصوفي الشهير وصاحب الحلاّج .

(٢) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث .

(٣) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث .

(٤) انظر سورة القيامة ، الآية رقم ٢٢ .

(٥) انظر سورة الأنعام ، الآية رقم ١٠٣ .

مـــا عـــسى تـغنيك مـنهم نـظرة
هــي إلا لمــحُ بــرق بــرقــا

يقول : إن هذه النظرة لا تغني من الوجد شيئاً ، فإن مثلها في الفعل بالقلب مثل فعل ماء البحر بالظمآن ، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً . ثم انك لما كنت مركباً وأنت مُدَبِّرٌ لمركب ، ولم تكن بسيطاً ، لم يتمكن لك دوام الرؤية بحكم الاتصال ، فإنك مطلوب بإقامة مُلك بَدَنك وتدبيره ، فلا بدَّ لك من الرجوع إليه ، وإرسال الحجب بينك وبين مطلوبك ، الذي تيمّك وهيمّك وهيَّجك بنيران تلك النظرة ، بذلك التجلي بمنزلة لمحك للبرق إذا برق ، وهو الوقت الذي لا يسعك فيه غير ربك .

لست أنسى إذ حـــدا الحـــادي بهم
يطلب البين ويبــغي الأبرقــا[١]

يقول : لما دعوا من جانب الحق ، هؤلاء الروحانيات العلى ، الذين كانوا لنا جلساء في الله تعالى ، وحدا بهم داعي الحق إلى العروج إليه ، كما قال عليه السلام : «يتعاقبون فيكم ، ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ، ثم يعرّج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم وهو اعلم : كيف تركتم عبادي؟ فيقولون : تركناهم يصلّون ، وأتيناهم وهم يصلّون وذلك عند الصبح والعصر»[٢] .

وقوله (يطلب البين) يعني هذا الحادي بهم يطلب الفراق والبعد من عالم الكون بهؤلاء الروحانيات . وأتى بلفظة البين دون غيره ، لأنه من الأضداد ؛ فهو فراق عن كذا ، فيه اتصال بكذا ، وهو المقصود ولا يوجد ذلك في غير لفظة البين .

---

(١) هو واد في الحجاز يقال إنه لا يتوارى جنُّه ، ويسمّى أبرق العزّاف .

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة رض أن رسول الله صلعم قال : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم فيقول كيف تركتم عبادي؟ فيقولون تركناهم وهم يصلّون وأتيناهم وهم يصلّون» كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم .

وقوله (ويبغي الأبرقا) يقول : ويبغي بهم المكان ، الذي يقع لهم فيه شهود الحق تعالى ، وسمّاه الأبرق لما شبَّه الشهود الذاتي بالبرق ، لنوره وسرعة زواله وكنّى عن المكان والحضرة ، التي يقع فيها هذا الشهود بالأبرق ، أي المكان الذي يظهر فيه البرق .

نعقت أغربة البين بهم
لا رعى الله غراباً نعقا

كنى بأغربة البين ، عن الأمور التي خلّفته عن العروج معهم إلى الابرق ، وهي ملاحظات وجوده الطبيعي ، الذي أمر بتدبيره والقيام بسياسته . فهو يتشاءم بملكه ويتمنى الانتقال من مقام الملك إلى العبودية التي هي في الحقيقة ملك الملك . ثم أخذ يدعو على كل من كان سبباً لفراقه وعن[1] أحبته المساعدين له على ما في همته بتخلفه عنهم حين درجوا عنه .

ما غراب البين الأ جملٌ
سار بالأحباب نصّاً عنقا[2]

يقول : ليس غراب البين طائراً يطير بالأحباب ، وإنما حمولتهم التي تحملهم عنا هي أغربة البين ، وهي في الحسن المراكب ، التي هي الإبل وأشباهها . وفي لطائف الهمم التي ترتحل بالعبد المحقق ، عن موطن وجوده إلى تقريب شهوده ، فلو عاينت سير اللطائف الإنسانية على نجائب الهمم ، وهي تخترق سرادقات الغيوب ، وتقطع مفازات الكيان ، لرأيت عجباً ! ولهذا قال العارف : «والهمم للوصول»[3] أي أنها عليها يوصل إلى المطلوب ، فإن سيرها ينتهي إلى المكانة التي ينعدم فيها الاسم ويضمحل الرسم .

(١) أحسب أن الواو هنا زائدة لا عمل لها .

(٢) نصَّ المرء ناقته نصّاً استحثها على السير ، والنَّص من السير الرفيع . أما العنق بفتح العين والنون فسير مسبطرٌّ فسيح واسع للدواب والإبل .

(٣) جاء هذا القول : «العارفون بالهمم والهمم للوصول» في السفر الثاني من الفتوحات المكية ، ولكن دون أن يعزى إلى شخص معروف .

حملن على اليعملات الخدورا
وأودعن فيها الدمى والبدورا[1]

اليعملات هي الإبل التي يعمل عليها . وهي في إشارة هذا القائل ، القوى الإنسانية التي توجهت عليها التكاليف الروحانية والحسية ، فهي التي يقع عليها العمل . وكنىَّ بالخدور عن الأمور التي كُلِّفوا بها ، وهي الأعمال ، وجعلها خدوراً ، لأنها تحوي أسراراً من العلوم والمعارف التكليفية ، كما تحوي الخدور على هؤلاء الحسان المشبهات بالدمى في حسن الصورة ، والبدور في الكمال والرفعة . فتكون المعارف على حسب ما وقع به التشبيه ، لأن المعارف متنوعة بالذي يريد صاحبها منها ، يدلُّ عليه بأمر يناسبه من وجه ما ، مناسبةً لطيفة ، لدلالة غيبية كما قال : **﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾**[2] بشروطه من الزجاجة ؛ التنزيه الذي هو الجسم الشفاف الصافي والزيت المضاف إلى الاعتدال ، الذي لم يؤثر فيه إلا هو . فيُعلم من هذا التشبيه أي نور أراد . وهكذا جميع الأمور التي يريد العارف أن يوصلها إلى الأفهام ، فينبغي للناظر أن يتحقق ذلك ، ويمعن النظر فيه جهده ، ولا يبادر ببادي الرأي ، فيسرع إليه الخطأ ، إلا أن يكون هذا الناظر له سلطان على معرفة الخاطر الأول في كل شيء فإنه يقف عنده ، فذلك الذي يعطيه هذا المطلوب بلا شك فلا يخطئ أبداً .

وواعدن قلبي أن يرجعوا
وهل تَعِدُ الخود إلاَّ غرورا

ينبِّه هذا البيت على أن هذه المعارف التي ذكرها ، هي من المعارف التي في طيِّها مكرٌ خفيٌ . نبَّه على ذلك بقوله (وهل تعد الخود إلاَّ غرورا) ليطمئن العارف على عَوْدها عليه ، أو أمثالها ، بمجرد ما وعدت . ربما يحمله ذلك على عدم الاستعداد الذي يخلفه[3] الله تعالى به لتلقيها ، فيكون ممن يتبع شهواته ، ويتمنى على الله

(١) اليعمَل واليعمَلة الجمل والناقة المطبوعان على العمل والجمع يعامل ويَعْمَلات .
(٢) انظر سورة النور ، الآية رقم ٣٥.
(٣) كذا وأحسب أن المراد يخلقه .

الأماني . فينبغي للعارف أن لا يفتر ، وان يكون قائماً على قدم طلب المزيد ، كما قال لنبيه عليه السلام : ﴿وقل رب زدني علماً﴾[1] .

وحيّيت بعنّابها للوداع
فأدرّت[2] دموعاً تهيج السعيرا

يقول : هذه النكتة الإلهية ، التي ذكرنا أنها من باب الممكن ، إنما كانت لما كان ينلها[3] من باب الاكتساب لا من باب الوهب ، أحدث فيها التعمل الكوني تغيراً كنى عنه بلون العناب ، يشير إلى أنملتها ، كأنه توحيد فيه ضرب من الاشتراك . ولكن مع هذا كله ، فأقامتها في القلب احسن من رحيلها ، فإنها عاصمة للعارف مادامت قائمة به . ولهذا أحس به العارف عند وداعها ورحيلها ، بألم الفراق ، فبكى وأحرقته نار الاشتياق إليها . وقد يريد بقوله (فأدرّت دموعاً) أي أرسلت هذه النكتة في القلب ، علوماً من علوم المشاهدة ، تؤثر في القلب اشتياقاً شديداً واصطلاماً .

ثم قال :

فلما تولّت وقد يممت
تريد الخورنق ثم السديرا[4]

يريد رجوعها إلى الأصل ، الذي منه انبعثت ، والصدد الذي منه صدرت فكنى عنها بالخورنق والسدير والخورنق قصر بأرض الكوفة والسدير أرض .

دعوت ثبوراً على إثرهم
فردّت وقالت أتدعو ثبورا[5]

(١) انظر سورة طه ، الآية رقم ١١٤.
(٢) كذا والصواب أذرأت وتخفف فتصير أذرت أي أرسلت الدمع أما أدرت المرأة شعرها يعني سرّحته .
(٣) كذا وأحسب أن المراد ينالها .
(٤) الخورنق موضع في العراق جاءت شهرته من قصر بناه هناك النعمان الأكبر وتغنّى به شعراء الجاهلية ، والسدير أيضاً قصر للنعمان الأكبر وقريب من الخورنق .
(٥) الإشارة هنا وفي عجز البيت التالي إلى الآية رقم ١٣ والآية رقم ١٤ في سورة الفرقان ، وانظر أيضاً سورة الانشقاق الآية رقم ١١ : ﴿فسوف يدعوا ثبورا﴾ .

فـــــلا تدعـــــونَ بـهـــــا واحـــــداً
ولـكنمـــا ادعـــوا ثبـــوراً كـــثـــيـــراً[١]

يقـول : دعـوت بـالهـلاك على عـالم التـقـييـد والتـركيب ، الـذي مسكني عنه استصحاب هذه العلوم الإلهية والأسرار العلية ، التي هي مشهد العالم البسيط على الدوام . وقوله (فردَّت وقالت أتدعو ثبوراً) تقول له : يا محجوب لمَ لم تروجه الحق في كل شيء في ظلمة ونور ومُرَكَّب وبسيط ولطيف وكثيف ، حتى لا تحس بألم الفراق ، وتغيب عين المطلوب عنك في كل شيء؟ فإذا ولا بدّ ، وقد دعوت بالهلاك على عالم التركيب ، بهذا الحجاب الذي قام عندك ، فلا تدعون بها واحداً ، ولكنما ادع ثبوراً كثيراً . يقول : ما هو مخصوص بهذا المقام وحده بالمحجوب عن الأمر الكلي الساري في جميع الموجودات ، ففي كل مقام يقام ، لا بدّ لك من مفارقة ذلك المقام ، وأنت غائب عن صورة الحق منه ، فلا بد لك من الألم ، وتتخيل أنه فارقك . وإنما وقوفك معك حجبك عما ذكرناه . فلهذا ادع ثبوراً . فالتكثير من جهة العدد لتعدّد المقامات وتقييداتها .

ألا يا حـــــمـــــام الأراك قـليـــــلاً
فـــــمـــــا زادك الـبـينُ الاّ هـديـراً

يخاطب واردات التقديس والرضى ، ويلوّح لبعض واردات المشاهدات . فإن الأراك شجر يُستاك به . يقول : ترفق عليَّ بأوارد التقديس ، فإن المحل الضعيف يضعف عن أن ينال الطهارة ، إلاّ بالاستدراج ، ولهذا كان مرضاة الرب من الزينة والإصلاح ، وهو موضع الرفق . ولهذا قال له (قليلاً) .

وقوله (فما زادك البين إلاّ هديراً) يقول : أيّها الوارد ! لما لم يكن لك وجود عَيْنيٌّ إلاّ بي وفيَّ ، وأنا مشغول عنك بما قُيِّدت به من عالم الظلمة والطبع ، فلذلك صرت تصيح من أجل الفراق لذهاب عينك .

(١) كذا والصواب أدع فالفعل هنا فعل أمر .

ونوحك يا أيهـــــذا الحـــــمــــامُ
يثـيـــر المشـــوق يهـــيج الغـيـــورا

يقول : وأنت إذا كنت في عالم التقديس والرضى والمشاهدة ، وأنت بهذه المثابة من البكاء ، على فقد هذا المحل الطبيعي الكثيف الظلماني ، فنحن أعظم بكاء منك طلباً للتنزه في الفسحات العلى . وهو قوله (يثير المشوق يهيج الغيور) والغيرة من رؤية الأغيار ، وإلاّ من عاين الحق في كل شيء لا غيرة عنده[1] ، فإنه ما رأى في كل شيء إلا وجهه ، والحق واحد ، ولكن للحق تنوع في صور التجليات ، على حسب ما تعطيه المقامات والأحوال . فمن هنا يظهر لسان الغيرة في جناب الحق . ولذا قال عليه السلام : «إن سعداً لغيور وأني أغير منه والله أغير مني»[2] ، ومن غيرته حرَّم الفواحش . وهنا نكت وأسرار إلهية غاب عنها أكثر العارفين فلا يمكننا كشفها لإخواننا إلا مشافهة .

يـذيـب الفـــــؤاد يـذود الرقـــــاد
يضـــــاعفُ أشـــــواقنا والزفـــيـــرا

يقول : دعا واردات التقديس والرضى التي ذكرناها ، تذيب الفؤاد تردُّه سيالاً ، وتمنع الرقاد فصاحبها يألف السهر . وقوله (يضاعف أشواقنا والزفير) زيادة الأشواق إنما تقع من مشاهدة زيادات الحسن في المشهود في نظر العين عند الشهود . والزفير صوت النار يقول عن غلبة الاصطلام الوارد على القلوب إنها متضاعفة .

يحـــوم الحـــمـــام لنوح الحـــمـــام
فـيـــســـأل منه البـــقـيـــاء يســيـــراً

(١) التركيب ركيك هنا يؤكد ما ذهبنا إليه في المقدمة في أن الشيخ قد أملى كتابه إملاء أو أنه كان يتحدث وأحد المريدين يكتب ، والصواب هنا القول : وإلاّ فإن من عاين الحق في كل شيء فلا غيرة عنده .

(٢) هو الصحابي الشهير وخامس السابقين إلى الإسلام ، وقائد جيش المسلمين في وقعة القادسية ، وأحد الذين سمّاهم عمر بن الخطاب من أهل الشورى قبيل وفاته عام ٦٧٥ في المدينة . وأما الحديث فلم أجده في فضائل الصحابة لابن حنبل لا في سعد بن أبي وقاص ولا في سعد بن معاذ ، ولم أجد في الغيرة غير حديث عن قصر في الجنة رجع عنه النبي حين عرف أنه لعمر ولأن هذا رجل غيور .

يقول : يحوم الحمام ، الذي هو مقام انفصال اللطيفة الإنسانية عن تدبير هذا الهيكل الظلماني ، من أجل ما أسمعته واردات التقديس والرضى والمشاهدة من اللطائف الإلهية والعلوم الربانية . وقوله (فيسال منه البقاء يسيراً) يريد قوله عليه السلام في حديث الأخوين[1] الذين مات أحدهما قبل صاحبه بأربعين ليلة ، فذكر فضل الأول منهما عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال عليه السلام في حق الثاني : «وما يدريكم ما بلغت به صلاته؟» واستحباب طول العمر في الإسلام مشروع ، وحديث الستة الشيوخ الذين قدموا للموت فكل واحد منهم أثر صاحبه بحياة ساعة ، ليذكر الله فيها فيرقى مقاماً لم يكن عنده . وهذا الباب فيه إشكال عظيم يحتاج إلى تفاصيل ، فلهذا قال (فليسأل منه البقاء يسيرا)[2] ثم قال بعد ذلك ما يدلّ على ما ذكرناه وهو قوله :

عسى نفحةٌ من صبا حاجر
تسوق إلينا سحاباً مطيرا

الحاجر هنا ، حجاب العزة الأحمى ، المحجوب عن الكون أن يناله ذوقاً ، لكن تهبُّ منه نفحات على قلوب العارفين بضرب من التعشق ، ولهذا وصفه بالميل الذي هو الصبا ، وطلب أن ينال من تلك النفحات الغريبة نسمة ونفحة ، تهب من ذلك الجناب العالي الأحمى ، فيسوق بها إلى هذا القلب المتعطش ، سحاب المعارف والعلوم الربانية الأقدسية من باب ﴿ليس كمثله شيء﴾[3] فيمطر على هذا القلب فينبت فيه من ربيع الحكم ما تنطق به الألسنة الفهوانية ، ومن ربيع الأخلاق الإلهية ، ما يزيده ترقياً فوق ترقّيه ، فإنه متعطش لهذا المورد ؛ ولهذا قال :

تروّى بها أنفساً قد ظمئن
فما ازداد سحبك إلاّ نفورا

(١) لم أهتد إلى مصدر هذا الحديث .
(٢) كذا والصواب فيسأل .
(٣) انظر سورة الشورى ، الآية رقم ١١.

يقول: تروي بذلك أنفساً ظامية عاطشة، من قوله تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿وقل ربِّ زدني علماً﴾[1]، ثم أخبر بعدم الإجابة له فيما سأل، لما يجب من تعظيم المقام من العزة والمنع والعلو عن منازل الكون له والإحاطة. يقول: لو نيل ما كان حَميً ولا اتصف بالحجب الذي هو المنع. وأما نسبة النفور إلى هذا السحاب فهو مثل قوله: ﴿ليس كمثله شيء﴾[2] أي كل ما تصوَّر في وهمك، أو حاك في صدرك، أو دلّ عليه عقلك، فالله بخلاف ذلك؛ فإنه ليس كمثله شيء، مع كونه هو السميع البصير. فلا بد من هذه الأسماء والكنايات والمعارف، ومع هذا فلا بدّ من ليس كمثله شيء، ولو وقع الاشتراك في إطلاق العبارات، لكن ما ثم أحد يجمعها أصلاً لعلو المقام ونزاهته. ولما رأى أن هذا مثال المحجوب محال عاد إلى شكله وجنح إلى مثله فقال:

فيا راعي النجم كن لي نديماً
ويا ساهر البرق كن لي سميرا

راعي النجم، هو حفظ ما تحمله العلوم في تعقلاتها، على اختلاف ضروبها. واتخذ رعاة النجوم ندماء لذلك، فإن المنادمة حالها ضرب الأمثال، وإيراد الحكايات والأخبار والنوادر والأشعار بين النديمين.

ثم قال (ويا ساهر البرق) الذي هو المشهد الذاتي. يخاطب طالبه يقول: مطلبنا واحد. (فكن لي سميرا) من المسامرة الذي هو الحديث بالليل. والليل غيب والذات غيب عن الكون، ودليلها اللهو. فيقول له أنت سميري من حيث إن مقامنا واحد، فتفهم عني ما أريد كما افهم عنك ما تريد، فنحن سكوت والهوى يتكلم. ثم نظر إلى ما هما فيه من تعب الخاطر في نيل ما لا يسع الكون حمله، فاخذ يخاطب أهل الغفلة عن هذا المقام وأهل الفناء فيه عنه.

(١) انظر سورة طه، الآية رقم ١١٤.
(٢) انظر سورة الشورى، الآية رقم ١١.

فيا راقد الليل هنئته

فقبل[1] الممات عمرت القبورا

فحظ أهل الغفلة من هذا البيت ، اشتغالهم بالأكوان وملازمتهم لهذه السدف[2] الطبيعية الشهوانية ، بالتمتع واللذات . وحظ أهل اللقاء الذين ذكرناهم من هذا البيت يقول : يا من أُختطفَ عنه لهذا المقام ، فبقي فيه شبه النائم في الليل .

(هنئته) أي هنِّئت هذا الرقاد الذي هو فناؤك ، بضرب من الراحة واللذّة .

وقوله (فقبل الممات) أي قبل انفصالك عن هذا الجسد الانفصال التام ، قد اتصفت بتلك الحالة ، مع تعلق التدبير فيه منك ، فانك في حالة فناء لا موت ، فلا بد من الرجوع ولكن الحال ما يعطي إلاّ مخاطبة أصحاب الغفلات .

وأما قوله .

فلو كنت تهوى الفتاة العروبا

لنلت النعيم بها والسرورا

يخاطب هذا الراقد ، يقول له لو : تعشقت بهذه الفتاة الحسناء ، التي هي الصورة الذاتية ، التي هي مطلب العارفين .

(لنلت النعيم بها والسرورا) يريد بسببها . أي وأنها إن لم تحصل ، فإن تجليها إليك يتضح لذلك التجلي كل ما في ملكك فيظهر جميع ملكك لك بتلك الصورة الذاتية . فلولا تجليها ما اكتسبت المملكة هذه الصورة الحسناء ، فالنعيم بجميع الملك للمشاهد مع هذا التجلي ، نعيم بالذات في صورة الملك ، لأن الذات تضيء ولا يلتذ إلاّ بالمواد .

تعاطي الحسان خمور الخمار

تناجي الشموس تناغي البدورا

(١) كذا والمراد «فقبل» كما سيبين في الشرح لاحقاً .

(٢) السُّدفة جمعها سدف هي سواد أو سترة تكون على الباب تقيه المطر .

يقول : هذه الصورة ، التي اكتسبت حسن الصورة الذاتية بالتجلي الذي ذكرناه ، تعاطيك بالغنج والحديث ، ما يعطيك الخمر من الطرب والسرور واللذة . ولما كان المشهد ذاتياً ، لذلك قال : (تناجي الشموس تناغي البدورا) فإن الشارع[1] شبَّه الرؤية في الدار الآخرة بالشمس ، وجعل المناجاة للشمس إفصاح وإيضاح وبيان[2] في الحديث ، لأنه نهار . ونسب المناغاة للبدر لأنه نور الليل ، وهو إجمال لا تفصيل ، وبيان ومحل رمز ، فإن المناغاة ، الغالب في استعمالها للطيور ، فلهذا جعل المناغاة للبدور .

وقال رضي الله عنه :

يا حادي العيس لا تعجل بها وقفا
فإنني زمنٌ في أثرها غادي

يقول : الروح الإلهي الناطق من الإنسان ، المأمور بتدبير هذا البدن للداعي من جانب الحق ، الذي كنى عنه بالحادي والعيس الهمم ، يقول له : لا تعجل بسيرها ، يريد حتى تنظر بأي حقيقة إلهية ذاتية تعلقها ، وأمره بالوقوف على التوكيد ، فثنَّاه كما قال الحجاج[3] : «يا حارس اضربا عنقه !» أراد اضربْ اضربْ مرتين التوكيد[4] فثنَّاه .

وقوله (فإنني زمن[5] في إثرها غادي) نسب الزمانة له ، لوقوفه مع هذا البدن وارتباطه به إلى الأجل المسمى .

وقوله في (إثرها) يريد في أثر الهم .

(١) الشارع هو واضع الشريعة أي النبي محمد ، وأما الحديث فقد سبقت الإشارة إليه مراراً عن أن الخلق يرون الله يوم القيامة كما يرون الشمس . الخ .
(٢) كذا والصواب إفصاحاً وإيضاحاً وبياناً .
(٣) هو الحجاج بن يوسف الثقفي ، ولاّه عبد الملك بن مروان مكة والمدينة والطائف والعراق وكان قبل ذلك قد تولى إمرة الجيش فقضى على ابن الزبير وعلى ابن الأشعث ، بنى مدينة واسط ، توفي سنة ٧١٤م واشتهر بخطابته وبظلمه .
(٤) كذا وأحسب أن المراد للتوكيد .
(٥) الزَّمِنُ من طال مرضه فضعفت قواه .

و(غادي) يقول رائح عند حلول الأجل المسمى بمفارقة هذا البدن ، الذي أورثني الزمانة وأكَّد هذا المعنى .

قف بالمطايا وشمر من أزمتها
بالله بالوجد والتبريح يا حادي

كنى عن الهمم بالمطايا .

و(شمّر من أزمتها) يقول : أمسكها عن التقّود إلى مطلوبها ، حتى أكون فيها على قدم محقق . ثم أقسم على الحادي الذي هو الداعي إلى الحق ، بالله إشارة إلى المرتبة ، فأقسم بها ، لأن الداعي خديمها ، فيقف عند هذا القسم . ولم يخص له اسماً ، لئلا يكون وقوفه بحسب ما يعطيه ذلك الاسم ، أو انتهاء منه من غير وقوف . والذي اقسم به أمر جامع ، فلا يقدر هذا الداعي أن يحكم على الاسم الجامع بأمر معين ، فلا بد له من الوقوف إبراراً للقسم لا للمقسم . ثم أقسم عليه بالوجد ليحصل في نفسه شفقة عليه ، فيكون وقوفه بضرب من الرحمة والشفقة .

وقوله (والتبريح) أُقسِم أيضاً بم أظهر لك من حالي ، وتحققته . ثم ذكر أيضاً المانع من رحلته حيث تروح هممه .

نفسي تريد ولكن لا تساعدني
رجلي فمن لي بإشفاق وإسعاد

شبه نفسه في تقييده بهذا البدن ، ومَنْع هذا التقييد له من معارجه ، حيث يريد الحركة . فالإرادة منه موجودة ، والآلة التي يبلغ بها المطلوب غير مساعدة . ثم قال (فمن لي بإشفاق) يريد بصاحب الإشفاق مساعد[1] لي على ما أريده من مفارقة هذا العالم الخسيس ، محل الحجاب والظلمة ، وطمس الأنوار والغمة . والذي أشار إليه المشفق المساعد هو القدر .

(١) كذا والصواب مساعداً .

يقول : من لي بمساعدة القدر شفقة منه عليَّ ، لما أنا فيه من الغم والكرب وحكم الكيف والكم؟

ثم أخذ يعزي نفسه ويقول :

مـا يفـعل الصنعُ التـحـرير في شـغلِ
آلاته أذنت فـيـه بإفـسـاد

كنى بالصَّنَع عن نفسه . والصنع هو الحاذق بالعمل الماهر .

يقول : ما أفعل وإن كنت قادراً على المفارقة ، في أوقات ما يشير إلى زمن الفناء والغيبة ، في أوقات الأحوال والواردات الإلهية ، ولكن ما هو مطلبي إلاَّ الرحلة الكلية . فإن الجذب الذي يجذبني من عالم الحس ، في وقت الفناء ، قوي وهو الذي عبَّر عنه بالإله .

يقول : فذلك الجذب يفسد عليَّ شغلي ، أي ينكر عليَّ حال مناي وغيبتي ، يجذبه لردِّي إليه في تدبيره ، لئلا ينخرم ، وذلك لعلمه بما بقي عندي ، في خزانتي من مصالحه وتدبيره ، الذي أودعنيه الحكيم سبحانه .

ثم قال يخاطب الحادي بقوله :

عـرج فـفي أيمن الوادي خـيـامـهـمُ
لـله درّك مـا تحـويـه يا وادي

يقول للحادي : عرِّج بالهمم إلى أيمن الوادي ، يشير إلى المراد بالطود الأيمن(١) بالوادي المقدس(٢) ، حالة التكليم والمناجاة بفنون العلوم .

(١) كذا والصواب «الطور الأيمن» إشارة إلى سورة مريم الآية رقم ٥٢ : ﴿وناديناه من جانب الطور الأيمن﴾ ، وإلى سورة طه الآية رقم ٨٠ : ﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى﴾ .

(٢) الوادي المقدس هو وادي طوى والمذكور في سورة طه الآية رقم ١٢ وسورة النازعات الآية رقم ١٦ ، وهو الوادي الذي تجلّى فيه الرب لموسى .

وقوله (خيامهم) يقول منازل هذه الهمم . يقول : إنها لا تنزل إلا في العلم بالله لا في الله ، لأنه سبحانه ليس بمحل لنزول شيء فيه ، ولكن غاية الممكن كله العلم بالله . فمدار الكل على العلم لا على غيره ، لأنه ليس بيد الممكن سواه حيث كان .

ثم أخذ يقول (لله درك ما تحويه يا وادي) يريد من المعارف الإلهية القدسية الموسوية ، الذي قيل فيها لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿**وما كنت بجانب الطور إذ نادينا**﴾[1] ، وقوله : ﴿**فسالت أودية بقدرها**﴾[2] .

ثم أخذ يقول في نعت هذه المعارف والهمم :

جمعت قوماً همُ نفسي وهم نفَسي
وهم سوادُ سويدا خلب أكبادي

يخاطب الوادي ، يقول : (جمعت قوماً) يريد ما فيه من المعارف والهمم . (هم نفسي) يريد الهمم .

و(هم نَفَسي) يريد المعارف .

و(هم سواد سويدا خلب أكبادي) يريد الهمم ، فإن انبعاثاتها من سويدا القلب .

يقول : وأنا وإن لم احظ بحلولي فيك لألتذّ بما تحويه وأتنزّه ، فإن حلول هممي فيك كحلولي ، لأنها مني وإليّ ، تعزية لنفسه بذلك ، لما يجده من الشوق إلى المفارقة واللحوق بالعالم الأقدس .

ثم أخذ بعرض بحاله وهيمانه في ذلك ، فقال :

لا درّ درّ الهوى إن لم أمت كمداً
بحاجرٍ أو بسلعٍ أو بأجياد[3]

---

(١) انظر سورة القصص ، الآية رقم ٤٦ .

(٢) انظر سورة الرعد ، الآية ١٧ .

(٣) سلع جبل متصل بالمدينة ، ولأخت تأبط شرآ شعر يقول :

إن بالشعب الذي دون سَلْع
لقتيلاً دمه ما يطلُّ

وأما أجياد فأحد جبال مكة وهو الجبل الأخضر العالي بغربي المسجد الحرام (عن الروض المعطار للحميري) .

يقول : أنا أدَّعي الهوى ، والهوى سبب مهلك ، إذا أفرط أدَّى إلى الرحلة عن هذا الموطن ، كما اتفق فيما حُكيَ عن جماعة من المحبين ، أن محبوبه قال له : «إن كنت تحبني فمت !» فوقع من حينه في الأرض ، بين يديه ميتاً . فأخذ يدعو على هواه في هذا العالم الأقدس : «لا كان هذا لا يميتني كمداً وشوقاً بحاجر اللحوق بالبرزخ ، إذ هو الحاجز بين الشيئين ، (أو بسلع) ، يقول : «إن لم أمت كمداً بسبب حب اللحوق بعالم البرزخ ، فأتجرد عن هذا الهيكل ، الذي طال حبسي فيه بالحجاب ، أو بسلع ، أو بسبب مقام مشرف على المقام المحمدي» ، فإن المقام المحمدي ممنوع الدخول فيه ، وغاية معرفتنا به النظر إليه ، كما ينظر في الجنة إلى عليين ، كنظرنا إلى الكواكب في السماء ، فإن سلعاً جبل بذي الحليفة ، يشرف على المدينة ، فكنى عنها بالمقام المحمدي ، لإقامة محمد فيها . فأشار إلى رتبته ومرتبته .

(أو بأجياد) جبل مشرف ، بالحرم المكي ، على البيت . يقول : «أو بسبب مقام إلهي ، يغنيني عن كل كون ، فلا كان هوى لا يُلحقني بهذه المراتب الثلاثة ، أو بمكان منها .

وقال :

قفْ بالمنازل واندب الأطلالا
وسلِ الربوع الدارسات سؤالا

يقول : قف بي لداعي الحق من قلبه .

(بالمنازل) يريد المقامات التي ينزلها العارفون بالله ، في سيرهم إلى ما لا يتناهى من علمهم بمعبودهم .

وقوله (واندب الأطلال) وابكِ على ما بقي فيها من آثارهم ، حيث لم يكن لي معهم قدم فيما نزلوا فيه .

ثم يقول : (وسل الربوع) يعني المنازل ، إن لم ترعنا فيها للنازلين ، حتى تخبرك المنازل عنهم ، بما كانوا عليه معها من الآداب وسنيّ الأحوال ، ليكون لك بذلك تأديب ومعرفة .

وسمّاها (دارسات) لتغيُّرها عن الحال التي كانت عليه حين نزولها . فإن المنازل بعد فراق النازلين ، يذهب الأنَس بها[1] لذهابهم ، إذ لا وجود لها من كونها منازل ، إلاَّ بهم .

ثم ذكر السؤال ما هو فقال :

أين الأحبة أين سارت عيسهم
هاتيك تقطع في اليباب آلآلا[2]

يقول : أين درجوا ، وأين سارت بهم هممهم ، التي كنى عنها بالعيس؟ فأجابته بقولها (هاتيك) أي انظر إليهم ؛ يسيرون في مقام التجريد ، الذي كنى عنه باليباب ، وهو القفر ، يقطعون فيه الدلائل على مطلوبهم ، فإنها مرتبطة بوجود المطلوب عندهم كما قال : ﴿**ووجد الله عنده**﴾[3] .

ثم شبهها فقال :

مثل الحدائق في السراب تراهم
آلآل يعظم في العيون الآلا

يقول : انظر إليهم في السراب مثل الحدائق جمع حديقة ، وقد أورثهم دخول هذا المقام حال العظمة وهو الآلا الأول ، والآلا الثاني هو شخص الماشي في السراب بهذا الشرط . وسبب عظمة كونه دليلاً ، فيعظم لدلالته على عظيم ، الذي هو مطلوبة ولذا قال حتى (يعظم) ، يعني ما لم يكن وهو أنت ، ويبقى من لم يزل وهو هو . وقال تعالى : ﴿**كسراب بقيعة**﴾[4] ، مقام التواضع ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً فدل على

(١) كذا وأحسب أن المراد منها .

(٢) الآل في هذا البيت تعني أطراف الجبل ونواحيه ، وتعني في البيت التالي ما تراه من غدوة حتى ارتفاع الضحى فتحسبه ماء وهو غير السراب .

(٣) انظر سورة النور الآية رقم ٣٩ : ﴿**والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب**﴾ .

(٤) انظر الحاشية السابقة .

شيء وهو قوله تعالى : ﴿ووجد الله عنده﴾[1] ، لانقطاع الأسباب عنه ، وهو مقام شريف ، فلهذا قال الآل يعظم في العيون الآلا ، أي أن العظمة التي كانت للإنسان على غيره من الممكنات ، لأنه أقوى في الدلالة على الحق ، لكونه على النشء الأكمل ، وهو قوله عليه السلام أنه : «مخلوق على صورة الرحمن»[2] فلهذا كان اقرب الأدلة وأقواها وأعظمها .

ثم أخذ يذكر ما قصد الأحبة بسيرهم :

ساروا يريدون العذيب ليشربوا[3]

ماءً به مثل الحياة زلالا

يقول : ساروا طالبين سر الحياة بمقام الصفا من عين الجود ، لتحي بذلك نفوسهم ، فكنى عنه بالشرب ، وهو ثاني مرتبة من مقام التجلي . فإن الذوق أول مبادي التجلي .

ثم أخذ يصف حاله في مطلبه آثارهم والتفحص عن أخبارهم :

فقفوت أسأل عنهم ريح الصبا

هل خيّموا أو استظلّوا الضالا[4]

يقول : فتبعت آثارهم ، أتفحص أخبارهم من ريح الصبا ، وهو الريح الشرقية ، يريد عالم الأنفاس الذين كانوا بعين التجلي .

---

(١) انظر الحاشية السابقة .

(٢) انظر تخريج الحديث أن الله خلق آدم على صورته وهو على كل حال حديث توراتي جاء في سفر التكوين ، أما حديث أنه مخلوق على صورة الرحمن فلم أعثر عليه .

(٣) العذيب بظاهر الكوفة ، والعذيب أيضاً لبني تميم وكذلك بارق وهما اللذان ذكرهما المتنبي في قوله (عن الحميري) :

تذكّرت ما بين العذيب وبارق

مجرّ عوالينا ومجرى السوابق

(٤) الضال شجر هو العنّاب البرّي .

يقول اسأل هؤلاء أصحابنا ، هل نزلوا مستظلين بما كسبوا واستظلوا بما وهبوا؟ فإن الخيام من عملهم ، والضال ما لهم فيه تعمل . وقصد الضال دون غيره ، لأن فيه معنى الحيرة .

ثم أخذ يذكر ما أجابته ريح الصبا عنهم فقال :

قالت تركت على زرود قبابهم[1]

والعيس تشكو من سراها كلالا

قد أسدلوا فوق القباب مضاراً

يسترْنَ من حرّ الهجير جمالا

يقول : قالت ، حين سألتها عنهم ، تركتهم نازلين في قبابهم ، يشير إلى أنهم في ظل كسبهم على حالة التزلزل وعدم الثبوت . فكنى عن ذلك بزرود رمله عظيمة في قفر ، ولما كان الرمل كثيراً ما تنقله الرياح ، عن حالاته وعن أماكنه ، شبَّه حالة التزلزل وعدم الثبوت على أمر واحد به .

وقوله (والعيس تشكو من سُراها) يعني من تعلقها مطلوبها .

(كلالا) أي إعياء ، والعياء الذي ينسب إليها ، من كونها تطلب من لا ينضبط ولا يتصور ، ولا يحصل في النفس منه إلاّ آثاره لا هو .

ثم أخذ ينبه على قوله : «لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره»[2] ، لكن جعل الحجاب عليهم وفي حقهم ، لا على الوجه ، فقال إن سطوات أنوار هذا المقام ، إن لم تكن على وجوههم أي حقائقهم ، فإن وجه الشيء حقيقته ما يسترها ، وإلاّ ذهب هذا النور بمحاسنهم ، كما تغير الشمس محاسن الوجوه في المعتاد .

ثم أخذ يحثه على الرحيل خلفهم ، وما يفعله إذا لقيهم ، فقال :

---

(١) زرود رمل بين ديار بني عبس وديار بني يربوع وقد نزل به سعد بن أبي وقاص قادماً من فيد ومتجهاً إلى القادسية (عن الحميري) .

(٢) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث .

فـــانهض إليـــهم طالبـــاً آثارهم
وارفل بعـــيـــسك نحـــوهم إرفـــالا[1]

يقول : تأدّب مع المتقدم عليك ، ولا تزاحمه في مقامه ، فإنه ليس لك فيه شيء . يريد بذلك مقامات الأنبياء عليهم السلام ، وهم العارفون المذكورون في هذه القطعة ، الذين كنى عنهم بالأحبة . يقول : فاطلب آثارهم أي اقتف على مدرجتهم ، وزاحمهم بالهمة ، التي كنى عنها بالعيس ، لا بالحال ، فإن الحال محجوب في هذا المقام على غير النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وقد حكى عن أبي يزيد[2] وغيره في هذا المقام حكايات معروفة . فإنه فُتح له ، من مقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، قدر خرم الإبرة ، تجلياً لا دخولاً ، فاخترق . ومثل هذا كثير ، والهمة لا تعجز عن الطلب ، ولا عن التعلق ، ولكن ما كل ما يُراد ويُتعلَّق به يُنال . فلهذا لا يحجر على تعلق الهمم ، والفائدة في تعلقها ، وإن لم يحصل لصاحبها قدَمٌ في ذلك ، قبل نيل الإشراف على المطلوب ، والتنزه فيه كمن يتنزه فيما هو خارج عنه بجسمه ، وبصره يدركه ، كتفرجنا في زينة الكواكب في السماء ونحن بذواتنا في الأرض .

ولهذا قال :

فـإذا وقـفـت على مـعـالـم حـاجـر
وقطعت أغـــواراً بهـــا وجـــبـــالا

يقول : فإذا وقفت على موضع الحجر الذي ذكرناه ، الحائل بيننا وبين حصولنا فيه بالحال ، وقطعت المواضع الغيبية ، التي هي الأغوار والسبل ، التي هي الجبال ، التي يهدينا الحق إليها بعد الجهاد ، من قوله : ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا**﴾[3] يقول فإذا حصلت هذه الحالات ، تقرب من المنازل العلية .

---

(١) كذا والصواب أرْقل فالإرفال هو السرعة في السير .

(٢) هو طيفور المتوفى عام ٨٧٥م ، وهو أحد أشهر رجال التصوف ، ويبدو من خلال ما أثر عنه أنه أول القائلين بالفناء وبوحدة الوجود . للمزيد عنه انظر «النور من كلمات أبي طيفور» المنشور بعناية ، د .عبد الرحمن بدوي في مؤلفه «شطحات الصوفية» .

(٣) انظر سورة العنكبوت ، الآية رقم ٦٩.

فقال :

قـــــــربت منـازلـهـم ولاحت نـارهـم
نـاراً قـــد أشـــعلت الهـــوى إشـــعـــالا

يقول : (قربت منازلهم) لك .

وقوله (ولاحت نارهم) أي المكاره التي اقتحموها ، حتى أوصلتهم إلى هذه المنازل العلية ، فإن «الجنة حُفَّت بالمكاره»[1] ، كما ذكر لي بعض المكاشفين بالموصل وكان من الصادقين ، انه رأى معروفاً الكرخي[2] رضي الله عنه ، في وسط النار قاعداً ، فهَالَه ذلك وما عرف معناه ، فلما ذكره لنا ، قلت له : «تلك النار ، هي الحمى على منزله الذي رأيته فيه قاعداً ، فمن أراد أن ينال ذلك المنزل الذي هو فيه ، فليقتحم إلى هذه النار والغمرات» فسررته بذلك وعرف أنه الحق . فهذا هو النار الذي أراد به صاحب هذا القول .

وقوله (قد أشعلت الهوى إشعالا) يقول : أضرمت في القلب نار الحب لنيل هذا المقام ، ليكون تأييداً له ، وقوة على اقتحام الشدائد في نيل المطلوب الذي تعلق به قلبه .

ثم قال :

فـــأنخ بهـــا لا يرهبنك أســـدها
الاشـــتـــيـــاق يُريكهـــا أشـــبـــالا

يقول : «حبك الشيء يعمي ويصم»[3] ، فلا تقع عينك على ما تخاف منه ، مما يحول الخوف بينك وبين مطلوبك ، ويصم عن سماع ما يتخوف به كل طالب في

(١) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث .
(٢) سبق التعريف بمعروف الكرخي .
(٣) حديث نبوي أخرجه محققاً كتاب اللمع للطوسي (انظر ص١٦٤) ، وقد أخرجه ابن حنبل وأخرجه الدارمي في كتاب الأدب .

طريق مطلوبه . يقول له : إن كنت صادقاً في حبك ، فلا يرهبنك ما ترى من الشدائد ، التي كنىَّ عنها بالأسد ، فإن الصدق في الشوق إلى ذلك ، يردها في عينك بمنزلة الأشبال ، الذين هم صغار الأسد ، الذين هم لا يخاف منهم ، أي يهون عليك الشدائد والأمور الصعاب ، ما تجده من الشوق إليهم .

وقال رضي الله عنه :

يا طللاً عند الأثيل دارساً

لاعبت فيه خرداً أوانسا[1]

كنا قد نزعنا في شرح هذه القطعة وغيرها ، منازع مختلفة في مواضع شتى ، على حسب ما يعطيه السماع[2] في وارد الوقت . فالآن أيضاً أقول فيها ، إن السماع أعطى في قوله (يا طللا عند الأثيل) الطلل ، ما بقي من أثر الديار بعد خلوها عن[3] ساكنيها . واعلم أن الإنسان فيه مناسب من كل شيء في العالم ، فيضاف كل مناسب إلى مناسبه ، بأظهر وجوهه ، وتخصصه الحال والوقت والسماع ، بمناسب ما دون غيره من المناسب ، إذا كان له مناسبات كثيرة لوجوه كثيرة يطلبها بذاته . فأقول : إن (الأثيل) تصغير الأثل ، وهو الأصل ، والطلل أثر طبيعي وهو ما بقي فيه من أثره الطبيعي . فالأثيل هنا الطبيعة التي هي الأصل .

وقوله (دارساً) يريد متغيراً ، بما يرد عليه من الأحوال ، فيتغير من حالة إلى حالة ، وإذا تغير إلى حالة ما ، فقد ذهب أثره من الحالة التي انتقل عنها حتى أعقبها غيرها .

---

(١) الأثيل واد في حيّز بدر . الخريد والخريدة الكثيرة الحياء وفي اللؤلؤ التي لم تثقب والأوانس جمع آنسة .

(٢) أورد الكلاباذي عن أبي عبدالله النَّباجي قوله : «السماع ما أثار فكرة ، واكتسب عبرة ، وما سواه فتنة» . وهو عند البغدادي على ضربين : فطائفة سمعت الكلام فاستخرجت منه عبَرة ، وهذا لا يُسمع إلاّ بالتمييز وحضور القلب ، وطائفة سمعت النغمة ، وهي قوت الروح ، فإذا ظفر الروح بقوته أشرف على مقامه وأعرض عن تدبير الجسم ، فظهر عند ذلك من المستمع الاضطراب والحركة .

(٣) كذا والصواب من .

وقوله (لاعبت فيها خرداً أوانسا) أراد بالخرّد الحكم الإلهية ، التي يأنس الاطلاع عليها قلب العارف ، فهو يتذكر حالته التي كان عليها ، عند فنائه عن عالم الفناء والدثور .

وقوله (لاعبت فيه) ، الضمير يعود على الطلل ، فإنه ما شاهد شيئاً إلاّ وفيه وسببه ، فإنه بالأصل متولّد عنه ، فإنه بعد التسوية الطبيعية ، لم يحصل فيه هذا السر الروحاني الرباني ، على صورة المزاج وطبع التأليف ، ساذجاً لا علم له ، ثم إنه بواسطة ما أودع الله في هذا الهيكل من القوى ، يحصل ما يظهر عليه من العلوم والمعارف كلها ، الرياضية والطبيعية والإلهية ، فبهذا يكون شرف لهذا القالب .

ثم قال :

بالأمس كان مؤنساً وضاحكاً

واليوم أضحى موحشاً وعابسا

كنى بالأمس ، عن الزمان الماضي ، يقول : كان فيه بمغيبه وفنائه ، مع العالم الأعلى ، عالم البقاء من غير استمرار زمان ، عن عالم الفناء والإحساس المقيد في عالم الشهادة ، مؤنساً وضاحكاً في ابتهاج وسرور وغبطة وحبور ، فإنه بمناسبة الروحاني كانت الفتة في هذا المشهد ، فلما ردَّ في الحالة الثانية ، التي كنى عنها باليوم ، إلى حالة إحساسه ، ومشاهدة عالم الضيق والحرج ، وفراق تلك الفسحات والفرج العلوية والمسارح ، أخذته الوحشة لتلك الفرقة ، فصار عبوساً مهموماً مغموماً .

ثم أخذ يقول :

نأوا ولم أشعرهم فمما دروا

أن عليهم من ضميري حارسا

يقول : إن الملا الأعلى ، الذين كانوا مشهودين له في هذا المقام ، لما رحلوا ، ورُدّ بي إلى شاهدي من تلك الغيبة ، بعث عليهم حارساً ، ضميري وخواطري وهممي ، تحرسهم وتبصرهم ، مثل ما يفارق الإنسان منزلاً ما بإحساسه ، وهو حاضر معه بخياله ، ومثاله في نفسه .

ثم أخذ يصف حالة هذا الضمير ، فقال :

يتبعهم حيث نأوا وخيموا
وقد يكون للمطايا سائسا

يقول : (يتبعهم) حيث توجهوا ، في سيرهم في المنازل الإلهية .

و(خيَّموا) إذا قاموا بمقام ما من مقامات الجمع والوجود ، لورود الشهود ، الذي لا تصح معه حركة منه ، بل له الثبوت في ذلك المشهد .

و(المطايا) هم السائرين[1] ، الذين اشتاق إليهم بالهمة .

وقوله (سائساً) يسوسهم ، أي يؤثر فيهم بالهمة ، فتكون منهم التفاته إليه ، وذلك من صدقه ، فإن الصغير يؤثر في الكبير ، إذا صادق التوجه[2] . وهذا يظهر كثيراً في المريدين الصادقين مع الشيوخ ، وإن كان الشيوخ أعلى . ولكن صدق التوجه إليهم أثر[3] لهم رحمة بهم : ﴿**ليجزى الله الصادقين بصدقهم**﴾[4] عاجلاً ، وهو هذا وآجلاً ما يكون في الأخرى لهم .

ثم أخذ يصف أحوال السائرين فقال :

حتى إذا حلّوا بقفر بلقع
وخيموا وافترشوا الطنافسا

يقول : نزلوا بمقام التنزيه وتجريد التوحيد .

و(خيموا) مثل قوله عليه السلام : «إن الإنسان يوم القيامة في ظل صدقته»[5] .

(وافترشوا الطنافسا) هو ما مَهَّد لهم الحق في منازلهم ، عند ورودهم عليه من عالم الأكوان ، وما أتحفهم به في ذلك المقام من البرّ والإكرام . ثم أخذ يذكر ما أثر

(١) كذا والصواب السائرون .
(٢) كذا وأحسب أن المراد القول إذا كان صادق التوجه .
(٣) إذا كان المراد فعل أثر فالتأثير يكون بهم لا لهم .
(٤) انظر الآية ٢٤ من سورة الأحزاب .
(٥) أخرجه أحمد بن حنبل .

نزولهم في ذلك المقام عندهم ، وما ينزل إليهم من عند الحق ، من الألطاف والتحف والعوارف بنزولهم .

فقال :

عـــــاد بـهـم روضـــــاً أغـنّ يانـعـــــاً

من بـعـــد مـــا قـــد كـــان قـــفـــراً يابســـا

نبَّه في هذا البيت ، على أن تجريد التوحيد ، لا يثبت معه حقيقة زائدة على العين أصلاً ، فإذا قاموا في هذا المقام وتحققوا به ، وعلموا معنى قوله : ﴿ليس كمثله شيء﴾[1] ردهم إلى توحيد ذواتهم ، من حيث أحديتهم ، التي لا شبيه لها من حيث العين في ذاتها . ثم ذكر قبولها لما يفيضه الحق عليها ، من الأسرار الإلهية لحقائق الأسماء ، فشبهها بالروضة ، لكونها جامعة لفنون الأزهار ، وبيَّن أن ذلك من مقام الفهوانية ، بقوله (أغنّ) فجمع بين الكسب والوهب من طريق المشاهدة والكلام ، فكأنه في هذا المقام موسوي ومحمدي على مذهب ابن عباس[2] وأكثر المحققين .

ثم أخذ يصف ما يؤثرون هؤلاء في المنازل بنزولهم :

مـــــا نـزلـوا مـن مـنـزل إلاّ حـــــوى

من الحـــــســــان روضـــــةً طـواوســـــا

يقول : إذا نزلوا في منزل ، فكان ذلك بحسن فنون حالاتهم وأعمالهم وخلقهم ، نزلوه طواوساً لحسنهم واختلاف ألوان لباسهم ، وشبههم بالطيور لغلبة الروحانية عليهم ، ولما كانت الطيور ممتزجة بين العالم الروحاني المطلق ، من حيث طيرانهم في الجوّ وسياحتهم في الهوى ، وبين العالم الجسماني من حيث هيكلتهم وتركيبهم ، لذلك أوقع التشبيه بها ، لأن الأرواح الإنسانية المقيَّدة بهذا الهيكل ، لم تخلص عنه

(١) انظر سورة الشورى ، الآية رقم ١١.

(٢) هو عبدالله بن عباس ابن عم النبي ، وكان يلّقب حبر الأمة ، روى الحديث وله تفسير وقد توفّي عام ٦٨٧م .

تلخص الأرواح المسرَّحة ، التي لا تقييد لها بعالم الأجسام ، لأنها مدبرة بأصل الفطرة والجبلة ، ولا تخلصت أيضاً لأن تكون من عالم الجسم ، فتكون ظلمة مطلقة ، كثيفة ثقيلة ، تتحرك بغيرها لا بنفسها ، فأشبهت الطير بهذا ، وذلك أنها متولدة بين الظلمة والنور ، فهي ممتزجة ، فكأنها برزخ بين العالمين النوراني والظلماني .

ثم قال :

ولا نـأوا عـن مـنـزل الأ حـــــوى
من عـاشـقـيـهم أرضـه نـواوسـا

يقول : ولا رحلوا (عن منزل إلاّ حوى من عاشقيهم) أي ممن له تعلّقٌ بهم ، من الحقائق التي تجب أن تظهر آثارها فيهم ، لظهور سلطانهم لهم . فإن المعارف لا وجود لها إلا بالعارفين ، فهي أشد عشقاً في وجود العارف بها ، من حيث ما هو عارف بها ، من شوق العارف إليها ، فإن العارف قد يمكن أن يجهل بعض المعارف ، فلا يتصور منه طلب ولا عشق ، فلهذا وصفها عند مفارقة العارفين بالموت ، فإن النواويس المدافن .

وقال رضي الله عنه :

مـرضي من مـريضـة الأجـفـان
عـللاني بـذكـرها عـللاني

المرض الميل . يقول لما مالت عيون الحضرة المطلوبة للعارفين ، من جانب الحق سبحانه ، بالرحمة والتلطف إلينا ، أمالت قلبي بالتعشق إليها . فإنها لما تنزهت جلالاً ، وعلت قدراً ، وسَمَت جبروتاً وكبراً ، لم يتمكن أن تُعرف فتُحب ، فتنزلت بالألطاف الخفية إلى قلوب العارفين ، بقوله ، «ووسعني قلب عبدي»[1] ضرب من التجلي تعلق القلب عند ذلك ، فكان الحب ، وكان الميل الدائم ، وهو المرض المحمود .

(١) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث .

وقوله (عللاني بذكرها) لما ذكر المرض ، طلب التعلل ، وما بأيدي الكون منه إلا الذكر ، فإن ضبطه وتحصيله محال ، فطلب ما يجوز له طلبه ، وهو الذكر ، كما قال : ﴿فاذكروني أذكركم﴾[1] ، وثنّى يريد ذكراً بلسان الغيب ، وذكراً بلسان الشهادة ، وكرر التعليل بالتثنية يقول : اذكراه لي بذكري له وبذكره إياي ، وهو حالة فناء العبد عن ذكر ربه بذكره لذكره بربه لربه بلسان عبده ، كما قال عليه السلام في الرفع من الركوع ، فإن الله قال على لسان عبده : «سمع الله لمن حمده»[2] .

هفت الورق بالرياض وناحت

شجو هذا الحمام مما شجاني

يقول : (هفت) تحركت .

و(ناحت) ندبت على المقابلة .

والشجو الحزن .

يقول : تحركت الأرواح البرزخية بالرياض ، يريد رياض المعارف ، وناحت ندبت نفسها ، حيث لم تخلص بذاتها ، لجناب الأرواح المسرّحة عن التقييد بهذا الهيكل الذاتي ، فسحات الأطباق العلي مع الملا الأعلى ، فقابلت ندباً مني ما ، يناسبها من اللطيفة الممتزجة ، فأحزنها الذي أحزنني ، للمشاكلة التي بينهما .

ثم قال :

بأبي طفلة لعوب تهادى

من بنات الخدور بين الغواني

(الطفلة) الناعمة ، والإشارة بها إلى الطفولية ، وهو حدوث عهدها بوجودها للحق لا لنفسها .

(١) انظر سورة البقرة ، الآية ١٥٢.

(٢) تكرر الحديث في كتاب الصلاة للبخاري من طرق وبألفاظ مختلفة عديدة .

و(اللعوب) التي يكثر منها اللعب ، يريد أنها متحببة لا همّ لها ، مسرورة لقربها من مشهدها الأقدم .

و(الغواني) ذوات الأرواح ، وهن بينهم[1] بكْرٌ ، لم يطمثها أنس ، قبل هذه المعارف ، ولا جان[2] ، أي مستتر . يقول : ما التذ بها عالم الغيب ، ولا عالم الشهادة . والإشارة إلى حكمة علوية إلهية ذاتية أقدسية مشهودة ، لهذا القائل ، لينة تورث السرور والابتهاج والطرب والفرح ، لمن قامت به .

فهي (اللعوب تهادى) أراد ، تتهادى بين حكم إلهية ، ولطائف قد تحقق بها العارفون ، الذين سبقوا لهذا العارف بالوجود . وجعلها من بنات الخدور ، يشير إلى أنها كانت خلف حجاب الصون والحفظ والغيرة ، في سيرها من الحضرة الإلهية لقلب هذا العارف ، في المنازل العلوية ، حتى تصل إليه . وبهذا كنى عن ذلك بالخدور ، وهي الهوادج . ولا تكون الظعينة في ستر الهودج إلا في الرحيل ، فإذا نزلوا كنَّ مقصورات في الخيام[3] .

طلعت في العيان شمساً فلما
أفلت أشرقت بأفق جناني

يشير إلى قوله عليه السلام : «ترون ربكم كما ترون الشمس بالظهيرة ليس دونها سحاب»[4] . يقول : طلعت هذه ، المتغزّل فيها ، في عالم الملك والشهادة ، من الاسم الظاهر الكبير المتعال ، فأعطت في هذا التجلي ، ما تعطى الشمس في عالم الأركان ، من الأثر المعنوي والحسي ، إلى أن انتهت بالسير نصف دائرة العالم ، غربت عن الملك والشهادة ، وكان غروبها شروقاً في عالم الغيب والملكوت . وبذلك كنى عنه بالجنان من الستر ، ولم يُكَنِّ عنه بالقلب ، تحرزاً من التقليب والتلوين في هذا المقام . وذكر

(١) كذا وأحسب أن المراد وهي بينها أي بين الأرواح بكر . .الخ .
(٢) انظر سورة الرحمن ، الآية رقم ٧٤.
(٣) انظر سورة الرحمن الآية ٧٢ : ﴿حورٌ مقصورات في الخيام﴾ .
(٤) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث فلقد تكرر مراراً .

الأفق من أجل الاعتدال ، وان الإنسان بما تعطيه نشأته ، لا يبقى عند نظره على حالة اعتداله ، إلا بالنظر لما يواجهه من قلبه ، وهو الأفق . فمتى رام أن ينظر إلى غير الأفق ، خرج عن الاعتدال فلهذا قال (بأفق جناني) .

يا طلولاً برامةٍ[1] دارسات
كم رأت من كواعبٍ وحسان

أراد (بالطلول) ؛ القوى الجثمانيات منه .

وأراد (برامة) من رام يروم ، وهي المحاولة . وهذا هو النداء المنكر ، يقول : أيتها القوى ! كم تحاولي تحصيل ما لا يمكن تحصيله ، وأنت محل التغيير والتلوين ، من حال إلى حال ، فإن الدارس هو المتغير . ثم أخذ ينبهها بما رأت ، قبل ذلك ، مما أفناها وسحقها ومحقها ، من الحكم الإلهية ، واللطائف والإشارات العلوية .

و(الكاعب) التي صار ثديها كالكعب ، وهو أول شباب الجارية ، والإشارة إلى ثدي هذه الحكمة ، لأنها تحمل اللبن ، الذي هو الفطرة ، مشروب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، في ليلة معراجه[2] ، بين ثدييه صلى الله عليه وآله وسلم ، وجد برد الأنامل ، فعلم علم الأولين والآخرين . من ذلك فإن اللبن الذي يحمله الثدي الواحد ، كنى عنه بعلم الأولين ، واللبن الذي يحمله الثدي الآخر كنى عنه بعلم الآخرين ، وبينهما موضع الجمع لتحصيل العلمين ، ليقع بذلك للعالم التمييز ، إذا وقع منه الإحساس في ذلك الموضع . كما قال : ﴿بينهما برزخٌ لا يبغيان﴾[3] لئلا يقع الالتباس .

---

(١) رامة موضع بالعقيق ، وقيل بل هي وراء القريتين في طريق البصرى إلى مكّة (عن الحميري) .

(٢) انظر الخصائص الكبرى للسيوطي ففيه أحاديث الإسراء والمعراج وحديث اللبن من عدّة طرق : « . . .حتى انتهينا إلى بيت المقدس فأوثقته (أي البراق) بالحلقة التي كانت الأنبياء توثق بها فنشر لي رهط من الأنبياء منهم إبراهيم وموسى وعيسى فصليت بهم وأُتيت بإنائين أحمر وأبيض فشربت الأبيض فقال لي جبرئيل شربت اللبن وتركت الخمر لو شربت الخمر لارتدّت أمتك . . . » ، وأخرجه البخاري في كتاب الأشربة عن أبي هريرة : « . . .فقال جبريل الحمد لله الذي هداك للفطرة ولو أخذت الخمر غوت أمتك » .

(٣) انظر سورة الرحمن ، الآية رقم ٢٠.

وأراد (بالحسان) إشارة إلى أنهما من عين المشاهدة ، فإن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه[1] ، وهو مشتق من الحسن .

بأبي ثم بي غزال ربيب

يرتعي بين أضلعي في أمان

بقول : أفدي هذا المحبوب ، المتجلي إليَّ بأبي وبنفسي . يشير لما يطرأ عليه ، لو اتفق حال الفناء ، فكنى عن هذا المحبوب بالغزال لوجهين ؛ الواحد لاشتقاقه من الغزل ، وهو التشبيه والمحبة والنسيب ، والوجه الآخر ؛ الوحش الذي يألف القفر ، فكأنه يقول : هذا المعنى المطلوب لي ، مولده ومقامه ، إنما هو القفر الذي هو مقام التجريد ، وحال التنزيه والتقديس ، أي إذا كان هذا حالي ومقامي ألِفَه هذا المعنى ، كما يألف الغزال القفر .

وقوله (ربيب) أي مربيّ ، كأنه يريد أنه نتيجة عن مطلب الهمة ، ونظيره في العمل الصدقة ، تقع في يد الرحمن فيربيها ، كما يربي أحدكم فَلُوَه أو فَصِيلَه ، فكذلك المعاني الإلهية ، إذا كانت معقولة للهم ، حتى يتصور طلبها لها ، فتقبل التربية ، خلاف ما لا يخطر على القلب ، فلا يتعلق به الهمة .

وقوله (يرتعي) من الرعي ؛ والرعي يكسب السُمن ، الذي يحصل منه للمرتعي حُسْناً وجمالاً ، فكذلك هذا الوارد الإلهي ، إذا حصل بقلب الأديب ، زينه وحسنه بالأدب في التلقي ، فإنه لا بد أن يرجع إلى موجده ، فيرجع بأحسن صورة ، وهي موارد الأوقات ، وبابها في المعارف واسع .

(١) حديث مشهور أخرجه البخاري في كتاب الإيمان وفي تفسير سورة لقمان ، وأخرجه مسلم والترمذي في كتاب الإيمان ، وكذلك أخرجه الدارمي وابن ماجه والهندي في كنز العمال مكرراً من طرق مختلفة ، وغيرهم كثير . وخلاصة الحديث أن جبريل يأتي الرسول فيسأله أمام صحبه عن الإسلام فالإيمان فالإحسان فيجيبه الرسول بأن الإحسان : «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» .

وقوله (بين أضلعي في أمان) يعني للانحناء الذي في الضلوع ، فكأنها كالحاوية عليه ، الخائفة لئلا يطرقه شيء ، كما قد ذكرناه في قصيدة لنا ، في هذا الكتاب ، وهو قولنا : «فطويت من حذر عليه شراسفاً» ، فلهذا أوجب له الأمان .

مـــا عليـــه من نارها فـــهـــو نور

هكذا النور مـــخـــمـــد النيـــران

كأن قائلا قال له : إن هذا المحل الذي جعلته مرعىً لغزالك ناري فقلنا : ما عليه من ذلك ، فإن النور أقوى في الفعل منه ، وهذه الموارد نورانية ، توردت من حضرة النور ، فلا شك أن النار الطبيعية ، التي بين أضلع هذا المحب لا تقوى لها ولا تنعدم ، فإن المحبة تشعلها وتقويها ، فغاية الأمر أن تخمد ، يريد أنه لا أثر لها فيه ؛ ألا ترى في الحسن ، كيف يذهب نور الشمس نور النار في رأي العين ، وإن كنا نعلم أن لها نوراً؟ ولكن اندرج الأضعف في الأقوى في أعيننا ، فتراها كأنها خامدة ، وفي نفس الأمر على ما هي عليه من الاشتعال .

يا خليلي عـــرجـــا بعناني

لأرى رسم دارها بعـــيـــاني

يخاطب داعييه اللذين للحق فيه ، من عالم غيبه وشهادته ، يقول لهما : أثنيا بعناني ! يريد الأمر ، الذي يحكم به ويمشيه على الطريق الأقوم ، لأرى رسم شخص دارها ، أي الحضرة التي منها صدرت هذه الحكمة المحبوبة ، أي ببصري ، من كونه بصراً لا من كونه مقيداً بجارحة ولا بجهة ، فكأنه يطلب مقام المشاهدة ، إذ الحكمة ليست مطلوبة إلا من أجل ما تدل عليه .

ثم قال :

فـــإذا مـــا بلغـــتـــمـــا الدار حطا

وبهـــا صـــاحـــبيّ فلتـــبكيـــان

يقول لهما : إذا وصلتما إلى المنزل فحطا بي ، ولا شك أن هذه الحضرة تغني كل من وصل إليها وشاهدها . فإن المشاهدة فناء ، ليس فيها لذة . يقول : فإذا رأيتماني قد فنيت عن وجودي وعنكما ، فابكياني لكما لا لي ، لتعطيكما بفنائي ، عما تعطيه حقائقكما ، فإن لم أجد الدار ووجدت الأثر ، بكيت مثلكما .

وقوله :

وقـــفـــا بي على الطلول قليـــلا

نتـــبـــاكى بل أبك مما دهاني

يقول : قفا بي إن أجد رسم الدار على أثارها وأثارهم فيها ، ولما شرك بينه وبينهما في البكاء ، وهما اثنان وهو واحد ، غلَّب الكثرة على القلة ، فقال (نتباكى) فإنهما لا يبكيان ، لأنهما ما فقدا شيئاً ، وهو الفاقد فهو الباكي ، فغلَّب التباكي على البكاء من أجلها . ثم بيَّن مقام انفصاله عنهما ، فأضرب عن التباكي بَبَلْ ، فقال (بل أبْك) مما دهاني من فقد الأحبة ورسوم المنازل ، ولم يبق بيدي سوى الآثار ، التي هي بقايا الديار .

ثم أخذ يصف حالة تحكم الحب فيه بسلطانه :

الهـــوى راشـــقي بغـــيـــر ســـهـــام

الهـــوى قـــاتلي بغـــيـــر سنان

وصفه (بالرشق) ، حالة أثره فيه على البعد ، وهي حالة الشوق . ووصفه (بالقتل بغير سنان) ، يشير إلى حالة أثره فيه على القرب ، وهي حالة الاشتياق . فهو يقول ؛ سواء بَعُد الحبيب أو قَرُب ، فإن أثره فيَّ لازم ، وأمره فيَّ متحكم . ونفى السهام والسنان المحسوسين ، أي أنا مقتول من مشهد الغيب والملكوت ، لا من جهة الجوارح ، أي اللحاظ الفاتكة ، فهي معنوية .

ثم أخذ يستفهم صاحبيه فقال :

عَـــرِّفـــاني إذا بكيت لديهـــا

تســعــداني على البكا تســعــداني

يقول لهما : إذا بكيت عندها ، هل تتباكيان معي لبكائي مساعدة أم لا؟ أي تعلمّاني من علوم المشاهدة التي عندكما ما يليق بهذا الموطن؟ فإن البكاء من العيون ، وهي دموع حارَّة ، لأنها عن حزن ، فتكون علوم مجاهدة .

واذكـــرا لى حـــديث هند ولبنى

وسلَيـــمى وزينب وعنان[1]

يقول لهما : عللاني بذكر أمثالي وأشباهي ، ولكن بذكر المحبوبات منهم ، لا بذكر المحبين لهنّ ، إيثاراً لذكرها على ذكري ، وراحة لي بسماع ذكر من يناسبها . ولهؤلاء المذكورين من المحبوبات حكايات ، وطول ذكرها لا يسع هذا الشرح لها ، وقد أفرد الناس لها أماكن في كتب الآداب ، في حكايات هند صاحبة بشر ، ولبنى صاحبة قيس ابن الدريج[2] ، وعنان جارية الناطفي[3] ، وزينب من صواحب عمر ابن[4] أبي ربيعة وسليمى جارية في زماننا ، رأيناها وكن[5] لها محب يهواها . والإشارة بهند إلى مهبط آدم عليه السلام[6] ، وما يختص بذلك الموطن من الأسرار . ولبنى إشارة إلى اللبانة وهي الحاجة ، وسليمى حكمة سليمانية بلقيسية . وعنان علم أحكام الأمور

(١) أما هند صاحبة عبدالله بن عجلان فقد تقدم ذكرها ، وأما لبنى فصاحبة قيس بن ذريح ، وأما سليمى .

(٢) كذا والصواب ابن ذريح ، وهو شاعر أموي وهو أخو الحسين بن علي بن أبي طالب بالرضاعة ، عاش ومات في المدينة ، واشتهر بعشقه للبنى بنت الحباب الكعبية وله شعر فيها وأخباره معها مشهورة ، وقد توفي سنة ٦٨٧م .

(٣) شاعرة لها أخبار مع أبي نواس ، وأخبارها في مظان عديدة من بينها طبقات الشعراء وديوان أبي نواس المنشور بعناية (فاغنر) ، بيد أنها فيما أعلم لا تعد بين من تقدم ذكرهن عاشقة أو معشوقة .

(٤) كذا والصواب بن أبي ربيعة ، وهو الشاعر القرشي الغزلي الشهير المتوفي عام ٧١١م ، له ديوان . وزينب هي زينب بنت موسى الجمحية ، وكان يهواها وله فيها أشعار ومعها أخبار (انظر الأغاني والديوان مثلاً) .

(٥) كذا والصواب وكان لها .

(٦) إشارة إلى الاعتقاد السائد أن الهند كانت مهبط آدم أبي البشر .

السياسيات . وزينب انتقال من مقام ولاية إلى مقام نبوة . والإشارة إلى من كمل من النفوس ، التي استحقت الأنوثة بحكم الأصالة ، فإذا كملت لم يبق بينهما[1] وبين الرجال إلاّ درجة الفصل ، ووقع التساوي في درجة الكمال ، من حيث ما هو كمال لا من حيث كمال ما . كما يقول : ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾[2] ، فمن حيث ما هي رسالة فلا فضل ، إذ الاسم يعم هذه الحالة ، ومن حيث ما هي رسالة بأمر ما ، وقع التفاضل .

ثم زيدا من حاجر وزرود
خبراً عن مراتع الغزلان

ثم أخذ يطلب منهما ، بعد ذكر هؤلاء الأشخاص ، بطريق الإشارة والتنبيه ، للأماكن التي تعمرها هذه الحكم المطلوبة بهذا العاشق ، فقال : (زيدا) لي في حديثكما ذكر حاجر ، وهي الأسباب المانعة عن إدراك أي مطلوب كان ، ما حاجره أي مانعه ، وزرود ضرب من البين ، لكن فيه مجاورة من غير إلفة ، فإن زرود رملة ، والرمل يتجاور ولا يلتف ، ولكن مع هذا ، في هذه الأماكن مرعى لهؤلاء الغزلان ، التي هي العلوم الشوارد ، التي لا تنضبط ولا يتصور بها ، فكأنه يطلب الحالات التي تحسنها .

واندباني بشعر قيس وليلى
وبمي والمبتلى غيلان[3]

(١) كذا والصواب بينها .

(٢) انظر سورة البقرة ، الآية ٢٥٣.

(٣) أما قيس فهو قيس بن الملّوح الشهير بمجنون ليلى المتوفى سنة ٦٨٨ ، وليلى العامرية امرأة من قبيلته كان يعشقها ولكن أهلها رفضوا أن يزوجوها بها فجنّ بسبب ذلك وهام على وجهه في الفيافي مشبباً بها وله ديوان ، هذا وقد ارتقى حبهما إلى درجة الرمز مثلهما في ذلك مثل روميو وجولييت في العالم الغربي . أما مي فهي ميّة بنت طلبة وهي امرأة جميلة وشاعرة خطبها الشاعر ذو الرمة فأبت التزوج به وقد توفيت عام ٧٦٧ ، وأما ذو الرمة فهو غيلان بن عقبة وهو شاعر أموي عاصر الثلاثي الأموي الشهير الفرزدق وجرير والأخطل وله ديوان ، توفي حوالي ٧٣٥م .

يقول : (واندباني) بشعر المحبين مثلي ، في عالم الحس والشهادة ، كقيس وهو الشدة ، وقلم الإيجاد ، فنبه بقيس عليها ، فإن القيس الشدة في اللغة ، والقيس أيضاً الذكر . وليلى من الليل ، وهو زمان المعراج والإسراء ، والتنزلات الإلهية من العرش الرحماني ، بالألطاف الخفية ، إلى السماء الأقرب من القلب الأشوق . وبمي وهي الخرقا التي لا تحسن العمل ، ومن لم يحسن العمل كان العامل غيره ﴿**والله خلقكم وما تعملون**﴾[1] أي ما يظهر على بيديكم من الأعمال ، التي هي مخلوقة لله تعالى .

(وغيلان) هو ذو الرمة والرمة الحبل العتيق ، والحبل السبب الذي طولبنا بالاستمساك به والاعتصام[2] ، ونسبته إلى القديم أمر محقق ، فإنه حبل الله ، وهو القديم الأزلي . وذكر الغيلان وهو شجر مشوك ، يتعلق بمن قرب منه ، ويمسكه عن أن يزول عنه ، حباً فيه وإيثاراً ، وفيه من الراحة ، كون هذا الشجر مختص بالفيافي التي لا نبات فيها ، المهلكة بقوة رمضائها وحرّها ، فليس فيها ظل لسالك ، إلاّ هذه الشجرات ، شجرات أم غيلان ؛ فيجدها في ذلك المقام رحمة ، فيلقي عليها ثوبه ويستظل ، فتمسكه بشوكها عن أن تمر به الرياح ، فينكشف لحر الشمس . فكذلك ما يجده من الألطاف الخفية الإلهية ، في مقام تجريد التوحيد وتنزيه التقديس ؛ فأوقع التشبيه بالمناسب من هذا الوجه . فلهذا سألهما أن يذكرا له هؤلاء الأشخاص من المحبين ، ليجمع بين حال المحبة وعلم حقائق هؤلاء المذكورين لأنهم كانوا محبين .

ثم قال :

طال شوقي لطفلة ذات نشر
ونظامٍ ومنبرٍ وبيان
من بنات الملوك من دار فرس
من أجل البلاد من أصبهان

(١) انظر سورة الصافات ، الآية رقم ٩٦.

(٢) إشارة إلى الآية رقم ١٠٣ في سورة آل عمران : ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا . . .**﴾ .

وصف هذه المعرفة الذاتية ، بأنها ذات نثر ونظام ، وهما عبارتان عن المقيَّد والمطلق ، فمن حيث الذات وجود مطلق ، ومن حيث المالك مقيد بالملك . فافهم ما أشرنا إليه في هذا ، فإنه عزيز ما رأينا أحداً نبَّه عليه قبلنا في كتاب من كتب المعرفة بالله تعالى . وأما قوله (ومنبر) يعني درجات الأسماء الحسنى ، والرقي فيها التخلق ، فهي منبر الكون .

و(البيان) عبارة عن مقام الرسالة . لغَّزنا هذه المعارف كلها ، خلف حجاب النظم ، بنت شيخنا ، العذراء البتول شيخة الحرمين[1] ، وهي من العالمات المذكورات . وقوله (من بنات الملوك) لزهادتها ، فالزهاد ملوك الأرض ، فستر ما يريده من المعارف بذكر دارها وأصلها .

يشير (من بنات الملوك) يعني أن هذه المعرفة لها وجه بالتقييد ، فإن (الملوك) من باب الإضافة .

وقوله من (دار فرس) يقول وإن كانت عربية من حيث البيان ، فهي فارسية عجماء من حيث الأصل ، لأنه لا يتمكن في الأصل ، بيان عزته ، وتعلق العلم به . فذكر (أصبهان) لأنه بلدها من الأصالة ، فينسب من الحكَم إليها ، على قدر ما يعرف من خصائصها كل عارف ، فهو يرجع للعارفين بها . فقالَ :

هي بنت العراق بنت إمامي
وأنا ضدها سليل يماني

يقول : العراق أصل الشيء ، أي هذه المعرفة عن أصل شريف ، له التقدم بما ذكر من الإمامة .

وأنا (يمان) ، من حيث الإيمان ، والحكمة ونفس الرحمن ورقة الأفئدة ، وإنما جعله ضداً لما ينسب إلى العراق من الجفا والشدة والكفر[2] فهو ضد ما ينسب إلى

(١) انظر مقدمة الشرح كما كتبها الشيخ .

(٢) لعله يشير إلى ما وصف به أهل العراق في خطب الإمام علي وزياد والحجاج وغيرهم بأنهم أهل نفاق وشقاق . .الخ .

اليمن ، لأن ضد العراق إنما هو المغرب لا اليمن ، وإنما اليمن مقابلة الشام ، فالضد الذي أشار إليه إنما هو بما يناسب الشارع إلى الجهتين ، وهي محبوبة فلها الجفا والبعد والغلظة والقهر ، وأنا محب فمني النصرة والإيمان والرقة واللطافة ، استعطافاً لرضى المحبوب ، واستلطافاً به . ولما كانت هذه المعرفة المخصوصة تصطلم العبد عن شهوده ، وتظهر فيه بضرب من القهر والغلبة ، فتمحو رسومه وتذهب سائر علومه ، كانت نسبة العراق إليها أولى من غيرها من الأماكن .

ثم قال :

هل رأيتم يا سادتي أو سمعتم
أن ضدين قط يجتمعان

يقول : الإشارة بالضدين حكاية الجنيد[1] ، حين عطس رجل بحضرته فقال :الحمد لله ! فقال الجنيد : أتمها رب العالمين . قال الرجل : ومن العالم حتى يذكر مع الله؟ فقال الجنيد : الآن يا أخي .

فقل له : فإن المحدث إذا قورن بالقديم لم يبق له أثر ، فإذا كان هو فلا أنت ، وإن كنت أنت فلا هو . سبحات وجهه لو كشفت عنها الحجب لأحرقت ما أدركه بصره ! .

لو ترانا برامة نتعاطى
أكؤساً للهوى بغير بنان

يقول : لو ترانا في مقام المحاورة ، نتعاطى أكؤس المحبة ، من قوله : ﴿**يحبهم ويحبونه**﴾[2] ، وقوله (بغير بنان) تنزيه وتقديس وتنبيه على أن الأمر معنوي غيبي ، خارج عن الحس والخيال ، والصورة والمثال .

---

(١) هو أبو القاسم الزجاج القواريري ، الصوفي البغدادي ، أخذ الفقه عن سفيان الثوري ، والتصوف عن خاله السري السقطي ، له أتباع كثر ، توفي سنة ٩١٠م . أما الإشارة إلى الضدين فسترد مرة أخرى (انظر ترجمة الجنيد في طبقات الصوفية وحلية الأولياء وجامع الكرامات للنبهاني والرسالة القشيرية) .

(٢) انظر الآية رقم ٤٥ في سورة المائدة : ﴿**فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبونه أذلّة على المؤمنين . . .**﴾ .

والهـــوى بيننا يســـوق حـــديثـــاً
طيـــبـــاً مطرباً بغـــيـــر لســـان

يريد ما أراد القائل[1] بقوله :

تكلم منّا في الوجـــوه عـــيـــوننا
فنحن سكوت والهـــــوى يتكلّم

تشـيـــر فـــادري مـــا تقـــول بطرفـــهـــا
واطرق طرفي عند ذاك فـــتـــعلم[2]

وقوله (طيبا) ، إدراكان للطعم والشم . يشير إلى مقام الأرواح والأذواق ، فأخبر أنه يورث طرباً ، فإن الغالب ، إنما يسوق الطرب السماع ، وما يتعلق بالفهوانية ، والغرض ما ذكرناه ، من الشم والذوق ، فيقع الطرب فيه بالخاصية .

وقوله (بغير لسان) تنزيه كالبيت الأول .

وقوله (يسوق حديثاً) ولم يقل ، فإن المتكلم ، خلف كلامه ما هو أمامه ، فمنه يكون للسامع ، فلهذا جعله سوقاً .

وقوله (حديثاً) إشارة إلى قوله : ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾[3] والبيِّنة هنا ؛ الفرق بين المقامين والحقيقتين ، لا بيِّنة مكان ولا زمان .

لرأيتم مـــا يذهب العـــقل فـــيـــه
يمنٌ والعـــراق مـــعـــتنقـــان

(١) لم أعثر على القائل في ما بين يديّ من مظان .

(٢) جاء البيتان على لسان جارية مغنية عاشقة في السفر الثاني من نهاية الأرب للنويري ص١٦٤ ، ولكن بتغيير في البيت الثاني :

ونغـــضب أحـــيـــاناً ونرضى بطرفنا
وذلك فـــيـــمـــا بيننا ليس يُعلم

ومن النافل القول أن ما أورده الشيخ أجمل وأرق .

(٣) انظر سورة الأنبياء ، الآية رقم ٢.

يقول : لو رأيتم هذه الأحوال التي نحن فيها ، لرأيتم مقاماً وراء طور العقل ، وهو اتحاد صفة القهر بصفة اللطف ، إشارة إلى ما قال أبو سعيد الجزار[1] وقيل له : «بمَ عرفت الله؟» فقال : «بجمعه بين الضدين !» وهو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، من وجه واحد ، لا بد من ذلك ، خلافاً لما تعطيه قوة العقل ، فإن العقل يدل عليه ، من حيث مبلغه ، أنه أول من وجه كذا ، وآخر من وجه كذا ، وظاهر من وجه كذا ، وباطن باعتبار كذا . وليس الأمر كذلك ، فإن القوى التي خلق الله الإنسان عليها ، ما تتعدى حقائقها ؛ فقوة الشم لا تعطي سوى إدراك العطر والنتن ، وكذلك كل قوة ، والعقل أيضاً لا يعطي سوى ما تقتضيه قوته في نظره في دليله لا غير ، والسرُّ الربَّاني يعطي أيضاً ما يليق به وما في قوته ، فقد يستحيل أمر ما بالنسبة إلى العقل ، ولا يستحيل ذلك بالنسبة إلى الحق ، وهذا المحكوم عليه ، لا بد أن يكون مجهول الحقيقة عند العقل ، لكن العقل يزعم أنه يعرفه ، وهذا محال . ومن الدليل على ذلك أيضاً أن العقل لا شك جاهل بحقيقة الحق سبحانه ، غير عارف بذاته ، من حيث الصفات الثبوتية ، ومع هذا ينفي عنه بدليله ، فيما يزعم أن الحق تعالى لا يكون ظاهراً من الوجه الذي يكون باطناً ، فلا ينبغي أن يتحكم في معرفة الله ، من حيث الذات بالعقل . وحظ العقل ، معرفة كون الحق إلهاً أوجدنا ، ونحن مفتقرون إليه في إيجادنا واستمراره ، فاعلم ذلك .

كذب الشاعر الذي قال قبلي
وبأحجار عقله قد رماني

يقول : كذب العالم من طريق الشعور بالأمر ، لا من طريق التصريح . فإن العقل يعلم شيئاً من طريق التصريح ، ويعلم أشياء ، من طريق الشعور ، أنها مشعور بها ، ولكن يتوقف فيها ، لعدم الوضوح لما هي عليه من العزة .

(١) كذا والصواب هو أبو سعيد الخرَّاز (انظر طبقات الصوفية للسلمي ومسألة الضدين وردت في الفتوحات المكية مراراً) .

قوله (بأحجار عقله) أي بدلائل عقله ، بحيث أن يرد ما هو مقدور للحق ، أو واجب إلى عين هذه الصفة ، فيعترض عليَّ ، ويقول : هذه مخيلة دليل العقل ! وهو صادق ، فإن دليل العقل مخيلة ، لا دليل الحق من إيراد الكبير على الصغير ، من غير أن يصغر الكبير ، أو يوسَّع الضيق . ثم ضمَّن في هذه القصيدة هذين البيتين لبعض الشعراء[1] لاجتماعهما في المعنى فقال : ﴿يرى ناراً﴾[2] ، كما رأى موسى عليه السلام :

أيهـــا المنكح الثـــريّا ســـــهـــيـــلاً
عـــمَّـــرك الله كـــيف يلتـــقـــيـــان
هي شـــامـــيـــة إذا مـــا اســـتـــهلّت
وســـهـــيلٌ إذا اســـتـــهـلّ يمـاني [3]

يقول : الثريا سبعة أنجم ، وسهيل نجم واحد ظاهر يمني ، والثريا شامية ، يقول إن الذات لا تقبل الصفات السبعة المدلول عليها عند النظار ، من حيث الزيادة ، لكن من حيث النسبة . والشام موضع الكون ، والثريا هي الظاهرة في الشام ، كذلك الصفات من الحق هي الظاهرة في الخلق ، وعليها تقوم الدلالات والذات . لا دخول لها في الخلق ، كما لا يدخل سهيل في الشام ، فإن قيل فما يصنع بقوله تعالى : «كنت سمعه وبصره»[4] فقد دخل ، قلنا : «نعم ! ما قال كنتُ ذاته ، وإنما ذكر الصفة ، فيقول :

---

(١) البيتان لعمر بن أبي ربيعة قالهما لأبي الثريا محبوبته حين زوّجت رجلاً هو سهيل بن عبد العزيز بن مروان (الديوان ص ٤٨٣ ، والأغاني الجزء الأول والخبر مبسوط على صفحات هذا ولا تخفى التورية بالاسمين) .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى في سورة طه الآية رقم ١٠ : ﴿إني آنست ناراً لعلي آتيكم بقبس﴾ ، وكذلك في سورة النمل الآية رقم ٧ ، وفي سورة القصص الآية رقم ٢٩.

(٣) كذا وردا ولكنهما في الديوان والأغاني وغيرهما يختلفان في رواية البيت الثاني فلقد جاء كالتالي :

هي شـــآمـــيـــة إذا اســـتـــقلّت
وســـهـــيلٌ إذا اســـتـــقلّ يماني

وفعل استقلّ يعني ارتفع وعلا .

(٤) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث فلقد تكرر مراراً .

«بسمعي يسمع ، وببصري يبصر !» كما قال الشارع ، في الرفع من الركوع ، إن الله قال على لسان عبده : «سمع الله لمن حمده»[1] . ويكفي هذه الإشارة لأصحابنا ، بل للمتصفين من النظار .

وقال رضي الله عنه :

أيا روضـــة الوادي أجب ربة الحـــمـــا

وذات الثنايا الغـــر يا روضـــة الوادي

وظلّلْ عليـــهـــا من ظلالك ســـاعـــةً

قليـــلاً إلى أن يســـتـــقـــر بهـــا النادي

(الوادي) هو الوادي المقدس ، يريد مقام التقديس .

وكنىً (بالروضة) عن الشجرة التي ظهر النور فيها للمُكَلَّم موسى عليه السلام[2] .

(وربة الحمى) حقيقة موسى عليه السلام ، فهي إشارة للعارف إلى مرتبة موسوية ورثها منه .

و(الحمى) يريد مقام العزة التي تمنع ذاته من الوصول إليها .

وقوله (وذات الثنايا الغرّ)[3] إشارة إلى إشراق المباسم ، واختصَّها بالذكر ، لأنه مقام المناجاة والكلام ، محله الفم ، وهي صافية من الأقذاء والقلوح[4] ، يريد مقام الصفاء والطهارة .

---

(١) سبقت الإشارة ففيها أحاديث ، وعلى أي حال فهي عبارة تقال في الصلاة ، على أثر تسبيح الركوع والسجود مباشرة ، كما هو معروف .

(٢) انظر سورة طه الآية رقم ١٢ ، وسورة النازعات الآية رقم ١٩. هذا والوادي المقدس المشار إليه هو طوى وقد سبقت الإشارة إليه .

(٣) الثنايا جمع الثَّنية وهي الأسنان الأربع التي تكون في مقدم الفم ، ثنتان من فوق وثنتان من تحت .

(٤) كذا وأحسب أن المراد وهو صاف فالضمير عائد إلى الفم ، أما القلح فصفرة كريهة تعلو الأسنان ، وفي حديث أن النبي كان يبغضها في الداخلين عليه ويوصيهم بالسواك .

وقوله (أجب) فإن الحقيقة الموسوية كانت طالبة ناراً ، فلذا قيل أجب . ثم خاطب الروضة في البيت الثاني فقال :

(وظلل عليها من ظلالك
ساعةً قليلاً إلى أن يستقر بها النادي)

يقول لهذه الروضة : هذه ربة الحمى ! ظلل عليها من أفنان أغصان معارفك قد ما[1] يُظلُّ ما هو من جانبها ، أي أنه يخاطب من خارج ، بحكم الجهة ، إلى أن يقع الأنس بذلك ، ويتهيأ المحل للقبول ، فيقوم له النداء والخطاب من ذاته ، من غير نظر إلى الأعيان من خارج . واستقرار النادي بها ؛ ثبوتها في الطمأنينة بذلك .

وقد بيَّن ما ذكرناه في باقي القصيدة فقال :

وتنصبُ بالأجواز منك خيامها
فما شئت من طلٍّ غذاء لمنآد
وما شئت من وبل وما شئت من ندى
سحاب على بأناتها رائح غاد
وما شئت من ظل ظليلٍ ومن جنى
شهيّ لدى الجاني يميس بميَّاد
ومن ناشدٍ فيها زرود ورملها
ومن منشد حادٍ ومن منشد هاد

يقول : إذا ثبت في مقام الطمأنينة ، ضربت لها خيام أعمالها ، بالمقامات العظمى التي عبر عنها بالأجواز .

وقوله (فما شئت من طَلٍّ) يريد الشذا والندى ، والشذا هو ما نزل من الطل بالنهار ، والندى ما نزل من الطل بالليل ، وهو ما يتنزل عليه من أوائل المعارف ، بطريق

(١) كذا وأحسب أنه يريد (قدر ما) .

اللطف في غيابات الغيب والشهادة ، لأنه لا يُدْرَك نزوله بالحس ، متى يظهر ، في المحل ، منه القدر الذي يدركه الحس .

و(المنآد) الغصن الناعم . يقول : وفيه غذاء للنشأة الإنسانية ، التي خُلقت في أحسن تقويم[1] ، واختُصَّت بالحركة المستقيمة ، على سائر المولَّدَات .

وقوله (وما شئت من وبل) تَنَزُّلٌ أعظم ، فيه شفاء ، لأن فيه رائحة اشتقاق من الاستبلال ، الذي هو الشفاء ، فكأنهما معارف تزيل جهالات بوجودها . فإن المعارف قد تنزل على قلوب ساذجة ما فيها شيء أصلاً ، وقد تنزل على قلوب فيها تشكيك وتردد ، فذلك مرض ، وقد تنزل على قلوب فيها جهالات ، وهي مصممة عليها ، على أنها علوم ، فيبيِّنُ له هذا النزول حالَه فيرجع . وهذا لا يُسَمَّى مرضاً ، لأن من شرط المرض الإحساس به ، فيطلب به الدواء رغبة في الشفاء ، وهذا لا يكون في القلوب ، إلاَّ لأهل التشكيك والحيرة ، وأما المصمِّمُ على اعتقاده وشُبْهَته فلا يقال فيه صاحب مرض ، وإنما هو ميت ، فهذا التنزيل يحييه كما قال : ﴿أو من كان ميتاً﴾ يعني بالجهل ﴿فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾ الآية[2] .

وقوله (وما شئت من ندى) قوله : ﴿**يسبح له فيها بالغدو والآصال**﴾[3] فهذه تنزلات هذه الأعمال المخصوصة بهذه الأوقات ، لأنها أزمان نزول الندى ، وهو مقام الجود ، يمر به (سحاب) العناية .

(على باناتها) ، اختصر البان من غيره ، لما فيه من إشارة التنزيه والتفرقة والتمييز بين الحقائق ، وأيَّده بقوله (رائح) وهو الرجوع بالعشي ، و(الغادي) المبكر . يقول : إنه يذهب بكرة ويعود عشية إلى مأمنه غداً ، كما بينَّ الزمانين ، هو مقدار عمر السالك والحال والمقام ، ﴿**وإلى الله ترجع الأمور**﴾[4] ، وتصير الأمور إشارة إلى هذا المقام ، ﴿**وإليه يرجع**

(١) إشارة إلى سورة التين الآية رقم ٤ : ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ .
(٢) انظر سورة الأنعام ، الآية رقم ١٢٢.
(٣) انظر سورة النور ، الآية رقم ٣٦.
(٤) انظر سورة الحديد ، الآية رقم ٥.

الأمر كله﴾[1] فسُمِّيَ رجوعاً ، لكونه منه خرج وإليه يعود ، وفيما بين الخروج والعود ، وضعت الموازين ، ومدّ الصراط ، ووقعت الدواعي ، وظهرت الآفات ، وكانت الرسل ، وجاءت الأدواء ، فمنهم المستعمل لها ، والآخذ بها ، والتارك لها .

قوله (وما شئت من ظل ظليل) ، إذ ما كل ظلٍّ يكون ظليلاً لكل مُسْتَظِلّ بل لآحاد ، بقوله إلاّ صاحب هذا المقام المحمدي الموسوي ، فإنه يظله كل ظل ، فكلّ ظل فهو له ظليل ، لاستغراقه المقامات كلها ، ويظهر هذا في موزونات الأعمال ، بما لها من الثواب ، كما سبق بلال[2] النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، إلى جنة من داوم على الوضوء من كل حدث ، والصلاة عقيبه .

وقوله (وما شئت من جنى) وهو الاستثمار مما يتلقاه الملقَىَ إليه من الملقي ، كالمريد من شيخه وأستاذه ، وكالنبي من الملك ، وهكذا ما يُلقى يكون المتلقّى ، الذي هو العلم ، وما يحمله من المعارف كالثمر فيه ، والجاني هو المحصِّل لهذه الثمرات من هذه الأغصان ، بيد اللطف لا بيد القهر ، على طريق الإلفة ، لأنه قال (شهي عند الجاني) لأن فيه نيل الغرض .

وقوله (من ناشد) ، الناشدُ الطالبُ .

(زرود ورملها) يشير إلى المعارف الشوارد ، التي لا تنضبط للعالم ، إلاّ وقت الشهود خاصةً «ويقولون ثلاثة رابعهم كلبهم» وخمسة وسبعة ، ثم قال : ﴿ما يعلمهم إلاّ قليل﴾[3] ، وهم الخارجون من البشرية إلى عالم الأرواح واللطائف . وقد تقدم الإشارات (بالرمل) ما هي .

---

(١) انظر سورة هود ، الآية رقم ١٢٣.

(٢) هو الصحابي الجليل بلال بن رباح الحبشي وأول من رفع الأذان ولقّب بمؤذّن النبي ، كان عبداً فأفتكه أبو بكر الصديق وحرره ، ولقد توفي عام ٦٤١م . أما حديث سبقه الرسول فلقد أخرجه الهندي في كنز العمال ج١٢ ، عن أبي أسامه : «دخلت الجنة فسمعت خشخشة أمامي فقلت من هذا؟ قال أنا بلال . قلت بم سبقتني إلى الجنة؟ قال : ما أحثت إلا توضأت وما توضأت إلاّ رأيت أن لله عليّ ركعتين . قال : بها» (الحديث رقم ١٤١٠ وفي الرقم ين ١٤١٤ و١٤١٥ باختلاف في اللفظ يسير) .

(٣) انظر سورة الكهف ، الآية رقم ٢٣.

وقوله (ومن منشد حاد وهاد) ، الحادي هو الذي يسوق الركاب من خلف ، والهادي هو الذي يقودها من أمام ، فالسائق هو الإشارة للآتي بالزجر والتهديد والرهبوت ، فهو عبد القهار ، والهادي هو الإشارة للآتي بالرغبوت والإنس والملاطفة والوعد الجميل ، فهو عبد اللطيف . فإن الناس يوم القيامة الكبرى ، إنما هم عبيد الأسماء الحسنى الإلهية ، فمنهم عبدُ نعمة ، ومنهم عبدُ نقمة ، ومنهم عبدُ تنزي وتقديس وما أشبه ذلك .

يقول : فكأن هذه المقامات كلها ، حاصلة لمن نودي في هذه الروضة بالوادي المقدس . فتدبر ما أشير إليه تسعد إن شاء الله تعالى .

وقال رضي الله عنه :

عج بالركائب نحو برقة ثهمد[1]

حيث القضيب الرطب والروض الندي

حيث البروق بها تريك وميضها

حيث السحاب بها يروح ويغتدي

يقول للهادي : مل بالركائب ، والركائب هي الإبل ، وقد يعبَّر بالإبل عن السحاب ، كما ورد في تفسير قوله تعالى : ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾[2] قيل أراد السحاب ، وهي المرادة هنا في هذا البيت ، ويدل عليها قوله (برقة ثهمد) ، فجاء بالبرق ، وثهمد موضع باليمن على ما قيل . البرق أبداً عند صاحب هذا القول ، مشهد ذاتي يذهب بالأبصار ، لا يكاد يتحقق .

---

(١) برقة ثهمد ، اسم مكان جاءت شهرة من معلّقة الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد التي يفتتحها بالقول :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد

تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

(٢) انظر سورة الغاشية الآية ١٧ ، أما عن تفسير الإبل بالسحاب فلقد جاء في لسان العرب تحت مادة إبل : «قال أبو عمرو بن العلاء من قرأها ﴿أفلا ينظرون إلى الإبْل كيف خلقت﴾ «بالتخفيف يعني به البعير . . . ومن قرأها بالتثقيل الإبِلُ : السحاب التي تحمل ماء المطر» .

و(القضيب الرطب) نشأة الاعتدال في جميع الأشياء .

و(الروض الندي) هو المقام الذي يظهر فيه هذا النشء الاعتدالي .

و(الندي) إشارة إلى ما فيه من اللين والجود . ثم أكَّد انه أراد بالسحاب الركائب ، بقوله (حيث البروق بها تريك وميضها) أي تريك لمعاتها ، فيكون حجاباً عليها ، فكثير من الناس يزعمون أنهم يرون البرق ، وإنما يرون سنا البرق . وقد تقدم تفسير (حيث السحاب بها يروح ويغتدي) وقوله[1] : (سحاب على بأناتها رائح غادي) .

وارفع صويتك بالسحير منادياً
بالبيض والغيد الحسان الخرد

من كل فاتكة بطرف احور
من كل ثانية بجيد أغيد

يقول : (السُحير) ، لا يكون إلاَّ في مقام الخطاب بالحروف ، في عالم المواد من حضرة التمثيل والمثال ، وشرطه أن يكون له وجه إلى حضرة الأنوار ، ووجه إلى حضرة الظلم . وهي الحجابان اللذان يمنعان السبحات أن تحرق الكائنات . فإن السَحَر والسُدفة هو اختلاط الضوء والظلمة .

وأراد (برفع الصوت) هنا البيان بما هو المراد من هذا الخطاب ، هل الوجهين معاً أو وجه واحد؟

وقوله (منادياً) إعلام بالبعد .

و(البيض) كل حكمة إدريسية ، وردت خطاباً من السماء الرابعة ، يكون فيها من العلوم ما في الشمس من الحقائق التي أودع الله فيها .

و(البيض) جمع بيضاء ، وهو من أسماء الشمس .

---

(١) أحسب أن المراد «في قوله سحاب هو الإشارة إلى القصيدة السابقة والبيت التالي :

وما شئت من وبل وما شئت من ندى
سحاب على بأناتها رائح غاد

و(الغيد) الذي فيه ميل إلى عالم الكون بالإمداد ، أي كل حقيقة لها تعطف بالكون ، كالأسماء الإلهية .

و(الحسان) يعني من مقام المشاهدة والرؤية .

وقوله (الخرَّد) هم الذين عندهم الحياء . وقال عليه السلام : «الحياء من الإيمان»[1] ، فأراد أنه علم إيماني ، أي نتيجة الإيمان ، ما هو نتيجة الفكر . إذ نتيجة الفكر عن مقدمات كونية نازلة ، ونتيجة الإيمان هي وهب إلهي وكشف رباني ذاتي ، ولاسيما في هذا الموضع ، الذي قرنه مع الحسان ، وهو مقام المشاهدة .

ثم أخذ يصف أيضاً ، مراتب هذه العلوم التي استفادها في طريقة فقال (من كل فاتكة بطرف احور) ، من كل علم مشاهدة ، ورد على صاحب الخلوة ، فحال بينه وبين نَفسه ، فَغيبّه .

وجعل هذا الطرف الذي دل على المشاهدة (أحور) والحَوَر في العين ، الشديد شديد بياضه ، الشديد شديد سواده . يقول : خالص ما فيه شبهة ولا مزج ، فخلص لمن قام به ، وإن جعله من الرجوع ؛ من حار يحور فهو ميل إليه بضرب من المحبة والغنج لتقع به اللذة ، ويكون أمكن في العقل في قلب المشاهد ، وضرب آخر من العلوم في قوله (من كل ثانية) أي عاطفة . يقول : هذه المعرفة والحكمة لها عطف وحنان على من تعشَّق بها ، ولهذا أكده (بأغيد) وهو الميل ، وذكر (الجيد) وهو العنق وأراد به عالم النور ، وهو ما لهم في ذلك العالم من الطَوْل والفضل على الغير ، كما قال عليه السلام : «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»[2] ، أي لهم ظهور وتمييز على الناس يُعرفون به ، فإن العنق هو الذي كان محل مجرى النفس ، موضع التنفس إلى الفم في الآذان ، ففيه امتداد ، فلهذا نسب الطول وجعله أجراً له في ذلك المحل .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان والأدب ، وأخرجه مسلم في الإيمان ، وأخرجه الدارمي الإيمان وفي السنّة .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة والهندي في كنز العمال من طرق وبألفاظ مختلفة .

تهـــوى فـــتـــقـــصـــد كل قلب هائم
يهـــوى الحـــســـان براشقٍ ومـــهـــندِ
تعطو برخص كـــالـدمـــقس منعَّم
بالند والمسك الفـــتـــيق مـــقـــرمـــد

يقول : إن هذه الحكمة لما كانت عالية الأوج ، سامية المكانة ، وصفها بالهوى ، الذي هو النزول من أعلى إلى كل قلب متعلق هائمٍ ، أي حائر في طلبها ، لجهله بمكانها . ثم وصف هذا القلب ؛ بأنه يهوى الحسان ، وهي هذه الحكم التي ذكرناها من مقام المشاهدة .

وقوله (براشق) أي تقصده ، معناه ترميه براشق ؛ يريد سهم اللحظ .

و(مهند) من كونه سيفاً ، فتصيبه بالراشق ، وتقطعه عن غيرها بكونه سيفاً ، ونسبه إلى الهند موضع الحكم الأول لأنه محل مهبط آدم ، عليه السلام ، الذي كان ينبوع الحكمة . فأول موضع انفجرت فيه ينابيع الحكمة ، كان الهند على لسان آدم عليه السلام .

وقوله (تعطو برخص) يقول : تتناول بيد النعمة ، على هذا العبد ، والقبول والإشارة ، لمثل ما ورد في الخبر «إن الصدقة تقع بيد الرحمن فيربيها»[1] .

ثم وصف هذه اليد (بالدمقس) فهي منزَّهة عن الشوب بالألوان ، فإن الدمقس هو الحرير الذي ما تصبَّغ بلون غير لونه الذي خلق عليه ، فوصفها بالتنزيه ، ووصفها بالنعومة وهو اللين ، إشارة إلى يد العطف والحنان والرفق في التناول ، ثم نعتها بالطيب الخالص والمشوب بغيره وهو (الند) وجعلها ملطخة به ، فهي عبارة عن التخلُّق بالخلق الإلهية والأسماء الحسنى ، فإن الند أخلاط من الطيب ، فالتخلق بها في حق العبد .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة ، وأخرجه الترمذي أيضاً في الكتاب نفسه ، وقد ذكرها الشيخ في السفر الثامن من الفتوحات في الفقرة ٢٣٩.

والإشارة هنا (بمقرمد) أي هي موصوفة بهذه الأشياء المذكورة وكذلك هو ، قال الله تعالى : ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾[1] وهي في حق العبد تخلُّقٌ فاعلم ذلك .

ترنو إذا لحظت بمقلة شادن
يعزى لمقلتها سواد الإثمد[2]

يقول : رؤيتها رؤية من لا يحصل في اليد منه شيء ، ولكن بعين كحلاء ، أي تنظر في سواد ، وهو الغيب الذي لا يُدرك ما فيه إلاَّ هو سبحانه . وأراد بالملاحظة هنا ، ملاحظة من يدعو قلوب المحبين إلى حسن جماله ، فما أراد اللحظ المطلق ، فإنه لا يقع به والفائدة في العالم أصلاً ، وإنما الفائدة من جانب الحق لعباده ، بكل ما أعطى التقييد ، فإنه إذا تقيد وتعينت المرتبة ، وعرف الفرق بينه وبين من لم يحصل له هذا المقام .

وذكر (المقلة) دون اسم آخر من أسمائها ، لأن فيها معنى العوض ، وقد جاء في الحديث في الذباب ، إذا وقع في الطعام «أن يمقل»[3] أي يغمس كله ، «فإن في جناحيه الواحد داء وفي الآخر دواء من ذلك الداء» .

وقوله (يُعْزَى) ، يقول تُنْسَب الأشياء إليها ، ما تنسب هي إلى شيء ، فإن الأشياء متعلقة بها .

بالغنج والسحر القتول مكحل
بالتيه والحسن البديع مقلد
هيفاء ما تهوى الذي أهوى ولا
تفِ للذي وعدت بصدق الموعد

(١) انظر سورة الأعراف ، الآية رقم ١٨٠.
(٢) الإثمد حجر يكتحل به .
(٣) أخرجه الأخوان مرعشلي في موسوعة الحديث ، ج٣ ، الحديث رقم ١٧٣٦.

يقول : إذا تجسدت المعاني في عالم المثال ، وظهرت صوراً في الجسم المشترك ، كما أخبر عليه السلام : من أن «الزهراوين البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة لهما لسانان وشفتان يشهدان لمن قرأهما»[1] ومعلوم حقيقة الكلام ، وأنه معنى من المعاني ، جثمانياً كان أو غير جثماني ، وكالذين في صورة القيد والعلم ، في صورة اللبن والإنسان في صورة العمد ، فيقع النعت من الناعت ، والوصف من الواصف ، لهذا المعنى على هذه الصورة ، التي يظهر فيها له في عالم المثال ، فيوصف بما توصف به الصورة التي يتجلى فيها ، ولما كان الغنج فتوراً في العين ، وتوصف العين بالسحر ، لأنها تحول بين المرء وقلبه ؛ فكل علم حال بينك وبين ذاتك ، من جهة الجمال في رحمة إلقاء ونزول الطاف ، فيشار بهذه الصفة إليه ، إذا جعلها تجلية في صورة عين .

وقوله (بالتيه) ومعناه الحيرة ، أي عند وصفة تبحر الناظر فيه عن إدراك حقيقته ، والحسن البديع يزيد الجمال ، وهو بديع عندنا لا في نفسه ، كما قال تعالى : ﴿**ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث**﴾[2] ، يعني عندنا لا في نفسه ، فهو محدث النسبة لا محدث العين ، وكنىً عنه بالإبداع ، أي لم يظهر على مثال سبق .

وقوله (مقلد) يعم الجنبين ، وهما العطفان ؛ عطف اليمين باليمين واليسار باليسار ، كتقليد السيف والقلادة ، ومروره على الصدر والقلب ، فيعطى من أسرارهما ما يختص بها ذلك الموطنان ، وكان فيه اعتصام ، فإنه قد عمَّ الجنبين والظهر والصدر ، ولا يؤتى على الإنسان إلا من هذه الجهات الأربع ، وهو الذي قال إبليس ، حسبما أخبر الله تعالى به عنه : ﴿**ثم لآتينَّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم**﴾[3] ، فهذا هو تقليد العصمة ، لأن الحسن البديع مُشغِلٌ للناظر فيه عن نفسه وعن سواه ، فيعتصم بلا شك .

(١) أخرجه مسلم في المسافرين .
(٢) انظر سورة الأنبياء ، الآية رقم ٢.
(٣) انظر سورة الأعراف ، الآية رقم ١٧.

وقوله (ما تهوى الذي أهوى) ، يقول : لا تتقيد بإرادة أحد ، لنزاهتها ، وعلو مجدها ومكانتها ، فإن اتفقت الإرادات مني ومنها ، فمن حيث أثرها فيَّ ، لا من حيث أثري فيها .

وقوله (ولا تف للذي وعدت بصدق الموعد) ، يصفها بالعفو والكرم والتجاوز ، فإن الوعد هنا يريد به الوعيد بالشرِّ ، فإن العرب تقول وعدته في الخير والشر ، ولا تقول أوعدته إلاَّ في الشر خاصةً ، فأراد بالوعد هنا الشرَّ ، والكريم يوصف بالوفاء والخير وخُلف الوعد بالشر ، للتجاوز والعفو ، كما قال :

وإني إذا أوعدته أو وعدته
لمخلف إيعادي ومنجز موعودي[1]

فمدح نفسه بالعفو والتجاوز ، وذلك من الكرم العميم والفضل الجسيم .

سحبت غديرتها شجاعاً أسودا
لتخيف من يقفو بذاك الأسود[2]

والله ما خفت المنون وإنما
خوفي أموت فلا أراها في غد

يقول بلسان الأدب : إن هذه الجارية أرسلت ضفيرة شعرها خلفها مثل الحية ، لتخيف بذلك من يقفو أثرها . فقال هذا المحب : ما خفت من الموت ! وإنما أكره الموت من أجل إن أمت لا أراها . القصد من ذلك في باب المعرفة ، يقول : إن هذه المعرفة

(١) البيت لعامر بن الطفيل ، وهو من بني عامر بن صعصعة ، فارس وشاعر وأحد فتّاك العرب وساداتهم ، أدرك الإسلام شيخاً وتوفي سنة ٦٣٢م . أما البيت فكالتالي :
إنّي إن أوعدته أو وعدته
لأخلف إيعادي وأنجز موعدي
انظر للمزيد : الشعر والشعراء لابن قتيبة ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وثمار القلوب للثعالبي ، وخزانة الأدب للبغدادي . .الخ .

(٢) الشجاع هو حيّة عظيمة ضخمة الرأس دقيقة العنق ، وأما الأسود فهو هنا صفة للشجاع بيد أنه يعني أيضاً كل عظيم من الحيّات .

أرسلت غديرتها ، يعني الدلائل والبراهين ، وشبهها بالضفيرة لتداخل المقدمات بعضها في بعض كتداخل الضفيرة ، وجعلها سوداء إشارة إلى عالم الجلال والهيبة ، فيخاف السالك أن تحرقه سطوات أنوار الهيبة ، فيتوقف . ثم نبَّه في البيت الثاني بقوله وما خوفي من الموت وإنما خوفي أن يفوتني ما بعده ، من المشاهدة المتعلقة بهذه النكتة المُتَعزَّل فيها ، فتوقفت حتى احصل من القوى الإلهية والبواعث الربانية ، ما أقابل به هذا التجلي الجلالي .

وقال رضي الله عنه :

سحيراً أناخوا بوادي العقيق
وقد قطعوا كل فجٍ عميق[1]
فما طلع الفجر الاَّ وقد
رأوا علماً لا يخافون نيق

يقول : إن أهل هذه المعرفة لما دلجوا في معارجهم ، وسروا لنيل مقاصدهم ، وقطعوا كل مسلك بعيد في نفوسهم ، بالسفر البعيد الذي ندبهم الحق إليه ، وأمرهم في قوله : ﴿**ففرّوا إلى الله**﴾[2] ، وذمّ من يتربص عن هذا السفر بقوله : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم) ، الآية إلى قوله تعالى : ﴿**أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا**﴾[3] ، فجعل البركة في الحركة منه واليه . نزلوا في السحر ، نزول المسافر إذا أدلج ليستريح ، وتسمى تلك «النومة العسلية» لما فيها من اللذة ، فهو نزولهم

(١) العقيق واد جميل ومتنزّه قرب المدينة المنورة ، ولطالما ذكره الشعراء الغزلون بخاصة في شعرهم ، فلقد كان القوم رجالاً ونساء يرتادونه حين يسيل ماؤه للنزهة والتفرّج ما أدى إلى نشوء الكثير من حكايات الهوى هناك . أما الفج فهو الطريق الواسع بين جبلين ، واللفظ مع صفته ورد في سورة الحج الآية رقم ٢٧ : ﴿وعلى كل ضامر يأتين من كل فجٍ عميق﴾ .

(٢) انظر سورة الذاريات ، الآية رقم ٥٠.

(٣) انظر سورة التوبة الآية رقم ٢٤ ، وتمامها : ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ .

للاستراحة ، في آخر طريق معرفة ما أودع الله في ليل هياكلهم من الحكمة المتعلقة بالحقائق الإلهية ، وجعل السَحَرَ موضع الفصل بين هذه الحقائق الليلية الهيكلية ، وبين حقائق الأرواح النُورية ، المعبَّر عنها بالملأ الأعلى . فأناخوا في هذا المقام ، وهذا يسمى الوقوف ، ولم يسلك سلوكاً آخر لتحصيل فوائد آخر ، فإن الله قال لنبيه عليه السلام : ﴿وقل ربّ زدني علماً﴾[1] وجعل الإناخة بمطايا الهم في وادي العقيق ، الذي هو موضع الإحرام بالحج والعمرة ، فجعله مناخ حرمة محمدية ، لأنه ميقات أهل المدينة ، الذين نبه عليهم بلسان الإشارة ، أن لا نهاية لما يطلبون ، فليرجعوا ! فإن رجوعهم سفر لاقتناص علوم لم ينالوها في العروج ، فما لهم غاية يقفون عندها ، وللتنبيه في ذلك ، بهم قوله تعالى : ﴿يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا﴾[2] .

وأهل يثرب هم المحمديون من العارفين ، ولكن من باب الإشارة بالآية ، لا من باب النص والتفسير ، فلا تغلط فيما أشرنا إليه في ذلك .

ثم قال : لما أخذوا تلك الراحة في السحر ، طلع الفجر ، أي ظهر الأمن من عالم الأمر الناظري ، ولكن ظهور علم من ذلك أي إشارة دليل ، ولكن في محل النفع والرفعة ، وهو (النيق) . يقول : فما ظهر لي في عالم الأمر لنفسه ، وإنما لاح لي علماً ، أي دليلاً على ما يناسب ذلك الإبداع اللطيف من الحقائق الإلهية ، والجبل المذكور هنا في هذا البيت ، الذي هو العلم عليه ، وهو الجسم ، وذلك هو الروح . أي ظهر له في عالم الأمر من نفسه ، فإنه أتمَّ في المعرفة .

إذا رامه النسر لم يستطع
فمن دونه كان بيض الأنوق
عليه زخارف منقوشةٌ
رفيع القواعد مثل العقوق

(١) انظر سورة طه ، الآية رقم ١١٤.
(٢) انظر سورة الأحزاب ، الآية رقم ١٣.

يقول : (الأنوق)[1] الرخم .

(والعقوق)[2] ، قيل ، هو قصر عظيم فوق جبل عال ، وقيل غير ذلك .

وقوله (إذا رامه النسر لم يستطع) إشارة إلى الروح البرزخي ، الذي هو أقرب إلى الملأ الأعلى من غيره من الأرواح المدبرة .

يقول : هذا العلم الذي لاح له ، لا يستطيع الرقيّ إليه هذا الروح المكنى عنه بالنسر . والأنوق لما لم يكن في الطير من يفرخ في موضع أعلى منه ولا أحمى ، خوفاً على بيضه ، كانت العرب تضرب به الأمثال في كلامها ، لعلوّه وارتفاعه ، وكنى عنه بالبيض أي صفة النتاج التي تكون عنه هذه الأرواح البرزخية .

ثم وصف العلم بأن عليه (زخارف منقوشة) ، يريد بها التجلي بالخلق الإلهية ، ومنقوشة ثابتة ، وشبهه بالعقوق ، لارتفاعه وعلوه .

وقد كتبوا أسطراً أودعوها
ألا من لصبٍّ غريب مَشُوق
له همة فوق هذا السماك
ويوطأ بالخف وطء الحريق
ومسكنه عند هذا العقاب
وقد مات في الدمع موت الغريق

شرحه بلسان الأدب ، يقول هذا العاشق : إن همته على علوها ، أُنزلَ عن[3] الحب عليه ، وسلطانه عليه ، من الذلّ ، أن يوطأ بالخف . ثم تغالى في ذكر كثرة دموعه أنه مات غريقاً فيها ، مع سكناه في هذا الموضع .

(١) الأنوق طائر أبقع من فصيلة النسريات وهو أقرب إلى الرخمة منه إلى العقاب ، وبيضه يضرب به المثل في الندرة والصعب من الأمور فيقال «أعزّ من بيض الأنوق» .
(٢) لم أجده في ما بين يديّ من مظان .
(٣) كذا وأحسب أن المراد (من) .

المقصد :

يقول : (وقد كتبوا أسطراً أودعوها) يريد الكتابة الإلهية ، من ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾[١] بكم ، في مقام العزة الأحمى .

وقوله (ألا من لصبٍّ) ، يريد مائل إلينا بالمحبة ، غريب ، من قوله عليه السلام : «فطوبى للغرباء من أمتي»[٢] . والغربة مفارقة الوطن ، ووطن الكون عبارة عن وجوده لربه ، وغربته نزوحه عنه إلى وجوده لنفسه ، مع مفارقة العين ، لا بد من ذلك .

وقد أشرنا في المفاريد[٣] لنا ، في هذا المعنى بقولنا :

إذا مـــا بدا الكون الغـــريب لناظري
حننت إلى الأوطان حنّ الركـــائب

وقوله (مشوق) طالباً للقاء المحبوب ، بضرب من الهيجان .

وقوله (له همة فوق هذا السماك)[٤] ، يقول : إن همته فوق الكون ، أي لا تعلُّقَ لها به ، ولكنه مع هذا يوطأ الخفَّ ، إشارة إلى ما نُدب إليه من التواضع طلباً للرفعة ، في قوله عليه السلام ؛ أي «من تواضع لله» أي من أجل الله «رفعه الله»[٥] .

وقوله (ومسكنه فوق هذا العقاب) البيت[٦] .

---

(١) انظر سورة الأنعام الآية رقم ٥٤ : ﴿فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ ، وانظر أيضاً في السورة نفسها الآية رقم ١٢ : ﴿قل لمن ما في السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنّكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ .

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان ، وابن ماجه في الفتن ، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، وأخرجه الهندي في كنز العمال تحت الرقم ١١٩٩ عن سهل بن سعد عن النبي أنه قال : «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء ، قالوا يا رسول الله وما الغرباء ، قال الذين يصلحون عند فساد الناس» ، وأخرجه باختلاف تحت الرقم ١٢٠٢.

(٣) أحسبه يريد بهذا اللفظ الأبيات الشعرية المفردة ، وأما البيت الذي استظهره فلم أجده في ديوانه .

(٤) السماك هو أحد السماكين وهما نجمان نيّران ، أحدهما السماك الأعزل وهو ساق الأسد أو السنبلة ، والآخر هو السماك الرامح وهو نيِّر العواء أو البقار .

(٥) أخرجه مسلم ، وأخرجه ابن حنبل في صيغ تختلف لفظاً ثلاث مرات ، وأخرجه الهندي في كنز العمال من طرق وبألفاظ مختلفة .

(٦) هكذا استظهر البيت غير أنه في المتن أعلاه ورد بلفظ «ومسكنه» عند «وليس» فوق» .

يقول وإن كان محله في هذا الوقت من الرفعة ، بمثل ما وقعت به الكناية في عالم الأجسام ، فإن المعارف المشهدية من باب الحب ، قد طمى سيلها حتى غطى هذا المقام الأحمى ، على رفعته ، عن هذا المقيم فيه ، وأفناه عن مشاهدة نفسه بهذا المشهد ، فكنىً عنه بالغرق والموت .

قد أسلمه الحب للحادثات

بهذا المكان بغير شفيق

يقول : قد أسلمه مقام الصفاء للحادثات ، فإن البلاء إنما يَرِدُ على الأمثل فالأمثل . وقوله (بهذا المقام)[1] ، يعني المقام الذي تقدم ذكره .

وقوله (بغير شفيق) أي ما له مؤنس هناك ، إلاّ عارف مُبْتَلى مثله ، فشغله بنفسه لسروره بذلك ، أو صبره يحول بينه وبين رؤية غيره ، بحكم الشفقة أو شبهها .

ثم قال :

فيا واردين مياه القليب

ويا ساكنين بوادي العقيق

ويا طالباً طيبة زائراً[2]

ويا سالكين بهذا الطريق

يقول : يا أهل الحياة المنشأة من الأعمال ! يريد حياة العلم ، من قوله تعالى : ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾[3] ، وقال : ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾[4] وجعله مكتسباً ، من أجل أنه نسبة للقليب ، وهو البئر ، وللإنسان فيه تعمُّلٌ وهو حَفرُه لاستخراج الماء . ثم خاطب القطّان بوادي العقيق ، وهم الذين اكتسبوا العلم من

(١) هكذا استظهر البيت غير أنه في المتن أعلاه ورد بلفظ «المكان» لا «المقام» .
(٢) هي طيبة وطابة ومدينة النبي والمدينة المنورة ودار الهجرة وهي يثرب قبل هجرة النبي والمسلمين إليها .
(٣) انظر سورة الأنعام ، الآية رقم ١٢٢.
(٤) انظر سورة الأنبياء ، الآية رقم ٣٠.

الحرمة التي قامت للحق بقلوبهم ، وأشار إلى (الوادي) لأمرين : لانخفاضه ، يريد التواضع ، ولأنه مسيل الماء ، فهو مسيل الحياة العلمية . وإنما قلنا لا ميقات المحرمين بالحج والعمرة[1] . ثم خاطب طلاب المقامات اليثربية باسم طيبة ، من طاب يطيب ، وقوله طوبى لهم هو من ذلك .

وقوله (زائراً) أي مائلاً إليها ، لعلمه بشرفها على غيرها ، لأنه الميراث الأكمل .

ثم خاطب السالكين ، وهم أهل السلوك بهذا الطريق ، يريد الصراط المستقيم ، الذي قال فيه تعالى : ﴿**وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل**﴾[2] ، فخاطب أربعة أصناف من الخلق ، لأرفع مقامات ، فقال لهم :

أفيقوا علينا فإنّا رُزئنا

بعيد السحير قبيل الشروق

يقول : لا تشغلكم أحوالكم التي أضعفتكم وأفنتكم ، عن أن تفيقوا للنظر من حالنا ، لتعلقنا بكم ، وطلبنا المعونة ، على ما نحن بصدده ، بهمتكم ودعائكم .وقوله (فإنّا زرئنا) من الزرية[3] . يقول : أُخذْنا عنّا ، ولم نصل إليه وصول من حصل بيده المكانة لعزته .

وقوله (بعيد السحير قبيل الشروق) وهو زمان العروج ، من النزول الإلهي إلى سماء الدنيا ، في الثلث الأخير من الليل ، في طلوع الفجر .

يقول : انقضى الوقت ، ولم نحصل على المطلوب ، وجعل ذلك زرية[4] ، فقال :

ببيضاء غيداء بهتانة

تضوع نشراً كمسك فتيق

(١) لم يستقم لي فهم هذه العبارة وقد لكتها مراراً ولا أدري ماذا أصنع بها سوى القول لعل المراد «ولا نعني مقيات المحرمين . .الخ» .

(٢) انظر سورة الأنعام ، الآية رقم ١٥٣.

(٣) كذا وأحسب أن المراد «الرزية ، فالرزية والرزيئة المصيبة العظيمة» .

(٤) انظر الحاشية السابقة .

يقول :

زرتنا[1] بفقد (بيضاء) ، أي فيها شك ، يريد هذه الصفة الذاتية ، التي هي مطلوبة . وقوله (غيداء) ، يقول : مع كونها جليلة القدر ، لها ميل إلينا ، وهو النزول الذي ذكرناه ، ومع هذا فلا نحصل منه ما يضبطه علم أو عقل أو وهم وخيال .

و(البهتانة) الطيبة الريح .

يقول : إن لهذه الصفة في قلوبنا طِيباً ونَشْراً .

يقول : وإن لم نشهد ذاتها ، فإن لنا منها ، ما لنا من المسك رائحةً ، وإن لم نشهد عينه ، وهي هذه الآثار الإلهية ، التي في قلوب العباد ، غير أن كل واحد ليس له مَشَمٌّ لإدراك ما هي عليه من العطرية والنشر الطيب . وشبهها (بالمسك) لأنه أطيب الطيب ، ولاسيما إذا كان مفتتاً ، فهو أطيب وأليق بالمشامّ الإنسانية ، ولو كان ثمَّ ما هو أطيب من ذلك[2] الرائحة أوقع التشبيه به .

فقال :

تمايل سكرى كمثل الغصون
ثنتها الرياح كمثل الشقيق

يقول : (تمايل سكرى) أراد تتمايل ، وهو النزول كما ذكرناه . وقوله (سكرى) يشير إلى مقام الحيرة ، لأن السكران حيران ، فإن الميل إلينا لا يكون إلاّ بقدر ما يقع به التفهم عندنا مما يناسب ، كأحاديث الضحك والفرح والتبشيش وما أشبه ذلك . وقوله (كمثل الغصون) لأنها محل الثمر ، أي ميلها للإفادة ! .

وقوله (ثنتها الرياح) أي أمالتها الهمم بطلبها إياها ، فإنه تعالى يقول : ﴿ادعوني استجب لكم﴾[3] و«من تقرب إليَّ شبراً تقربت منه ذراعاً»[4] . فقُربُك شبراً ، أدَّى

(١) كذا والصواب رزقنا .

(٢) كذا والصواب «تلك الرائحة» .

(٣) انظر سورة غافر ، الآية رقم ٦٠.

(٤) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث بتمامه فلقد تكرر .

تقريبه إليك ذراعاً ، شبراً لشبر جزاء ، وللشبر الآخر جزاء ، والشبر الآخر الزائد للمنة الإلهية ، والفضل الخارج عن الكسب .

وقوله (كمثل الشقيق) وهو الحرير الخام الذي لم تدخله صنعة الآدمي ، يقول أي إنها على ما هي عليه .

بردفٍ مهولٍ كدعص النقا
ترجرج مثل سنام الفنيق[1]

يشير إلى ما أردفه من النعم المعنوية وغير المعنوية على عباده .

وقوله (مهول) فمن فكّر في ذلك ، عَظُمَ عليه وهاله ما أردفه سبحانه من جسيم منته التي لا طاقة للعبد على القيام بشكرها ، وشبهها بكثيب الرمل لارتكاب بعضها على بعض ، وتصرفها وكثرتها ، وتمييز بعضها من بعض ، كما تنفصل دقيقة الرمل من الرمل ، أي لا تمزج فتختلط فلا تعرف . ثم شبه حركتها في قلوب العارفين بها ، مثل سنام الجمل العظيم في الرفعة والسمن ، فإنه دهن كله ، والدهن ممد الأنوار للبقاء ، فكذلك هذه العلوم إذا قامت بقلوب من قامت بها ، أورثتها البقا الأبدي في النعيم الأبدي .

فما لامني في هواها عذول
ولا لامني في هواها صديقي

يقول : لاتساعها لا تتعلق غيرة العباد بها ، لأنها مع كل أحد كالشمس ، لو اتفق أن تهواها القلوب ، لقطعت يأسها من حماسة ذاتها ، لنزاهتها وعلوها عن مقام مجيئها ، ولنالت منها مقصودها ، بمجرد النظر على الانفراد ، لأنها مُتخيَّلة لكل عين ، فلهذا لا تصحُّ الغيرة على محبوب بهذه الصفة ، فإن المصلّي يناجي ربه ، وكل شخص في رؤيته على انفراده ، يناجي ربه بقلبه ، فلا يقع في ذلك ازدحام ، فلا غيرة ، فلا[2] لوم من عاذل ، ولا من صديق أصلاً .

(١) الدعص كثيب الرمل المجتمع ، والنقا . . . وأما الفنيق فهو الفحل الذي لم يُركب ولم يؤذ لكرامته .
(٢) كذا وأحسب المراد «ولا» بدل فلا .

ولو لامني في هواها عذول
لكان جوابي إليه شهيقي

يقول : ولو تصوّر اللوم من أحد إليَّ في حبي إياها ، لكان جوابي الإعلان بالبكاء والزفير ! يريد أن الحال مني محبة بأني لا اسمع عذلك فيما جئت به .

ثم قال :

فشوقي ركابي وحزني لباسي
ووجدي صبوحي ودمعي غبوقي[1]

يقول : (فشوقي ركابي) إليها ، وهو الذي ينزلني عليها . يقول الحق تعالى : «أين المشتاقون إليَّ أنزههم في وجهي وأرفع لهم الحجاب عني حتى يروني»[2] فطوبى لهم ثم طوبى ! ما أحسن تلك المناظر العلى ، بالمقام الأجلي ، والمكانة الزلفى .

ثم قال : إن (وجدي) به غذائي الذي هو سبب حياتي . والصبوح شرب الغداة والغبوق شرب العشي ﴿**ولهم رزقهم بكرة وعشيا**﴾[3] ، كما للمحجوبين ﴿**النار يعرضون عليها غدواً وعشيا**﴾[4] .

قال : وأنشدني بعض الفقراء بيتاً لا يُعرف له أخاً وهو :

كل الذي يرجو نوالك أُمْطروا
ما كان برقك خُلّباً إلاَّ معي[5]

قال فأعجبني وقفوت معناه ، فعملت أبياتاً في هذا الرويّ ، وضمنتها هذا البيت بكماله ، إجابة لذلك الفقير رحمه الله فقلت :

---

(١) الصبوح ما يشرب ويؤكل في الصباح ، والغبوق ما يشرب في العشيّ .

(٢) جاء في اللمع في تخريج الحديث رقم ٥٣ : «اشتاقت الجنة إلى ثلاثة : إلى علي وعمار وسلمان رض عنهم أجمعين» ، أما الحديث كما ورد أعلاه وبلفظه فلم أهتد إلى مصدره .

(٣) انظر سورة مريم الآية رقم ٦٢ ، وصواب الآية : ﴿**لا يسمعون فيها لغواً إلاّ سلاماً ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيّا**﴾ .

(٤) انظر سورة غافر ، الآية رقم ٤٦ .

(٥) الخلّب من البرق لا يعقبه مطر ، ويضرب مثلاً على الرجاء الخائب والوعود التي لا تُنجز .

قفْ بالطلول الدارسات بلعلع[1]

واندب أحبتنا بذاك البلقع

(الطلول) أثر منازل الأسماء الإلهية بقلوب العارفين هنا .

و(الدارسات) المتغيرةً بالأحوال ، لانتقالها من حال إلى حال ، بسبب تولعها .

و(اندب) ، يقول : وابك أحبتنا ، يعني الأسماء الإلهية .

(بذلك البلقع) ، يعني قلبه المنعوت بالتجريد ، وإفراغها من السكان الذين كانوا عمروها ، وهي الخواطر الإلهية والملكية خاصة .

قفْ بالديار وناجها متعجباً

منها بحسن تلطفٍ بتفجع

يشير (بالديار) إلى المقامات .

وقوله (نادها متعجباً) ، لعدم النازل فيها ، مع ما يراه من حسنها وبهائها .

وقوله (بحسن تلطف ، بتفجع) يقول : يستنزلها فيها ، مع مقام اللطف ، بحال المكلف بها ، الحزن لها ، لما هي عليه من عدم النازل .

ثم أخذ يذكر ما قال لها :

عهدي بمثلي عند بأنك قاطفاً

ثمر الخدود وورد روضٍ أينع

يقول : كم شهدت من محب مشتاق بروضك ، يقطف من ثمار معارف القيومية ، يعني التخلق بها ؛ فإن أصحابنا اختلفوا في التخلق بالقيومية ، ومذهبنا التخلق بها . ومذهب ابن جنيد[2] القبر كفني ، واتباعه لا يصح التخلق بها .

---

(١) لعلع موضع أو جبل بظهر الكوفة قريب من العذيب ، وقيل هو ببطن فلج ، وقيل من الجزيرة وقيل في ديار بني ضبّة أ .هـ (عن الحميري) .

(٢) مرّ التعريف بالجنيد .

وقوله (وورد روض أينع) ما تحمله الوجنات من الحمرة ، يشير إلى مقام الحياء . وقوله (أينع) ، يريد أنه نتيجة مراقبة ومشاهدة ، طرا بطروها ، كما قال الجناب الإلهي : ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾[1] ، أي عندنا لطروه في وقت نزوله ، وإن كان قبل ذلك موجوداً ، لكن ليس عندنا . ثم ذكر البيت الذي ضمَّنه في هذه القصيدة :

«كل الذي يرجو نوالك أمطروا
ما كان برقك خُلَّباً الأمعي»

يقول : كل من طلب منك أمراً ناله غيري ولذلك[2] لعدم العناية ، وفيه أيضاً إشارة في حق نفسه ، إلى مقام عال ناله لم ينله أحد غيره من أمثاله ، لأن البرق مشهد ذاتي ، فإذا أمطر ، فهو ما يحصل فيّ قلب المشاهد من المعارف التي تثمر ، فنبَّه على أنه مشهد ذاتي في حجاب ممثل ، كما قال في حقّ جبريل عليه السلام : ﴿فتمثل لها بشراً سويًّا﴾[3] ، فأفادها عيسى بهذا التمثُّل ، كما أفادها ولاءٌ بالمطر ، في المشهد البرقي ، فنونَ المعارف ، إلاَّ أنا ، يقول ، فإن برقَك خلَّب ، أي ليس يتحصل من هذا المشهد الذاتي ، علمٌ في نفس المشاهد ، لأنه تجلَّى في غير صورة مادية ، فلم يكن للخيال ما يضبطه به ، فلم يكن للعقل ما يعقله ، إذ لا يدخل تحت كيف ولا كمٌّ ولا حال ولا نعت ولا وصف ، لكنه في المقام الأول أليق بالعاشق ، والمقام الثانيّ أتم للعارف .

ثم أخذ ينبه على شرح المقام الأول ؛ أن التجلي إنما كان في الحجاب الممثل ، فقال :

قالت نعم قد كان ذاك الملتقى
في ظلّ أفنانيّ بأخصب موضع
إذ كان برقي من بروق مباسم
واليوم برقي لمع هذا اليرمع[4]

(١) انظر سورة الأنبياء ، الآية رقم ٢.
(٢) كذا وأحسب أن الصواب «وذلك» .
(٣) انظر سورة مريم ، الآية رقم ١٧.
(٤) حصىً بيضٌ تلمع إذا فُتّت .

يقول : قد قالت له هذه الصفة التي تجلت له ، صَدَقْتَ ! قد كان ذاك الملتقى مع المحبين من أمثالك وأشباهك ، في ظلّ أفناني ، أي في رحمة عواطفي ، بأكثر علم نافع ، بمقام تشبيه ، وإن كان قدسياً ، إذ كان برقي يقول : إذا كان التجلي منيٌ في صورة مثالية حسنة جميلة ، من مقام الابتهاج والسرور ، بظهور المباسم ، التي عنها ظهر هذا التجلي ، فهو سبحاتها ، دائماً معك ! فالتجلي في صورة جمادية ؛ فإن اليرمع حجارة برّاقة ، وهي في العادة غير معشوقة .

يقول : فتجلّت لك في مقام لا يتقيَّد بالمحبة والعشق ، لأنه لا صورة له .

فاعتب زماناً ما لنا من حيلة
في دفعه ما ذنب منزل لعلع

يقول : لا عتب إلا على الزمان ، يعني الحركات الفلكية ، الجارية بفراق الأحباب ؛ يشير إلى قوله تعالى : ﴿ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العمر﴾[1] ، وهو الهرم الكائن عن مرور الأزمان ﴿لكيلا يعلم من بعد علم شيئا﴾[2] ، وهو فراق الأحبة ، أي أن المعارف محبوبة له ، وقد حال بينه وبينها كرور الأدوار ، فلا ذنب للمحل ، وإنما هو الذي أخلقه بعد جدته .

فعذرتها لما سمعت كلامها
تشكو كما أشكو بقلب موجع

يريد قوله تعالى على لسان نبيه : «ما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأنا اكره مساءته ولا بد له من لقائي»[3] ، يريد أن ما سبق بكونه العلم ولا بد من كونه ، فتفطّن لما أشرنا !

ولنا في هذا المعنى :

(١) انظر سورة النحل الآية رقم ٧٠ ، وكذلك سورة الحج الآية رقم ٥.
(٢) انظر الإشارة السابقة .
(٣) سبق تخريج هذا الحديث .

«يحن الحبيب إلى رؤيتي[1]
وإني إليه أشدُّ حنينا
وتهوى النفوس ويأبى القضاء
فأشكو الأنين ويشكو الأنينا»
وسألتها لما رأيت ربوعها
مسرى الرياح الذاريات الأربع

يقول : وسألتها لما رأيت ربوعها ، يعني المحلَّ ، تخترقه الأهواء الأربعة ؛ الجنوب والشمال والصبا والدبور ، ويشير إلى ما يأتيه من الأهواء : ﴿**من بين أيديهم ومن خلفهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم**﴾[2] يريد عالم الأنفاس والأرواح ، التي تنسَّمَت من هذه الجهات ، من منازل الأسماء الإلهية .

هل أخبرتك رياحهم بمقيلهم
قالت نعم قالوا بذات الأجرع[3]
حيث الخيام البيض تشرق للذي
تحويه من تلك الشموس الطلّع

يقول : هل أخبرتك هذه النسمات الإلهية؟ حيث قالوا ، يشير إلى مشهد قوله عليه السلام : «ترون ربكم كما ترون الشمس بالظهيرة»[4] ، وهو وقت القيلولة ، ويؤيد ذلك قوله (قالوا بذات الأجرع) ، أي لما فيه من تجريع الغصص ، بقوة سلطانه على المحل ، فيلجون خوف الاحتراق من سبحات الأنوار إلى الخيام البيض ، يريد الحجب النوارنية التي على السبحات الوجهية .

(١) لم أعثر على هذين البيتين في ديوانه .
(٢) انظر سورة الأعراف ، الآية رقم ١٧.
(٣) يعرف مراصد الاطلاع للبغدادي الأجرعين وأنه بلفظ التثنية وأنه موضع باليمامة ، وأما الحميري فلا يذكر شيئاً في الروض المعطار .
(٤) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث فلقد تكرر مراراً .

قال : وأنوار هذه الخيام ليست منها ، وإنما هو مما تحته من شموس المعارف بأفاق قلوبهم ، فمن ذلك إشراقها وبياضها .

وقال رضي الله عنه :

واحـــربا من كـــبـــدي واحـــربا

واطـــربـــا مـــن خَـــلَـــدي واطـــربـــا

في كـــبـــدي نار جـــوى مـــحـــرقـــة

في خـلدي بدر دجى قـــد غـــربا

لما كان الخَلَد محل شاهد الحق القائم به ، قال : واطربا لسروره بما شاهدته[1] ، وبيَّن البيت الثاني ذلك ، لأنه مُفَسِّرٌ له ، فقال (في كبدي نار جوى محرقة) يشير به إلى الاصطلام[2] ، والحَرب الذي يشكو منه ، هو خوف التلف على نفسه بفساد هذا الهيكل ، الذي بواسطته ، اكتسب العلوم الإلهية ، وان كان أكثر النفوس تطلب التجرد منه ، والالتحاق بعالمها البسيط ، ولكن ، عند المحققين ، إنما تطلب التجرد عنه حالاً ، وفناءً ، لانفصال علاقة لما لها بوجوده ، من المزيد فيما هي سبيله ، فلهذا شكا الحرب .

وقوله (في خلدي بدر دجى) ، الدجى إشارة إلى الغيب ، فإنه الليل ، وهو محل الستر ، والغيب ستر .

وقوله (قد غربا) ، رجَّحَ جانب الستر على جانب الكشف ، أي غرب عن عالم الحس ، وطلع في الخَلَد بدراً ، يريد كامل النور إشارة إلى قوله عليه السلام : «ترون ربكم كما ترون القمر ليلَة البدر»[3] صفة كمالية .

يا مـــسك يا بدر ويا غـــصن نقـــا

مـــا أورقـــا مـــا أنورا مـــا أطيـــبـــا

(١) كذا وأحسب أن المراد «بما شَاهَدَه» .

(٢) الاصطلام عند الشيخ في اصطلاحات الصوفية هو «نعت ولهٍ يرد على القلب فيسكن تحت سلطانه» .

(٣) سبق لنا تخريج هذا الحديث .

سماها مسكاً ، لما تعطيه من الأنفاس الرحمانية اليمينية ، لإظهار العلوم المحمدية ، وسماها بدراً ، لما توصف به من الكمال ، وما ينسب إليها مما لا يليق بها ، في اعتقاد من خالف اعتقاده العلم ، بما يليق بها من التنزيه والتقديس ، بمنزلة الكسوف والنقص الذي يطرأ على البدور ، وذلك راجع إلى شاهد الحق في قلب كل أحد ، بحسب ما هو الشاهد عليه ، لاقتضاء دليله واعتقاده أو إلهامه ، وليس الاستمداد الذي فيه من النور الشمسي لمصالح الكون ، فشاهد الحق في قلب العبد ، مُستمَدٌّ من النور الإلهي الذاتي ، وسماه أيضاً بدراً ، لكونها مرآة لمن تجلى فيها ، وهو من باب ظهور الحق في الخلق وبالعكس أيضاً .

وسماها (غصن نقا) للصفة القيومية التي لها أوصاف القيومية منها إلى النقا ، الذي هو كدس الرمل ، يحدُّ بين الوصل وهو المعنى ، الذي أظهر فيه هذه الصفة القيومية ، وظهرت فيه وبما فيه من العلو والنشر على الأرض ، لما فيه من التنزيه عن مراتب الكون ، وبما يطرأ على النقا من ذهاب الرياح به عند هبوبها ، هو ما تعارضه هذه العلوم الرملية من الأهواء النفسانية في أوقات ما ، وتلك أوقات الغفلات مثلاً ، كمن يعلم قطعاً أن الله هو الرزَّاق ، وأنه قد سبق علمه بأن ما هو لك ليس لغيرك ، فتأتي الأهواء النفسانية بالخواطر الطبيعية ، فتحول بينك وبين هذا العلم ، فتضطرب عند الفقد ، وتسعى في طلب ما قد فُرِغَ لك منه ، فهذا هو ذلك .

وقوله (ما أورقا) يريد ما يلبسه غصن القيومية من الأسماء الإلهية ، التي بها تجمله في قلوب العباد ، كما إن الأوراق ملابس الأغصان .

وقوله (ما أنورا) يريد البدر من قوله : ﴿**الله نور السماوات والأرض**﴾[1] والمثلُ للمثل .

(١) انظر سورة النور ، الآية رقم ٣٥.

وقوله (ما أطيبا) يريد المسك ، وهو ما تعطيه الأنفاس ، التي ذكرناها ، من المعارف والأخلاق الإلهية لهذا العبد المتصف بها .

يا مبسماً أحببت منه الحبا
ويا رضاباً ذقت منه الضربا[1]

يشير إلى ما أراد ، عليه السلام ، بقوله : «إن الله يضحك»[2] ، حتى قالت العرب «لا عدمنا خيراً من رب يضحك» ، وشبَّه المبسم بالحبب ، وهو ما يظهر على وجه الماء ، وهو راجع إلى ريح ، والماء سرّ الحياة ، فهو ما يظهر على الحياة الإلهية من العلوم الرحمانية ، عند هبوب الأنفاس ، كما قال تعالى : ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾[3] ، يريد العلم من الجهل ، وقوله : ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾[4] ، فهذا ذلك . وقوله (ورضاباً) ، يشير إلى علوم الفهوانية والمناجاة والكلام والحديث والسمر ، ولكن من العلوم التي تُعْقبُ اللذةَ في قلب من قامت به ، فإنه ما كل علم يكون عنه لذة . والضرب هو العسلَ الأبيض ، فشبه الرضاب به للحلاوة والبياض ، كما شبه النور الإلهي بنور المصباح ، وإن بعُدت المناسبة ، ولكن اللسان العربي يعطي التفهم بأدنى شيء من متعلقات التشبيه .

يا قمراً في شفق من خفر
في خدّهِ لاح لنا منتقبا

شبهه بالقمر ، وهي حالة بين البدر والهلال ، فهو مشهد برزخي مثالي صوري ، يضبطه الخيال .

---

(١) الحبب هو الفقاقيع التي تطفو على الشراب ، وهو أيضاً الأسنان المنضّدة ، ومنها قول لبيد : «وإذا تضحك تبدي الحبيا» ، ونحن لهذا التفسير أميل على رغم ما يورده المؤلف ، ذلك أن الرضاب هو الريق الذي يرشفه العاشق وأما الضرب فالعسل الأبيض .

(٢) أخرجه الهندي في كنز العمال ، تحت الرقم ١١٨٥ ، عن عائشة : «إن الله ليضحك من إياس العباد وقنوطهم وقرب الرحمة لهم» ، هذا وقد سبق لنا تخريج هذا الحديث من طرق أخرى .

(٣) انظر سورة الأنعام ، الآية رقم ١٢٢.

(٤) انظر سورة الأنبياء ، الآية رقم ٣٠.

و(الشفق) هنا الحمرة من أجل الخفر ، الذي هو في الحياء ، والحياء يعطي الحمرة في الخدود . و«الله حي»[1] كما أخبر عليه السلام ، ولما كانت حمرة الخفر في الوجنة ، لذلك ذكر الخدود دون غيره[2] .

وقوله (لاح لنا منتقباً) الإشارة إلى ما أشار عليه السلام ، بالحجب الإلهية النورانية الظلمانية ، وسيأتي في البيت الثاني معنى ما ذكرناه .

ثم قال :

لو أنه يسفر عن برقعه
كان عذاباً فلهذا احتجبا

الإشارة بالأسفار والعذاب والحجاب ، الإشارة بقوله عليه السلام : «إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة لو كشفها أحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره»[3] ، وهو مشهد عظيم نزيه ، لا يبقى آثراً ولا عيناً ولا كوناً ، فما احتجب إلاّ رحمة بنا ، لبقاء أعياننا ، فإنه في بقاء عين الكون ، ظهور الحضرة الإلهية وأسماؤها الحسنى ، وهو جمال الكون ، فلو ذهب لم نعلم ، فبالرسوم والجسوم انتشرت العلوم ، وتميزت الفهوم ، وظهر الاسم الحي القيوم ، فسبحان من أرسل رحمته عامة على خلقه وكونه ، لشهود صفته وعينه .

شمس ضحىً في فلك طالعةٌ
غصن نقا في روضة قد نصبا

قوله (شمس ضحىً) يريد وضوح التجلي عند الرؤية .

---

(١) كذا وأحسب المراد «الحَيي» أي ذو الحياء ، اللهم إلاّ إذا أراد بالحي جمع الحياء وهذا بعيد لا يتفق والسياق ، ثم إن الله قد وصف نفسه بالحي في آيات متعددة فهو الحي القيوم الذي لا إله إلا هو وهو الحي الباقي . أما الحديث عن الرسول فلقد أخرجه الدارمي والنسائي وابن حنبل : «إن الله حييٌّ ستير يحبُّ الحياء» .

(٢) كذا والأصح «غيرها» .

(٣) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث .

و(الفلك) عبارة عن الصورة التي يقع بها التجلي ، وهي تختلف باختلاف المعتقدات والمعارف ، وهي حضرة التبدل والتحول في الصور ، وهذه القوة الإلهية والصفة الربانية ، تظهر أعلامها لأهل الجنان في سوق الجنة ، الذي لا بيع فيه ولا شراء ، وقد يصل إلى هذا المقام هنا بعض العارفين ، كقضيب البان[1] وغيره في الصورة الحسية . وأما في الصورة الباطنة فهي أحوال الخلق كافة ، وأراد بطلوعها ظهورها لعين المشاهد . وقوله (غصن نقا) فهي الصفة القيومية .

(في روضة) يريد روضة الأسماء الإلهية ، لا روضة العلوم .

وقوله (قد نصبا) إشارة إلى التخلق بهذه الصفة ، خلافاً لابن جنيد وغيره ، ممن يمنع التخلق بها ، وأجمعنا على التحقق ، إلاّ أني أمنع إدراك التحقق بالشيء ، إذا امتنع التخلّق به ، إذ التخلُّق بالشيء هو الدليل الموصل إلى التحقق به ، وما لا يُتَخَلّق به فلا يتحقق أصلاً ، إذ لا ذوق يدركه ، لكن قد نعلم علم علامة أو إشارة ، لا علم ذوق وحال .

وقوله (قد نصبا) كأنه يفهم منه أن نصبه أثر فيه ، وليس كذلك ! وإنما كشفنا هذا الرأي له في هذه الروضة ، بعد أن لم يكن له كاشفاً ، هو نصب في حقه كما قال تعالى : ﴿ما يأتيهم من ذكر ربهم محدث﴾[2] ، يعني عندهم ، لا في نفس الأمر ، كما يحدث الآن خبر عندنا من الملك ، وكان قد تكلم به منذ شهر مثلاً . فحدوثه الآن عندنا لا في نفس الأمر .

ظلت لها من حذر مرتعبا
والغصن اسقيه سَمَاً صيبا

(١) هو حسن قضيب البان الموصلي ، ذكره النبهاني في جامع كرامات الأولياء ج ١ وقال مات سنة ٥٧٠ هجرية بالموصل وقبره هناك يزار ، وألحق النبهاني بالترجمة نصاً للحافظ السيوطي هو «المنجلي في تطور الولي» .

(٢) انظر سورة الأنبياء ، الآية رقم ٢ .

يقول : لما كانت عزيزة المنال ، لا تتقيد بالمثال ، خفت من الحجاب بالمثال ، من الالتفات الغرضي النفسي ، فصرت أشهدها في كل شيء ، وقبل كل شيء ، من حيث تعلق ذلك الشيء بها ، في ثبوته قبل وجوده ، لا من حيث هي مجردة عن تعلق التشبيه بها ، ومن كونها غصناً (أسقيه سماء) ، يريد مطراً وغيثاً ، إشارة إلى ما تكون به الحياة العرفانية .

و(صيباً) نازلاً من أعلى ، يشير إلى أنه يأخذ من العلو مِنَّةً وفضلاً ، لا كسباً وتعملاً ، ويسقيه ليثمر عنه ما تعطيه قوته من المعارف المحمولة فيه .

إن طلعت كانت لعيني عجباً
أو غربت كانت لحَيْني سببا

(إن طلعت كانت لعيني) ، متعلق بطلعت ، والعجب الذي يقع منه ، حيث أدرك الخسيسُ على خساسته ، النفيسَ على نفاسته ، ولكن يسهل هذا الأمر عند من وقف عند قوله تعالى : «كنت سمعه وبصره»[1] ، فما أدركه سواه ، ولا سمع كلامه غيره . قال تعالى : ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾[2] ، ولما غاب هذا القائل عن هذا المشهد ، لذلك ذكر هذا ، وقد يريد بقوله : فإن كنت في شك ، وهي لا تطلع فلا يكون عجباً .

وقوله (أو غربت كانت لحيني سبباً) ينبه على صفة عشقية ؛ يموت للفقد شوقاً ، كما ذكره المحبون في كلامهم .

مذ عقد الحسن على مفرقها
تاجاً من التبر عَشِقتُ الذهبا

الحسن مشهد عيني ، في مقام الفرق التي تميز فيها العبد من الرب ، وهو الفرق الثاني المطلوب ، وهو أعلى عند المحققين العارفين بالله ، من المقام في عين الجمع ، فإن

(١) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث وقد تكرر في مواضع عدّة .
(٢) انظر سورة الأنفال ، الآية رقم ٢١.

الجمع على الحقيقة ، إذن بالتفرقة ، فإنه يؤذن بالكثرة ، ولا كثرة في العين ، فهو راجع إلى جمعك به ، عند أخذك منك .

وقوله (تاجاً) زينة إلهية خارجة عن مقام الاستواء .

و(الذهب) صفة كمال ، لكمال مراتب المقامات ، فإن الذهب حاز صفة كمال الاعتدال ، وهو أشرف المعادن ، وجعله (تبراً) ، أي لم تدنسه أيدي الكون بالتخليص ، فإنه في تبره أشرف في حقنا ، لأن ظهوره لنا بنا ، هو الذي يصح ويوجد ، وأما ظهوره لنا به ، فلا يصح ، فالطمع في غير مطمع جهل .

وجعله (عشقاً) من العشقة ، للعلاقة التي بين العبد والرب ، في الدقيقة التي ينزل فيها إلى قلبه بالمعرفة .

لـــو أن إبـــلـــيـــس رأى مـــن آدم

نور مـــحـــيّـــاها عليـــه مـــا أبى

قيل لإبليس : «اسجد لآدم»[1] ! فغاب عن لام الخفض ، التي هي إشارة إلى لام الإضافة ، واحتجب العلم عنه بذكر آدم ، فلو رأى اللام من قوله لآدم ، لرأى نور محياً هذه الذات المطلوبة لقلوب الرجال ، فما كانت تتصور منه الإباءة عما دعاه إليه ، فاحتجب إبليس واستكبر ، بنظره إلى عنصره الأعلى عن عنصر آدم الترابي ، فلما رأى الشرف له ، امتنع عن النزول للأخسّ ، وما عرف ما أبطن الله له فيه من سبحات الأسماء الإلهية والإحاطة .

لـو أن إدريـس رأى مـــــــا رقـم

الحـسن بخـديهـا اذاً مـا كـتـبـا

(١) أمر الرب الملائكة جميعاً بالسجود لآدم ففعلوا إلا إبليس أبى . انظر سورة الحجر الآية رقم ٣٠ و٣٣ والآية ٧٣ و٧٥ ، والبقرة الآية ٣٤ ، والأعراف الآية ١١ و١٢ ، والإسراء الآية ٦١ ، والكهف الآية ٥٠ ، وطه الآية ١١٦.

(إدريس)[1] من الدرس ، وهو العلم المكتسب ، مقام أيضاً شريف . يقول : لو أن صاحب العلم النظري الإلهي رأى ما كتبه بالرقم العياني الإلهي يوجه هذه الصفة المطلوبة ، ما طلب اكتساب علم ، ولا كتب علماً أصلاً ، فإن كل علم متدرِّج في هذا المشهد العظيم العياني .

ثم قال :

لو أن بلقيس[2] رأت رفرفها
ما خطر العرش ولا الصرح ببا

حقيقة برزخية بين الإنس والجن ، و(رفرفها) مرتبتها ، والهاء تعود على هذه النكتة المطلوبة الذاتية .

(ما خطر) لها عظيم مقامها ، الذي هو سرير مُلكها ، ولا الصرح السليماني[3] لها ببال ، إذ هو لها في عظيم ما تراه ، في علو مرتبتها . وهذه الحقيقة البرزخية ، يشهدها السالك عند انفصالها عن ترابيته إلى ناره ، من حيث اجتماع طرفي الدائرة ، لا على ما يقتضيه الترتيب الطبيعي ، عن الانفصال عن التراب إلى الماء إلى الهواء إلى النار .

وقوله (ببا) ، حذف اللام للدلالة عليها فيما يقتضيه الكلام ، وإنما حذف اللام لمعنى آخر ؛ ليبقى حرف الباء خاصة ، وهو مقام العقل ، الذي هو في ثاني مرتبة من الوجود ، كما أن الباء في المرتبة الثانية من الحروف ، فكأنه يقول ، إذا أقيمت هذه الحقيقة البرزخية في مقام التمليك لمرتبة العقل ، التي هي أقصى المراتب ، فيكون ذلك عرشها ، وحالها صرحها ، لم يخطر لها ببال ، فكيف إذا كانت مع صورتها البرزخية .

---

(١) هو إدريس وهو إيليا وهو أخنوخ وهو هرمس وهو أمحوتب الفرعوني ، وفي القرآن هو صديق نبي (سورة مريم الآية ٥٦) ، وهو من الصابرين كإسماعيل وذي الكفل (سورة الانبياء ٨٥) ، وقد رفعه الله مكانا علياً (سورة مريم الآية ٥٧) .

(٢) بلقيس في القرآن هي ملكة سبأ وقد زارت سليمان الذي طلب من الجن أن يأتوه بعرشها قبل أن تفد عليه وبنى لها صرحاً ممرداً من قوارير فتوهمته لجة فشمّرت ثم أسلمت مع سليمان لله رب العالمين (انظر سورة النمل) .

(٣) انظر سورة النمل ، الآية رقم ٤٤ .

ثم قال :

يا سـرحـة الوادي ويا بان الغـضـا[1]

اهدوا لنا من نشـركم مع الصـبـا

يريد (بالوادي) ؛ مسيل المعارف في قلوب العباد ، حيث هم عباد .

و(الغضا) مقام المجاهدة .

و(بانه وسرحة الوادي) ، هما ما أنتجه لهم الدخول في هذه المعاملات .

يقول لهما : (اهدوا لنا) من طيبكم الطري ، مع عالم الأنفاس التي تكون عند التجلي ، ولهذا كنى عنه بالصبا ، التي هي الريح الشرقية مطالع النور .

ممسكاً يفوح ريّاه لنا من زهر اهضامك[2] أو زهر الربا[3]

قوله (ممسكاً) ؛ مجعول فيه المسك ، وهو طيب يخرج من حيوان ، أي هذا الطيب انبعث من مقام الحياة ، تفوح رائحته لمشام العارفين .

وقوله (من زهر إهضامك أو زهر الربا) يقول : إنه من مقام التنزل الإلهي الوارد على السنة الرسل في الكتب المنزلة ، وكنى عنه بالإهضام ، وهو الذي أورث التواضع عند العارفين ، فنالوا بذلك المراتب العلى ، وقد يكون أيضاً من مقام حجاب العزة الأحمى في بحر العمى ، فكنى عن ذلك (بالربا) جمع ربوة كما قال تعالى : ﴿لأكلوا من فوقهم﴾[4] بمنزلة الربا هنا (ومن تحت أرجلهم) ، كالإهضام هنا ، وشبهه بهذه الأزهار العطرية ؛ لأنها أوائل التجليات ، ودلائل على معارف ذوقية تأتي بعدها ، كما يأتي عقد الثمر بعد الزهر .

---

(١) الغضا شجر من الأثل خشبه أصلب وجمره يبقى زمناً طويلاً ولا ينطفئ ، وأهل الغضا هم سكان نجد .

(٢) الهضم بفتح الهاء والضاد ، ويجمع على هُضوم إهضام هو المطمئن من الأرض وهو بطن الوادي أيضاً .

(٣) كذا وردت وحقها أن تكتب «الربى» .

(٤) انظر سورة المائدة ، الآية رقم ٦٦.

ثم قال :

يـا بـانـة الـوادي أريـنـا فـنـنـاً
في لين أعطاف لهـا أو قـضـبـا
ريح صـبـاً عن عـصـر صـبـا
بحـاجـر أو بمنى أو بقـبـا[1]

يخاطب ميل الكون إلى جناب الحق ، يقول : إني ميلك ونعمتك من ميل حضرة الحق إليك ونعمتها وظهور أنوارها عليك ، وذلك لأن ميلك إليها ميل افتقار واستفادة ، وميلها إليك ميل غناء وإفادة ، فلا نسبة إلاّ من حيث النقيض .

وذكر (الفنن) لما في لفظه من الفنون ، وهي أنواع المعارف .

وذكر (القضب) لحملها القضيب ، يشير إلى المعارف الذوقية .

وذكر (الأعطاف) وهو جمع عطف ، وهو العطف الإلهي ، التي تتضمنه الرحمة الشاملة المطلقة ، التي ﴿وسعت كل شيء﴾[2] وبها حاجّ إبليس سهل بن عبد الله التستري[3] ، فقال له : «بالتقييد صفتك يا سهل لا صفته ، فإن الله لا يحجز بعد السعة ، ولكن يقسم أنواع المشارب على عباده ، فيعطي قوماً من وجه ما ، ويعطي آخرين من وجه آخر ، فلا يتقيد على الحق شيء «تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً»[4] ،

(١) منى جبل بمكة يذكّر ويؤنث ، ومنى شبه القرية بنيت على ضفتي الوادي النازل من عرفات وفي وسط ذلك الوادي الجمرتان (عن الحميري) . وقرب منى يقع غار حراء حيث كان يتحنّث النبي قبل الوحي ، وأما قباء فموضعان : موضع في طريق مكة من البصرة والآخر بالمدينة بينها وبينه سبعة أميال ، وقباء منزل رسول الله صلعم قبل أن يسير إلى المدينة . .» (عن الحميري) .

(٢) ﴿قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ سورة الأعراف ، الآية ١٥٦.

(٣) هو أبو محمد سهل بن عبدالله بن يونس بن عيسى . . ، أحد أئمة القوم وعلمائهم والمتكلّمين في علوم الإخلاص والرياضات وعيوب الأفعال . . شاهد ذا النون المصري . . وتوفي سنة ٢٨٣ وقيل ٢٧٣ وأظن أن ٨٣ أصح والله أعلم (عن طبقات الصوفية للسلمي) . هذا وقد تعرّض الشيخ في السفر الثاني عشر من الفتوحات إلى محاجّة إبليس والتستري (انظر أيضاً جامع كرامات النبهاني وانظر حلية الأولياء) .

(٤) انظر سورة الإسراء الآية رقم ٤٣ : ﴿سبحانه وتعالى عمّا يقولون علواً كبيراً﴾ .

فرحمته المتقين ، من باب الوجوب الإلهي ، الذي أوجبه على نفسه ، ورحمة غير المتقين ، من باب المَنَّة والفضل ، كما كان التقوى للمتقين من باب المنة والفضل ، إذاً فرحمته على بابها «وسعت كل شيء» .

وقوله (ريح صبا يخبر عن عصر صبا) ، يقول : نسيم روح المعارف ، من جانب الكشف والتجلي ، أخبر عن أوان زمان الشباب ، الذي أشار إليه رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، عند نزول المطر ، فكشف رأسه عليه السلام ، حتى أصابه المطر ، فقال عليه السلام : «إنه حديث عهد بربه»[1] .

فلهذا أشار (بعصر الصبا) وفيه أيضاً ، من اشتقاق الصبا من الصبابة وهي الميل ، فكأن هذه الريح تخبر عن أوان الميل بالأعطاف الإلهية . قال ووقع أخبار هذه الريح في مقامات مختلفة ، منها مقام الحرمة ، ومقام تمييز الأشياء بحقائقها ، بعضها عن بعض ، فكنى عنه (بحاجر) ، من التعجيز ، ومنها مقام التمني مع وجود الطهارة والزكاة ، فكنى عنه (بمنى) ، ومنها مقام الراحة والتجريد ، فكنى عنه (بقبا) ولهذا كان رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، يزورها في كل سبت[2] ، والسبت الراحة ، والسبت حلق الرأس ، ففيه مقام التجريد .

ثم قال :

أو بالنقا فالمنحنى عند الحمى

أو لعلع حيث مراتع الظبى

يقول أيضاً : (أو بالنقا) يشير إلى الكثيب الذي تقع فيه الرؤية .

وقوله (فالمنحنى) ما يكون من الشفقة الإلهية ، والعطف من باب الرحمة بالكون ، لبقاء العين عند ظهور العين ، التي هي الحِمَى ، فلا تُنَال مع كونها تشهد .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الاستسقاء .

(٢) أخرج الهندي الحديث في كنز العمال من طريقين تحت رقم ٣٥٦و٣٥٧ وبألفاظ مختلفة ولكن من دون ذكر للسبت . هذا وقد نقل الحميري في الروض المعطار : «وكان رسول الله صلعم يأتي قباء كل يوم سبت راكباً وماشياً ومصلاه فيه معلوم» .

تاريخ الإسلام
تأسيس ١٣٧٤

وقوله (أو لعلع) ، من التولع ، يشير إلى حالة عشقية ، حيث مراتع الظبى ، لتشبيه أهل الحسن والجمال بها ، أو لأنها محل الأعراف الطيبة النشر ، لكون الظبى تحمل المسك في نوافجه[(١)] ، فتأكل الطيب وتطرح الطيب .

لا عـجبٌ لا عـجبٌ لا عـجبـاً

من عـربي يتـهـاوى العـربا

يفنى إذا مـا صـدحت قـمـريةٌ

بذكـر من يهـواه فـيـه طربا

يقول : لا تعجبوا من شيء يحنّ إلى اصله ويشتاق إليه ، وقوله (يفنى إذا ما صدحت قمرية) كنى بالقمرية عن نفس عارف مثله ، قد فوهت بأمر علوي ، أشاقه إلى ما جاء عنه ، وقد أشار إلى هذه القمرية بعض العقلاء بقوله :

هـبـطـت إلـيـك مـن المحـل الأرفـع

ورقـاء ذات تـعـزّز وتمنـع[(٢)]

وكان الصدح من هذه الحمامة بلسان الأنس والجمال ، فكان فناؤه طرباً ، لحسن السماع بذكر من يهواه .

وقال رضي الله عنه :

بـالجـزع بين الأبـرقين الموعـد

فـأنخ ركـائبـنا فـهـذا المورد

لما كان (الجزع) منعطف الوادي ، أشار به إلى العواطف الإلهية ، وجعله بين (الأبرقين) ، وقد ذكرنا أن البرق مشهد ذاتي ، وسناه للشاهد الذاتي ، الذي يحصل في نفس المشاهد عند الرؤية .

---

(١) النافجة السحابة الكثيرة المطر ومن الرياح التي تبدأ بشدّة ، وهي أيضاً وعاء المسك في جسم الظبي وهي المراد هنا ، والجمع نوافج .

(٢) مطلع قصيدة الشيخ الرئيس ابن سينا في النفس .

و(الموعد) ما وقع عليه الوعد ، كما قال تعالى : ﴿جنات عدن﴾[1] ، وهي جنة الإقامة . فصفة الجنة التي وعد الرحمن ، مقام اللطف ، عباده ، مقام العبودية ، بإضافة الاختصاص بالغيب ، أو يريد مقام الإيمان . قال أبا يزيد[2] رضي الله عنه : «أنتم أخذتم علمكم ميتاً عن ميت ، ونحن أخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت» ، من حيث الخبر الإلهي على اللسان النبوي ، وقد يريد بالغيب حالة ، أو أن أخذ الميثاق على النفوس[3] ، فكان غيباً ، أي في عالم الأمر والملكوت ﴿إنَّه كان وعده مأتيا﴾[4] ، حقاً صدقاً على المعنى .

وقوله (فأنخ ركائبنا) ، إن أراد جنة الحس والمحسوس ، فالركائب هنا هي الهياكل الحاملة للطائف الإنسانية ،

و(المورد) هو ما ينزلون عليه ، من النعيم الدائم الملذوذ للنفوس والأعين . وإن أراد جنة المعاني ، فالركائب هنا مطايا الهمم .

وقوله (أنخ) ، أي لا تتعدى الهمم ما تعلقت به مطالبها ، والمورد عبارة عن بلوغها أمنيتها ، وهو سرّ الحياة الدائمة ، فإن كان لها أمر فوق هذا ، فهو خارج عن الموعد من باب المنة والفضل الإلهي ، الذي لا يدخل تحت حصر ولا حد .

لا تطلبنّ ولا تنادي بعده
يا حاجرٌ يا بارقٌ يا ثهمد

---

(١) ورد لفظ جنّات مضافاً إلى عدن في القرآن كالتالي : الرعد ٢٣ ، النحل ٣١ ، الكهف ٣١ ، مريم ٦١ ، طه ٧٦ ، فاطر ٣٣ ، الصف ١٢ ، والبينة ٨.

(٢) تقدّم التعريف بأبي يزيد .

(٣) الميثاق المذكور تفصيله في سورة الأعراف الآية رقم ١٧٢ : ﴿وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين﴾ .

(٤) انظر سورة مريم ، الآية رقم ٦١.

يقول : إذا وصلت إلى هذا المورد ، على التفسير الثاني ، لا تطلب بعده أمراً آخر ، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : «ليس وراء الله مرمى ، وليس وراء الله منتهى ، وماذا[1] بعد الحق إلاّ الضلال»[2] .

وأما تخصيص (الحاجر والبارق والثهمد) فإن المنع واقع عند بلوغ هذا المورد ، والندا بعد ، فكأنه نقيض حاله ، لو نادى بالحاجر ، وكذلك البارق ، فإنه في مشهد ذاتي . وكذلك الثهمد ، فإن البرق متصل به ، مضاف إليه ، كما قال طرفة ابن العبد[3] : «لخولة إطلال ببرقه ثهمد» ، فأراد هنا ، يا برقة ثهمد ، فحذف . والضمير الذي بعد ، يعود على الوصول ، كأنه قال بعد الوصول لا بعد المورد ، إذ لا بعديّة هناك .

والعب كما لعبت أوانس نهدُ
وارتع كما رتعت ظباء شردُ
في روضة غناء صاح ذئابها
فأجابه طرباً هناك مغردُ

كنى (بالروضة) عن الحضرة الإلهية ، بما تحويه من الأسماء المقدسة والنعوت .

و(اللعب) تصرّف حالات متنوعة ، وهي انتقالات هذا العبد من اسم إلى اسم ، بحالة الأنس والجمال والذوق ، ولهذا قال (العب وارتع) وأوقع التشبيه (بالأوانس) لما ذكرناه .

و(النهد) لأنها محل الرضاع ، واللبن الفطرة التوحيدية ، التي طلب النبي عليه السلام ، الزيادة منها[4] ، كما أمره الحق تعالى ، وأشار إلى ميازيب العلوم التوحيدية

(١) كذا وردت والصواب «وما» .
(٢) انظر سورة يونس الآية ٣٢ : ﴿فذلك الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلاّ الضلال فأنّى تصرفون﴾ .
(٣) كذا والصواب بن العبد ، والشطر التالي مباشرة هو صدر مطلع معلّقته الشهيرة ، وقد سبقت الإشارة إليه وإليها .
(٤) تقدّمت الإشارة إلى مسألة اللبن والفطرة .

الفطرية ، وأوقع التشبيه أيضاً في الذوق (بالظبى) الشُرَّد ، لبعدها من الأغيار ، فتأتي الأماكن التي لم تدنسها الأقدام ، فتطيب مراعيها ، وتصفو مشاربها ، وكأنه دلّه على علم التنزيه والتقديس .

وكنى (بالغنَّاء) عن الفهوانية ، و(الذئاب) الأرواح اللطيفة .

وقوله (فأجابه طرباً) من مقام السرور والابتهاج ، و(المغرِّد) ، النفس الإنسانية من حيث ما لها في تلك الحضرة من الصور ، فإن للنفس الإنسانية في كل حضرة وفلك ومقام صورة ، وقد نبَّه على ذلك عبدالله بن عباس رضي الله عنه في تفسيره المنسوب[1] .

رقت حـــواشـيــهـــا ورق نســيـــمـــهـــا

فـــالـغـــيـم يبـــرق والـغـــمـــامـــة ترعـــد

يقول : لطفت معاني ما تحمله من الظرف والأدب ، ولطف عالم الأنفاس منها .

وقوله (فالغيم يبرق والغمامة ترعد) إشارة إلى حالتين ؛ مشاهدة وخطاب ﴿**وجاء ربك في ظلل من الغمام**﴾[2] «وكان الله في عماء ، ما فوقه هواء وما تحته هواء»[3] والحديث مشهور عند العلماء ، وفيه روايتان المد والقصر ، واستشهادنا به في هذا المعنى ، إذا كان بالمدّ لا غير .

والـودق يـنـزل مـن خـــــلال ســـــحـــــابـه

كـــــدمـــــوع صـبٍ لـلـفـــــراق تـبـــــددُ[4]

(١) تقدم التعريف بابن عبّاس ، أما التفسير المنسوب إليه فهو : «تنوير المقباس من تفسير ابن عباس» لأبي طاهر الفيروزآبادي .

(٢) انظر سورة البقرة الآية ٢١٠ ، وهي كالتالي : ﴿**هل ينظرون إلاّ أن يأتيهم ألله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور**﴾ .

(٣) أخرجه الترمذي في تفسير سورة هود عن أبي رزين : «كان في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء وخلق عرشه على الماء» ، وفسر ابن هارون العماء بالذي ليس معه شيء ، وأخرجه الهندي في كنز العمال من طرق وبألفاظ مختلفة .

(٤) الودق هو المطر .

يقـول : ونزول المعـارف الإلهـيـة ، من خلال السـحـاب ، يعني أبواب التـجلي ودقـائقه ، فـي هذا المقام الغـمـامي ، وشبهـه (بدمـوع الصب) أي تنزُّل مـحبة وشـوق ، تخصصاً له على مقام الخلة والاصطفاء .

و(التبدد) المنسوب إليها ، أي أنها خارجة عن حكم ما يقتضيه الكسب ، فهو فوق الموازين ، لأنه تعالى يقول : ﴿**وما ننزله إلاّ بقدر معلوم**﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿**ولكن ينزل بقدر ما يشاء**﴾[2] .

واشـــرب ســلافـــة خـــمـــرها بخـــمـــارها
واطـرب علـى غـــــــرد هـنـالـك ينـشــــــدُ

قـال الله تـعـالى : ﴿**وأنهـار من خـمـر لذة للشـاربين**﴾[3] ، وصـرفـه إلى المعـاني والمعـارف ، التي يكون عنهـا السـرور والابتـهـاج والفرح وإزالـة الغـمـوم ، والتـجـريد من الكم والـكيف والهـيـاكل الـظلمـانيـة ، والتنزه عن مـلاحظة الإخـوان الجـسـمـيـة والجـسـمـانية ، مطلوب الأفـاضل من العلمـاء الإلهـيين ، وجـعل الخـمـر (سلافـة)[4] ، يقول : مـا فيها تعـمُّل ، ولا درستها أقدام ، ولا استخرجـها معصـار ، لكن صدرت عن أصلهـا ، بقـوَّة اصلهـا ، فظهـرت في عـينهـا لعينهـا ، فلـم تشـهـد سـوى ذاتهـا وأصلهـا الصادرة عنه ، فهي علوم ربانية ، ومعارف مقدسة إلهية ، تورث ما ذكرناه .

و(الغـرد) الذي ينشـد هنالـك هو الناطق ، الذي ينتـجه الذِّكْرُ الجامع ، فـتـسـمـعـه اللطيفـة الإنسانيةُ في ذاتها ، فـتلتذ بسمـاعه ، ولاسيما إذا تحمل معارف يخـاطبهـا بها ، مثل هذا الخطاب ، الذي ورد به على هذا الحال ، بما ذكره في البيتين بعد هذا ، وهما :

وســـلافــــةٌ من عـــــهــــد آدم أخـــبــــرت
عـن جـنـة المأوى حـــــــديثـــــــاً يـسـنـدُ

إن الحــــســــــان تَـفَـلْنَـهَـــــاَ مـن ريقـــــة
كــــالمسك جَـــاد بـهــــا علـينـا الخـــرَّدُ

(١) انظر سورة الحجر الآية رقم ٢١ : ﴿وإن من شيء إلاّ عندنا خزائنه وما ننزله إلاّ بقدر معلوم﴾ .
(٢) انظر سورة الشورى الآية ٢٧ : ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء﴾ .
(٣) انظر سورة محمد ، الآية رقم ١٥.
(٤) الماء المتخذ من الأشياء بعد إغلائها وهي من أسماء الخمر .

هذا ذكر ما جاء به الناطق الغرد المنشد في خطابه ، في نعت هذه العلوم الخمرية ومرتبتها ، والتنبيه على أصلها وأصل عطريتها وقدسها ، وأنها من ﴿جنة المأوى﴾[1] ، أي من الحضرة التي تأوي نفوس العارفين في أول التربية .

وقوله (إن الحسان) يعني الأسماء الحسنى .

(تَفَلْنَها) ، أي من محل الكلام والفهوانية والألسن .

و(الخرد) مقام الحياء والخفر ، فيه إشارة إلى المشاهدة ، ولاسيما وقد تقدم ذكر الحسان ، ثم جعلها من باب الجود والمنة لا من باب الكسب والطلب ، فقال : (جاد بها) .

وقوله (كالمسك) يجمع بين الشم والذوق .

وقال رضي الله عنه :

يا أيها البيت العتيق تعالى
نورٌ لكم بقلبنا يتلالا

(البيت العتيق) ، القديم ، وهو قلب العبد العارف التقي النقي ، الذي وسع الحق سبحانه حقيقته وقوله تعالى .

يقول : ارتفع لكم نور من القلوب شعشعاني ، وظهر على الألسنة والعيون والأسماع ، وسائر الجوارح ، فكان العبد في هذا المقام ، يسمع بالله ، وبه يبصر ، وبه يتكلم ، وبه يبطش ، وبه يسعى ويتحرك ، فإن القلب من الجسد ، مثل النقطة من المحيط في الوسط ، فالمحيط منها من كل جانب علواً ، فلهذا قال تعالى[2] ، أي اطلب

(١) انظر سورة النجم ، الآية رقم ١٥.

(٢) يبدو أن الآية التي استظهرها الشيخ لهذا السياق قد سقطت أثناء النسخ أو الطبع ، هذا ويبدو لي أن الآية المشار إليها قد تكون إحدى ثلاث :

١- ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربّه الأعلى﴾ (سورة الليل الآية رقم ٢٠) .

٢- ﴿وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ (سورة الروم الآية رقم ٢٧) .

٣- ﴿كلاّ إن كتاب الأبرار لفي عليين ، وما أدراك ما عليّون كتاب مرقوم﴾ (سورة المطففين الآيتان رقم ١٨و١٩) .

على أن هذا تخمين شخصي قد يجانب الصواب .

العلو من معدن انبعاثه ، فيلقى الجوارح فيصرفها بحسب ما تعطيه من الحقائق ، فما تعالى منه إلى العين ، قيل فيه هذا الحق بصره ، وإلى الأذن قيل هذا سمعه ، وإلى الرجل قيل هذا سعيه ، فناب من هذه صفته في الخلق ، مناب الحق ، فكان خليفة حق في أرض صدق ، لإقامة ميزان عدل ، عن امتنان وفضل .

أشكو إليك مفاوزاً قد جبتها
أرسلت فيها أدمعي إرسالا

يصف حاله ، في سلوكه وسفره ، وما قطع في طريقه من الرياضات والمجاهدات ، التي كنى عنها بالمفاوز .

وقوله (أرسلت فيها أدمعي إرسالا) حالة شوقيه للقاء المحبوب ، وللظفر بالمطلوب .

أمسى وأصبح لا ألذ براحة
أصل البكور وأقطع الآصالا

يقول : تركت الراحات ، وأخذت بالعزائم والشدائد ، لبلوغ المقصد ، فإن الهمم تعلقت بعظيم ، عزيز الحمى ، الطريق إليه وعرة صعبة ، وعقبتها كَؤد[1] ، فليس يوصل إليها إلاّ بالاتضاع .

إن النياق وإن أضرَّ بها الوحى[2]
تسري وترفل في السري إرفالا[3]

يقول : الهمم وإن أعيت ، لعزة المطلوب ، فإنها مع ذلك لا تفتر ، فإن الأدلة العقلية تريد أن تحيرها ، لقصور الأدلة عن تعلقها بما هو المطلوب عليه من الحقائق ، فربما يكسل بعض همم العارفين ، الذين لا ذوق لهم محقق في الإلهية ، الواقفين مع الوجوب العقلي والجواز والاستحالة ، والأمر الإلهي خارج عن هذا التقييد ، فقد يحكم العقل بإحالة أمر ما

(١) كذا والصواب كؤود ، والكؤود والكأداء يوصف بهما ما شق وصَعُب من عقاب .
(٢) الوحى ، العجلة والإسراع في السير .
(٣) كذا والصواب ترفل وقد أشرنا إلى ذلك في حاشية سابقة ، فهي غلطة تكررت .

وهو محال عقلاً ، لكن ليس محالاً نسبة إلهية ، وهكذا في أكثر أحكامها ؛ فقد يدرك العقل بعض ما يعطيه الحق ، من حيث النسبة الإلهية ، وقد يقصر عن إدراك بعض الأمور من تلك الحيثية ، ولا يعرف بقصوره ، فيقول هذا واجب عقلاً ، أو جائز أو محال ، وهو صحيح من حيث دلالة العقل ، لا يكون إلاَّ هكذا ، إلا من حيث النسبة الإلهية .

هذي الركـــاب إليكم ســــارت بنا
شــوقــاً ومــا ترجــو بذاك وصــالا

(الركاب) كل حامل من الإنسان ، ظاهر أو باطن ، فإن السلوك يعم ذات الإنسان عملاً وهمة ، فهي تحمل المشتاق ، وما ترجو وصالاً ، واللطيفة الإنسانية المحمولة أولى بالمشتاق ، التي ترجو الوصال ، وإن كان لهذه المراكب وصول من حيث ما هي ، ولكن الوصول الذي لأجله تسلك بها ، إنما هو اللطيفة الإنسانية ، ولا علم للمراكب بذلك ، فإنها تحت التسخير ، وبحكم التسخير تمشي ، ولو كشف الغطاء لبدت الحقائق لكل ذي عين ، كما أشرنا إليها فهنيئاً لأهل الكشف ! .

ثم قال :

قطعت إليك ســبــاســبــاً[(١)] ورمــالاً
وجـــداً ومـــا تشكو لذاك كـــلالا
مـــا تشـــتكي ألم الوجى[(٢)] وأنا الذي
أشكو الكلال لقـــد أتيت مـــحـــالا

يقول : هذه المراكب الكثيفة واللطيفة ، ارتكبت هذه المشاق ، ولم يظهر عليها أثر إعياء ولا وهن ، وأنا ما لي فيها سوى الأمر والتدبير والنظر بحكم السياسة ، لإقامة هذه النشأة ، واكتساب المعارف ودعوى المحبة ، ثم أشكو الضجر والإعياء .

(لقد أتيت محالاً) في دعواي .

(١) جمع السبسب وهو المفازة أو الأرض المتباعدة الأطراف .
(٢) كذا والصواب الوحي بالمهملة وقد عرضنا له في حاشية سابقة .

وقال رضي الله عنه :

بـــين الـــنـــقـــــــــــــا ولـــعـــلـــع
ظـــبـــــــــــاء ذات الأجــــــــــــرع

يقـول : بين كثيب المسك الأبيض ، الذي تكون فيه الرؤية والتـولع به ، فنون من المعارف الملازمة إليها لمقامات التجريد ، وأحواله ، من قامت به جرعته الغصص العظيمة هيماناً وشوقاً إلى المعروف ، التي هي دلالة عليه ، إذ لا بدّ لكل علم من معلوم هو متعلقه ، وإن كان عينه ، لكن من حيث ما هو الشيء كذا ، خلاف كونه من حيث أمر آخر .

ثم قال :

تـرعـى بـهـــــــا فـي خـــــــــمـــــــــرٍ
خـــــــــمـــــــــــــائـلاً وتـــرتـعـــي

يقول : هذه المعارف المشبهة بالظبى ، (ترعى) أي تتناول بحقيقتها من قوة من قامت به ، لغلبة سلطانها عليه .

و(الخمر) الشجر الملتف المتداخل بعضه في بعض ، إشارة إلى عالم الامتزاج والتداخل منه .

و(الخمائل) مثل ذلك ، إلا أنه قابل امتزاجاً بامتزاج ، أي لكل ثمر قطف ويد تقطف من جنسها ، لا تقدر يد أخرى تتناول ذلك ، وسببه الاتساع الإلهي ، أي لا يتكرر شيء في الوجود ، فإنه يؤدي إلى الضيق ، والحقائق تأبى ذلك .

مـــــــــــــــا طـــلـــعـــت أهـــلـــةٌ
بــــــأفــــــق ذاك المـــــطـــــلـــــع

إلاّ وددت أنـــــهـــــــــــــــــــا
مـــن حـــــــــــــذر لـم تـــطـــلـــع

يقول : (ما طلعت أهلةٌ) أي تجليات في مثل أحوال الهلال ، المرتقب هنا لطلب الشهود .

(بأفق ذاك المطلع) يعني ذلك الكثيب الذي ذكره يلفظ النقا .

وقوله (إلا وددت أنها من حذر) يقول : من خوف على فناء المشاهد في نفسه عن نفسه ، فتذهب عينه ، والغرض بقاؤه لنفسه بربه ، ولربه بربه ، لا بنفسه لنفسه ، ولا لربه بنفسه .

ووجه آخر ، وهو أنه قد تقرر أن التجلي على ما هو المتجلَّي عليه في نفسه لنفسه ، محال حصوله لأحد ، فلا يقع التجلي إلاَّ من دون ذلك ، مما يليق بمن يتجلى له ، فيخاف على المتجلي له ، أن يعتقد أن الأمر في نفسه لنفسه على ذلك بعينه ، فتحصل الإحاطة وحصولها محال ، كما ذهب بعض النظّار في معرفة الباري سبحانه ، إلى أن معرفتنا به ومعرفة جبريل له ومعرفته بنفسه سبحانه على السواء ، وما ابعد هذا من العلم الصحيح .

ولا بدت لامعةٌ
من برق ذاك اليرمع
إلاَّ اشتهيت أنها
لِما بنا لم تلمع

يقول : (ولا بدت لامعة) يشير إلى تجلي جمادي ، يقابله نور شعشعاني ، كمقابلة نور الشمس لهذه الحجارة الملس البراقة ومحلها الأرض ، كما أن محل الأهلة السماء . فيقول : إنه سواء كان التجلي علوياً أو سفلياً ، طبيعياً أو غير طبيعي ، لا أريد أن يقع ، لما ذكرنا في التفسير قبل هذا ، ولهذا قال (لما بنا لم تلمع) ، يشير إلى ما ذكرناه في التفسير على الوجه الثاني ، من أن يعتقد أن الأمر في نفسه كما تجلى له .

يا دمعتي فانسكبي
يا مقلتي لاتقلعي

يا زفـــــرتي خـــــذ صـــعـــدا
يـا كـــــبـــــدي تـصــــدّعي

يخاطب عالم النزول والصعود كما ورد في الخبر : «يتعاقبون فيكم ملائكة الليل وملائكة النهار»[١] ، فما يصعد منه فهو الهمة ، وما ينزل إليه فهو المعارف الوهبية والتي تأتي بها الملقيات .

وقوله (يا كبدي تصدعي) ، خزانة الغذاء حقيقة ميكائلية ، يقول لمقسم الأرزاق ، ورزق كل عالم بحسب مشاكله ، والتصدع التفرق ، على حسب العالم الذي يتغذى منه ، كأفواه العروق الملتقية[٢] من الكبد ما تعطيه من الدَّم في تلك المجاري : ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم﴾[٣] .

وأنت يـا حــــادي اتيـــئـــد[٤]
فـــــــالـنـــار لـين أضـلـعـي
قـــــد فـنيت ممـا جـــــرى
خـــــوف الـفـــــراق أدمـــعـي
حـــــــتـى إذا حـلّ الـنـوى
لـم تـلـق عـــــيـنـاً تـدمـع

يخاطب داعي الحق ، الذي يدعو الهمم إليه بالتوجه ، يقول : لا تعجل فإن نيران الحب قد أنضج[٥] كبدي ، ثم إني في حال الفراق ، مع رغبتي في حصول المشاهدة والاتصال ، أفكر في البينونة عن تلك الحالة ، فأبكي لها قبل وقوعها ، حتى لو وقعت لم تجد العين دمعة ترسلها عند الفراق ، لأنها فنيت تلك الرطوبات لهذه النار وعُظم حرارتها ، وكثرة ما أرسلته من العبرات خوف البين .

(١) سبق لنا تخريج هذا الحديث .
(٢) كذا وأحسب أن المراد «المتلقية» .
(٣) انظر سورة الأعراف ، الآية رقم ١٦٠.
(٤) كذا وحقها أن تكتب «اتئد» أي تريث وتمهّل ، يلي ذلك لفظ لين أضلعي والصواب «بين» .
(٥) كذا والصواب «أنضجت» .

فـــــــــــارحــل إلـــى وادي الــلــوى
مـــــرتعـــــهـم ومـــــصـــــرعي
إن بــه أحـــــــــبـــــــــتي
عـنـد مــــيـــــاه الأجـــــرع[١]

يشير إلى مقام العطف ، كنى عنه باللوى والرقة ، فإن اللوى حيث يلتوي الرمل ويرقق .

يقول : ذلك المقام هو مرتع لهم وهو مصرعي ، فإن يتعطفهم عليَّ ، أفنى وأذوب بل أموت دهشاً وحيرةً ، عند ذلك العطف الإلهي .

وقـولـه (إن به أحـبـتي) ، يعني مـقـام اللوى ، فـإن العطف إنما هو منهـم بهم لا بغيرهم . وقـوله (عند مياه الأجرع) يقول : لا يحصل لك هذا العطف الإلهي ، إلاَّ بعد تجـريع الغـصص في الرياضات والمجاهدات ، فـحـصـولهـا مقـرون بحـصـول هذه الغصص ، بل هي التي تنتج عن هذا العطف واللطف والرقة والحنان .

ونــادهـــم مـــن لـــفـــــــتـــى
ذي لـوعـــــــــة مــــــــــودع
رمـت بـه أشـــــجـــــانـــه
بـهـــــمـــــاء رسـم بـلـقـع

يقـول : (ونادهم) أي الأحبـة ، من لفتـىً من الفتـوة ، ذي لوعـة حـرقـة الشـوق ، مـودع يـريد حـالة الانصـراف من المشـاهدة إلى ذاته ، كـمـا ورد في رؤية الجنة إذا تجلى الحق لعباده ورأوه وهم بالكثيب في جنة عـدن ، يقول : «ردوهم إلى قـصورهم !»[٢] .

وقوله (رمت به أشجانه) ، أي أحزانه .

(١) تقدمت الإشارة إليه .

(٢) لم أعثر على هذا الحديث .

(بهماء) حالة التجريد في حالة السلوك ، وحالة الحيرة في حالة حصول المعارف .

و(الرسم) بقية الأثر .

و(البلقع) الخراب . يقول : إن هذه الحيرة حصل منها على ما بقي فيه من الأثر ، الذي لا يمكن زواله . إذ لو زال زالت عينه ، وجعله خراباً ، لما أثرت فيه الرياضات والمجاهدات والمعارف والتجليات ، من الأحكام ، التي أذهبت منه ، كل ما لا يليق بظهورها عليه ، فصار خراباً منها ، لا أنه خراب في نفسه ، بل ذلك الخراب هو العمارة على الحقيقة .

ثم قال :

يا قمراً تحت دجى
خذ منه شيئاً ودع
وزوِّديه نظرةً
من خلف ذاك البرقع
لأنه يضعف عن
درْك الجمال الأروع

(الدجى) هنا كناية عن الصورة التي يقع فيها التجلي قمراً ، إذا كان الدجى ظل الأرض ، فظلها صورة طبيعية .

وقوله (خذ منه شيئاً) غير معين ، يريد ما يناسبه لتجلٍّ آخر ، مثل التحليل في الإسراء[1] ، بتركه عند كل عالم ما يناسبه ، إلى أن تبقى اللطيفة الربانية المنفوخة ، فيبقى عند الحق بالحق بما شاء الحق ، ثم يردها إلى عرشها وملكها ، فتنفصل فتأخذ من كل عالم ما تركت عنده ، حتى تنزل إلى الأرض ، وقد انتظم ملكها وقام عرشها ، فتستوي عليه بالتدبير .

(١) سبقت الإشارة إلى الإسراء والمعراج ، وأزيد على الهندي والكتب الستة والسير الثلاث نزهة المجالس للشافعي .

وقوله (وزوديه) يقول : لصورة القمر نظرة ، أي مشاهدة . وذكره بلفظ الزاد ، لوقوع السفر عنه بعده .

وقوله (من خلف ذاك البرقع) ، أي اجعل له علامة يعلم بها ، إن تلك الصورة المتجلي له فيها المتجلّى له فيها ، حجاب عن عين الحقيقة ، فيعرف ما رأى ومن رأى ، وأيضاً فإنه يضعف الممكن عن إدراك الجمال الأزلي ، وجعله أروع ، أي أنه مهاب يخاف من سطوته .

أو عـلـلـيـــــــــــه بـالـمـنـا[1]
عـــــــــساه يحـــــــيى ويعـي
مـــــــــا هـو إلاّ مـــــــــيـت
بـين الـنـقــــــــــــا ولـعـلـع
فـــــــمت يـأســـــــاً وأسـىً
كـــــمـــــا أنا في مـــــوضـــــعي

يقول : (علليه بالمنى) ؛ عديه موعداً حسناً ، بما يلائم غرضه ، مثل قوله : «أَفِ بعهدكم»[2] ، فإنه يحيي نفسه بذلك ، ويعي ما يقال ، له فليزم الآداب وما ينبغي ، فإنَ المنى مما تحي[3] به النفوس ، ولاسيما إذا كانت من صادق جواد على الإطلاق ، فإنه ميت بين المكانة الزلفى بالكثيب الأبيض ، وبين الولوع به والتعلق ، لأنه محل شهود المحبوب .

وقوله (فمتُّ بأساً) ، من تعلق الإدراك بحقيقة المطلوب .

و(أسىً) على ما فات من زمن جهالتي بما ينبغي ، فإنه من طمع فيما لا يُطمع فيه ، خسر الوقت ، وشهد الحال عليه بجهله .

(١) كذا والصواب ما يرد دون ذلك في التفسير ، أما يحيى فكذا وردت وحقّها أن تكتب «يحيا» .
(٢) كذا وردت والصواب كما نزلت في سورة البقرة ، الآية رقم ٤٠.
(٣) كذا وحقها أن تكتب «تحيا» .

وقوله (كما أنا في موضعي) ، أي لم أحد حيث أضع قدم الانتقال على الحالة التي أنا عليها ، إذ لا أين ولا كم ولا كيف ، بل تنزيه مجرد .

ثم قال :

مــــا صـــــدقت ريــح الصـــبـــــا
حــين أتــت بــالخـــــــــدع
قـــــــــد تــكــذب الــريـــح إذا
تـــســـمع مـــــا لــم تـــســـمع

يريد عالم الأنفاس المخبرة بالكواين التي تودعها ، حضرة الطيب ، أو الكلام ، وجعلها (للصبا) ، وهو موضع الشروق . يقول : ما صدقت أخبار التجليا[1] ، حين أتت فيها بصور التشبيه ، إذ لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء ، فكأنها أخبار أتت بالأمر على خلاف ما هو عليه ، فجعله مثل الخديعة . وقد يظهر في الشريعة مثل هذا ، وهو قوله تعالى : ﴿ليس كمثله شيء﴾[2] . ثم قال عليه السلام للسودا : «أين الله؟»[3] فأشارت إلى السماء ، فجعل الخطاب عنه تعالى ، كخطاب من يسأل عنه من المتحيزات ، إذا[4] المتحيز هو الذي يقبل ظرفيه المكان ، فقال عليه السلام : «أعتقها فإنها مؤمنة» ، فما كلّف أمته أكثر مما تسعه أفهامهم ، وسماه إيماناً ، وما قال «فإنها عالمة» فإنه سبحانه لا يتحيز ، وقولها «في السماء» تحيز ، فالإيمان يقبل هذا القول ، والإيمان سبب سعادي ، وضعه الشرع للخلق ، وللإيمان[5] يُستَغني به عن العلم ، ولا يستغني بالعلم عن الإيمان .

(١) كذا وأحسب أن المراد «التجليات» .
(٢) انظر سورة الشورى ، الآية رقم ١١.
(٣) انظر حديث «أين كان ربنا» فلقد أخرجه الترمذي عن أحمد بن منيع عن أبي رزين في تفسير سورة هود ، أما السوداء الخرساء وقد أتى الشيخ على ذكرها في الفتوحات أيضاً فلم أهتد إليه .
(٤) كذا وأحسب أن المراد «إذ» .
(٥) كذا وأحسب أن المراد «والإيمان» .

وقوله : (قد تكذب الريح إذا تسمع ما لم تسمع) ، مثاله الريح إذا هبَّت ببدر حنين[1] ، تسمع آذان الناس أصوات كؤسات[2] ، ومعلوم أنه ما ثم كؤوس تضرب ولا طبل ، فما نقلت صحيحاً ، وإنما تلك الأصوات انزعاجها ، والهبوب ، وأماكن مجوفة تعطي تلك الأصوات ، فعلى الحقيقة إنها أعطت صوتاً في آذان السامع لا غير ، والحاكم عليها بأن ذلك صوت طبل أو غيره ، ليس ذلك ، وإنما أخطأ إن كان ذلك ، خطأ الحاكم على ذلك الصوت بأنه كذا وكذا كل ما يعطيه الحسّ من المغاليط ليس على الحقيقة ، نسبة الغلط إلى الحسّ وإنما الغلط للحاكم ، وهو أمر آخر وراء الحسّ .

بأبي الغصون المائلات عواطفا
العاطفات على الخدود سوالفا[3]

المرسلات من الشعور غدايرا
اللينات معاقدا ومعاطفا

قوله (بأبي) ، إشارة إلى العقل الأول ، يفدي به النعوت التي تحمل المعارف الإلهية للعارفين ، بطريق العطف الإلهي للعطف المقدس ، كما قال تعالى : ﴿قطوفها دانية﴾[4] ، وقوله (العاطفات على الخدود) ، صفة وجهيه .

---

(١) انظر الخصائص الكبرى للسيوطي ج ١ ففيها أحاديث ، ومن بينها التالي عن البخاري وقد أخرجه عن ابن عباس ، وأخرجه أبو يعلي والحاكم والبيهقي عن علي قال : «بينما انا أميح (كذا وأعتقد أن المراد أمتح) من قليب (بئر) بدر إذ جاءت ريح شديدة لم أرَ مثلها قط ، ثم جاءت ريح شديدة لم أرَ مثلها قط إلاّ التي كانت قبلها ثم جاءت ريح شديدة . قال فكانت الريح الأولى جبرئيل عليه السلام نزل في ألف من الملائكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت الريح الثانية ميكائيل نزل في ألف من الملائكة عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلّم وكان أبو بكر عن يمينه ، وكانت الريح الثالثة إسرافيل نزل في ألف من الملائكة عن ميسرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا في الميسرة» .

(٢) الكوس جمع كَوْساء واللفظ فارسي معرّب ويعني الطبل ، وقد وردت صيغة الجمع «كوسات» في السير الشعبية .

(٣) للمقارنة انظر قصيدة أبي الطيب المتنبي التي يقول مطلعها :

بأبي الشموس الجانحات غواربا
اللابسات من الحرير جلابيبا

فالشيخ قد عارضها في قصيدته هذه ، والغاية من الإشارة تلمّس المناخ الشعري في القصيدتين والمقارنة .

(٤) انظر سورة الحاقة ، الآية رقم ٢٣ .

(سوالفا) رتبة إلهية لها في القلوب لدغ وحرقة ، توجب اصطلام العبد على نفسه هيماناً وعشقاً ، وأقام هذه الصفات ، في الكناية عنها ، مقام المخدرات المقصورات ، فأخذ يستعير لها مما هو حقيقة ، لمن كنى بهنّ عن ذلك ، فقال أيضاً (المرسلات) اسم فاعل و(الغدائر) اسم مفعول ، هي المرسلات من الشعور ، كنى به عن العلوم الخفية والأسرار المكتمنة ، التي لا يُستدل عليها إلاّ بضرب من التلويحات البعيدة ، لنزاهتها . وجعلها غدائر ، على تقاسيم هذه المعارف على مراتبها ، إذ ليست على مرتبة واحدة .

وقوله (اللينات معاقدا ومعاطفا) يقول : إنها وإن كانت صعبة المرام ، من حيث نزاهتها ، إذا رُمناها نحن من حيث نحن ، فهي سهلة التناول ، لكرمها وعطفها ونزولها إلينا جوداً ورحمة ، كما قال تعالى : ﴿آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً﴾[1] ، فلم يُذْكر له تعمُّل في تحصيل شيء من ذلك ، وجعل الكل منه ، امتناناً وفضلاً .

و(المعاقد) المذكورة هنا ، تداخل صفات الخلق وصفات الحق ، وانعقاد الصفتين به ، كما وردت الأخبار في ذلك ، ولكنها عند هؤلاء المعتنى بهم ، الذين كشف الله عن بصائرهم غطاء العمى ، وسهَّل عليهم معرفة ذلك ، بالكشف الإلهي ، فلأن ما قوي من ذلك عندهم فعرفوه .

الساحبات من الدلال ذلاذلا[2]

اللابسات من الجمال مطارفا

الباخلات بحسنهنَّ صيانةً

الواهبات متالداً ومطارفا

لما أقيمت هذه المعارف للعارف من حضرة المثال ، كما أقيم المعلم في صورة اللبن ، نعتها بما تنعت به تلك الصورة المتجلى فيها ، فقال : إنها تجر أذيالها تيهاً ونخوة وعجباً ، لعلو منصبها ومكانتها .

(١) انظر سورة الكهف ، الآية رقم ٦٥.

(٢) الذُّلذُل والجمع ذلاذل هو أسفل الثوب ، وذلاذل الناس أواخرهم .

و(المطارف) الأكسية المخططة . فقال إنها لبست ضروباً متنوعة من الزينة والجمال ، وذلك لتنوعات وجوهها ومتعلقاتها .

وقوله (الباخلات يحسنهنَّ صيانةً) ، الإشارة بذلك إلى الخبر : «لا تعطوا الحكمة غير أهلها فتظلموها»[1] ، فهي لا تستحق أن تكون عند من لا يعرف قدرها ، لأنها علوم مشاهدة لا علوم نظر واستدلال ، والشاهدة لا تعطي لكل أحد .

وقوله (الواهبات متالداً ومطارفا)[2] ، وذلك لما عزّ شهودها على أكثر العقلاء ، وعلى كل من تقيد في تحصيل العلوم بطريق النظر ، الذي هو الفكر الصحيح والاستدلال ، وهبتهم من خلف الحجاب الأقدس ، معرفة مأخذ الأدلة بطريق الفكر الصحيح والاستدلال ، لأهل هذا الشأن خاصة ، فعرفوا منها على قدر ما أعطاهم نظرهم ، الذي هو هبتهم ، فكنى عنها بالمتالد والمطارف ، وهو المال المحدث والقديم ، فعبر بالقديم عن كل عالم علم أمراً ما بدليل نَصَبَه غيره ، فاستفاده هذا المتأخر عنه ، والحديث هو الذي امتن الله عليه في علمٍ ما ، ينصب دليل[3] لاح له من فكره الصحيح ، لم يستفده من غيره في أصل وضعه ، فعن هذا كنى بالمتالد والمطارف .

ثم قال :

المونقات مضاحكاً ومباسما
الطيبات مقبّلاً ومراشفا
الناعمات مجرداً والكاعبات
مُنَهَّداً والمهديات ظرايفا

(١) تقدم التخريج في الإحياء وطبقات السلمي ، ونضيف أن الدارمي قد أخرج : «ولا تحدّث الحكمة للسفهاء» .

(٢) الطارف من المال حديثه والتالد والتليد ما نتج عن مال قديم ، ويقال «ذهب بالطارف والتالد» أي ذهب بكل شيء .

(٣) كذا والصحيح «دليلاً» .

وصفها بحسن المبسم عند التبسم والضحك ، إشارة إلى الفهوانية ، وإلى حصولها عنده من مقام الأنس والجمال والمودة ، كما كانت الإشارة من الحق تعالى ، لمحمد عليه السلام ، في نزول جبريل عليه السلام ، في صورة دحية[1] ، وكان أجمل أهل زمانه ، فإنه يشير إلى أنه ، أي محمد ، ليس بيني وبينك ، إلاّ صورة الجمال تأنيساً له وتعريفاً بما له عنده ، وكان من جمال دحية ، أنه لما ورد المدينة ، ما رأته حامل إلاّ وضعت حملها من حينها ، من هيبة جماله ، فناءً فيه وانخلاعاً .

وقوله (الطيبات مقبّلاً ومراشفا) هو ما كان منها له من القبول عند الخطاب ، والمراشف هو ما ارتشفه منها عند المشاهدة ، والمشاهدة والخطاب لا يجتمعان عندنا ، لأن كل حقيقة منها ، تغنيه عن غيرها ، فلهذا لا يجتمعان أبداً .

وقوله (الناعمات مجرداً) يشير إلى ما اكتسبه من العلوم من حاسّة اللمس ، في حضرة المثال والتخيل ، إذا وقع التجلي المعنوي فيها .

وقوله (الكاعبات منهّدا) ، وهو التي صار نهدها كالكعب ، وهي أحسن ما تكون فيه الجارية ، يشير إلى محل حمل المعارف ، تجلى له ليشاهد كيف يتحمل المعارف الإلهية فيه ، حتى تؤديه المعارف المعتبر به ، في أوان تربيته المقدرة له عند الله تعالى . أخذه من هذا الوجه ، وهو مشهد عزيز ينظر إليه قوله تعالى : ﴿**ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم**﴾[2] ، وهو صورة تعلق القدرة بالمقدور ، حالة الإيجاد ، والمانع من ذلك معلوم عندنا ، لا يسع هذا الشرح بسطه لمنازعة الخصوم فيه . وقوله (المهديات طرائفا)[3] ، هو ما ألقت عليه من معرفة نصب الأدلة ، على ما يحاوله من تحصيل العلوم لا غيره .

---

(١) هو دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي ، صحابي بعثه النبي برسالته إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام ، وكانَ وسيماً حسن الصورة ، وفي الأثر أن جبرائيل كان حين ينزل للقاء النبي كان يظهر بصورة وهيئة دحية ، توفي في زمن معاوية حوالي ٦٦٥م (انظر أسد الغابة ج٢ ، وانظر طبقات ابن سعد ، وانظر الأعلام للزركلي) .

(٢) انظر سورة الكهف ، الآية رقم ٥١.

(٣) كذا وهي في المتن «ظرايفا» .

ثم قال :

الخـــالبـــات بكل ســـحـــر مـــعـــجب
عند الحـــديث مـــســـامـــعـــاً ولطائفـــا

الســـاترات من الحـــيـــاء مـــحـــاسناً
تســـبي بهـــا القلب التـــقيّ الخـــائفـــا

يقول : إنها تخطف العقول عن أصحابها ، عند إيرادها عليه ما تسمعه من الخطاب العجيب والكلام الحسن ، فلا تترك له سمعاً يسمع به بعد هذا ، كوناً من الأكوان من حيث كونه ، لكن من حيث ما هي فيه ، فبهذا يسمع حديث الأكوان ، كما ورد فيمن أحبَّه الحق تعالى في قرب النوافل ، فيكون الحق تعالى «سمعه وبصره ولسانه ويده»[1] والخبر المشهور في الصحيح .

و(اللطائف) ، جمع لطيفة ، وأراد بها نفس السامع ، فإنه من اصطلاح القوم في العبارة عنها ، أن يقولوا لطيفة الإنسانية ، يريدون بها ، السرّ الذي به كان الإنسان إنساناً .

وقوله (الساترات من الحياء محاسناً) إشارة إلى الحجب التي بينك وبين هذه العلوم والتجليات ، والحياء المنسوب إليها ، إنما هو حياء من الله تعالى ، يستحي أن يتجلى للقلوب المشغولة بغير الله في غالب حالاتها ، وتشتغل بالله في بعض حالاتها ، فهم في هذا المقام بمنزلة المؤمنين في حالة قوله تعالى : ﴿**وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً**﴾[2] ، فلهذا قرن الحياء هنا بالستر . قال : وهذه المحاسن تجلت لقلب التقي الخائف ، أخذته عن نفسه وهيَّمته فيها ، كما ورد أيضاً في الجناب الإلهي عنه تعالى أنه قال : «وسعني قلب عبدي المؤمن التقي»[3] فلا بد من تطهير القلب وعمارته بهذه الصفات ، وحين يحصل له هذه السعة يحصل له شهود هذه المحاسن .

---

(١) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث .
(٢) انظر سورة التوبة ، الآية رقم ١٠٢ .
(٣) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث .

ثم قال :

المبـــديات من الشـــغـــور لآليـــا
تشـفى بريقـتـهـا ضـعـيـفـاً تالفـا
الرامـيـــات من العـيـــون رواشـــقـــاً
قلبـاً خـبـيـراً بالحـروب مـثـاقـفـا

يقول : أظهروا من الحضرة الفهوانية جواهر العلوم الكبريائية ، فإن اللؤلؤ هو الجوهر الكبير ، والمرجان ما صغر منه .

وقوله (تشفي بريقتها) ، يقول : إذا حصلت له هذه المعارف ، أذهبت علل الجهالات والشبه والشكوك .

وقوله (الراميات من العيون) يريد الملاحظة العلوية من هذه العلوم .

و(الرواشق) أصابت قلوب من رُميَت عليه وقصدت به ، لأنها لا تخطي .

وقوله (قلباً خبيراً بالحروب مثاقفا) ، يريد خبرته بطريق التباس العيون في حضرة التمثيل ، كما قال تعالى : ﴿وكان عرشه على الماء﴾[1] . جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال له : «يا رسول الله رأيت البارحة الحقَّ تعالى على عرشه ! قال له : وأين كان عرشه؟ قال : على البحر ، قال : ذلك عرش إبليس»[2] ، وانظر معرفة إبليس ، ما أبدا له عرشه إلاَّ على الماء ، ليلبس عليه ، ويعتقد فيه أنه ربه تعالى ، فيسمع منه ما يلقي إليه ، ليزيله عن الإيمان . فلهذا توصف قلوب العارفين بالخبرة بالثقاف والحذر من هذا الالتباس ، كما هي الشُبه في حق النظار ، التي تأتيهم في صورة الأدلة وليست بأدلة .

(١) انظر سورة هود ، الآية رقم ٧.

(٢) انظر الحديث «أين كان الله قبل أن يخلق العرش» وقد سبقت الإشارة إليه ، أما حديث عرش إبليس فقد أخرجه مسلم في المنافقين : «جاء رجل إلى النبي صلعم قال له رأيت البارحة الحقّ تعالى على عرشه ، قال له وأين كان عرشه؟ قال على البحر ، قال ذلك عرش إبليس» .

ثم قال :

المطلعـــات من الجـــيـــوب أهلةً
لا تلفينَّ مع التـــمـــام كـــواســـفـــا
المنشـيـــات من الدمـــوع ســـحـــائبـــا
المســـمـــعـــات من الزفـيـــر قـــواصـفـــا

كنى (بالجيوب) عن الحجب والملابس ، التي هي النعوت العلوية المقدسة . وقوله (أهلةً) ، يشير إلى تجل أفقي مطلوب .

وقوله (لا يعتري تلك الأهلة كسوف) أي لم يبق لها شهوة طبيعية تحكم عليها فتحجبها عن المناظر العلى ، لأن سبب كسوف الهلال ، إنما هو ظل الأرض في ترتيب نشأة العالم ، وإن كان الكسوف سببه التجلي الإلهي ، فيخشع فيظهر ذلك الخشوع عليه ، فيسمى كسوفاً ذكر النسائي[1] في مسنده ، أن رسول الله صلى الله علية وآله وسلم ، سئل عن الكسوف ، فقال : «ما تجلى الله لشيء إلاّ خشع له !»[2] فنبه بالمعنى الحاصل في القمر والشمس ، عند هذا السبب الوضعي في سباحتهما في الأفلاك ، كما قدَّرها سبحانه كما قال : ﴿**والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم**﴾[3] فلا يتناقص[4] ما يعطيه الخبر ، وما ذكره علماء هذا الشان من الأسباب في ذلك . وقوله (المنشيات من الدموع سحائباً) البيت بكماله ، يشير إلى أثرها في المكلفين بها ، المهيمين فيها ، المحبين لها ، إلى أن هذه حالاتهم .

---

(١) هو المحدث الحافظ أحمد بن علي بن شعيب النسائي المتوفي عام ٩١٥م ، ولد في نسا من أعمال خراسان ، وتوفي بمكة ، وله من التصانيف كتاب «السنن الكبرى» وكتاب «الضعفاء والمتروكين» .

(٢) أخرجه النسائي : «سئل رسول الله صلعم عن الكسوف فقال : ما تجلى الله . .» الحديث . أما النسائي فهو أحمد بن علي أبو عبد الرحمن المحدث الحافظ ، له «السنن» و«كتاب الضعفاء والمتروكين» ، توفي سنة ٩١٥م .

(٣) انظر سورة يس ، الآية رقم ٣٩.

(٤) كذا وأحسب أن المراد «يتناقض» .

ثم قال :

يا صـاحـبيّ بمهـجـتي خـمـصـانةٌ
أسـدت إليَّ أيـاد يا وعـوارفـا

نظمت نظام الشـمل فـهي نظامنا
عـربيـةٌ عـجـمـاء تلهى العـارفـا

يقول هذا العارف : أن هذه المعارف التي وصفها ، هيمتني منها معرفة واحدة لطيفة برزخية ، ولهذا جعلها (خمصانة)[1] .

يقول : إنها أوقفني حصولها على معرفة ذاتي بذاتي ، لربي ولذاتي ، فجمعتني عليَّ ، وجمعتني بربي ، فانتظم شملي بنظمها ، فهي عربية بي مني ، وعجماء فيما عرفتني من ربي ، لأن المعرفة الإلهية إجمالية ، لا يمكن فيها تفصيل ، إلاَّ بتشبيه ، والتشبيه محال . فكما لا تشبيه ، كذلك لا تفصيل ، وإذا انتفى التفصيل فلا إجمال ، وإنما يذكر الإجمال توسعة في الخطاب ، لفهم السامع ، إذ العبارات المصطلح بها ، تضيق عن تفهيم ما لا يدرك بها إلاَّ ذوقاً ومشاهدة .

وقوله (تلهي العارفا) ، يعني عن معرفته وعن نفسه بمشاهدته ، لأن العلم بالشيء وشهوده لا يجتمعان .

ثم قال :

مـهـمـا رنت سلَّت عليك صـوارمـا
ويريك مـبـسـمـهـا بريقـاً خـاطفـا

يا صـاحـبيَّ قـفـا بأكناف الحـمى
من حـاجـرٍ يا صـاحـبيَّ قـفَـا قـفَـا

يقول : هذه الحقيقة ! إذا نظرت إليك ، أثرت فيك تأثير الصوارم في الجسوم ، يريد ما تعطيه من آثار المجاهدة والمشاق .

(١) الخمصانة والخمصان يعني ضامر البطن وهي من صفات الجمال في الأنثى عند العرب .

(يريك مبسمها بريقاً خاطفا) ، يقول : يعطيك مشهداً ذاتياً ، في حال جمال وأنس ، لكنه يخطفك عنك ، فلا تبقى معك .

وقوله (يا صاحبيَّ) ، يخاطب عقله وإيمانه ، يقول لهما : (قفا بأكناف نواحي الحمى ، حجاب العزة الأحمى من حاجر) أي أنه موضع التحجير عن أن يدركه كون ، فالكل من ورائه وقف ، وعنده منتهى علوم العالمين ومعرفة العارفين .

حتى أسائل أين سارت عيسهم
فقد اقتحمت معاطباً ومتالفا
ومعالماً ومجاهلاً بشملة[1]
تشكو الوجى وسباً وتنايفا
مطوية الأثراب[2] اذهب سيرها
بحثيثة منها قوى وسدايفا[3]

أراد (بالعيس) الهمم ، التي هي مطايا العلوم واللطائف الإنسانية ، لأن بها يبلغ المقصود ، كما قال العارف ، والهمم للوصول .

(فقد اقتحمت) أي ولجت الغمرات ، وارتكبت المهالك التي تورث العطب والتلف ، منها ما كان معلوم لنا أنه متلف ، وحُبُّنا جسَّرَنا على اقتحامه مع المعرفة ، لأن المعرفة والمحبة تورث الشجاعة بك بلا شك ولا ريب ، ومنها ما كان مجهولاً لنا ، حتى حصلنا فيه فأتلفنا ، أي رميت نفسي من حبها ، فيما أعلم وفيما لا أعلم .

يقول : إنه لم يفكر في عاقبة ولا خبر ، في حب يدبر بالعقل .

(١) الشّملة من النياق السريعة الخفيفة .
(٢) كذا والصواب الأقراب فالقرب بضم القاف والقرابة بكسر القاف ، يعنيان سير الليل لورد الغد .
(٣) والسدايف جمع سديف هو شحم السنام والسديفة وتجمع على سدائف الناقة المسنة بيد أن الأول هو الأصوب فالسير الحثيث يذهب بشحم الناقة ويهزلها .

وقوله (بشملة) كناية عن همة معينة منه ، لأمر مخصوص ، وقع له التعشق به .
وقوله (يشكو الوجى) يعني الحفا ، أي أنها لما حصلت بالوادي المقدَّس ، قيل لها : ﴿اخلع نعليك﴾[1] وكانت محمدية ، فشكت الحفا ، لمناسبة الطهارة في النعل .

و(الوادي والسباسب والتنايف) حالات التنزيه من جانب الحق ، والتجريد من جانبه ، ووصفها بأنها (مطوية الأقراب) لأنه أقوى في سيرها ، وأنهض لها ، فاستغاث .

وقوله (اذهب سرعة سيرها منها قوىً) أي كان لهذه الهمة وجوه كثيرة تتعلق بها ، فلما علقها بهذه الوحدانية ، حجبها عما كان لها من القوى ، في تعلقها بالكثرة ، فكأنه أضعفها ، كما يضعف البعير ، إذا ذهبت سدايفه ، التي هي شحمه وقوته .

ثم قال :

حتى وقفت بها برملة حاجر
فرأيت نوقاً بالأثيل خوالفا

يقول : وصلت إلى حالة ميِّزت لي بين الأشياء ، وفصلته لي ، ومنعتني أن أنظر إلى غير ما جلته لي ، فكان الذي (رأيت نوقاً بالأثيل خوالفا) أي علوماً أصلية ، تنتج علوماً أُخر لمن قامت به ، فإن الخوالف النوق العظام التي لها أتباع .

ثم قال :

يقتادها قمر عليه مهابة
فطويت من حذرٍ عليه شراً سفا

يقول : (يقتاد) هذه الخوالف ، (قمر) ، حالة شهودية في صورة قمرية ، في مقام الإجلال والهيبة .

(١) انظر سورة طه الآية رقم ١٢ ، وتمامها : ﴿إني أنا ربّك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى﴾ ، وقد سبق للشيخ استظهار هذه الآية وسبقت الإشارة إلى ذلك منّا .

و(الشراسف) أطراف الأضلاع حيث انحناؤها ، ولهذا قال : (فطويت من حذر عليه) ، لئلا يذهب عني فأفقده ، (شراسفاً) ، كما تحنو على محبوبك إذا حصل عندك . ولما كان القلب محل السعة الربانية ، ونعت الحق سبحانه نفسه ، وأنه في قلوب عباده ، على الوجه الذي يليق بهذا القدر ، من غير تشبيه ولا حصر ولا تكييف ولا تقييد ، ثم شبه تجلية بالقمر .

وقوله (يقتادها) من قوله تعالى : ﴿**ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها**﴾[1] .

ثم قال :

قمر تعرض في الطواف فلم أكن
بسواه عند طوافه بي طائفا
يمحو بفاضل برده آثاره
فتحار لو كنت الدليل القائفا[2]

(قمر تعرض في الطواف) صفة إحاطية ، كما إحاطة الطائف بالبيت في طوافه ، منه بي ومني به ، من حيث نيتي[3] ، لا من حيث هويته .

وقوله (يمحو بفاضل برده آثاره) أي هذه الأدلة التي نصبها دليلاً عليه محاها بـ﴿**ليس كمثله شيء**﴾[4] ، وبـ﴿**سبحان ربك ربِّ العزَّة عما يصفون**﴾[5] ، فأوقف العالم في مقام الجهل والعجز والحيرة ، ليعرف العارفون ما طُلب منهم من العلم به ، وما لا يمكن أن يعلم منه ، فيتأدبون ، ولا يتجاوزون مقاديرهم ، كما قالت اليهود في الخبر النبوي المشهور : «من كون الحق يضع الأرض يوم القيامة على إصبع ،

(١) انظر سورة هود ، الآية رقم ٥٦
(٢) القيافة تتبع الأثر ، والقائف متتبع الأثر وقد اشتهر العرب بذلك .
(٣) كذا وأحسب أن المراد «إنيتي» .
(٤) انظر سورة الشورى ، الآية رقم ١١.
(٥) انظر سورة الصافات ، الآية رقم ١٨٠.

والسماوات على إصبع !»[1] الحديث ، فقرأ النبي ، صلى الله عليه وآله وسلَّم ، هذه الآية : (وما قدروا الله حق قدره)[2] .

وقال رضي الله عنه :

بأثيـــلات النقـــا ســـرب قـطا
ضـــرب الحـــسن عليـــهـــا طنبـــا
بـأجـــــــواز الـفـــــــلا مـن أضـم
نعـم ترعـى عـليـــــهـــــا وظبـــــا

يقول : برؤية الكثيب الأبيض ، معارف أنتجها الصدق ، وكنى عن الصدق (بالقطا) يقال : «أصدق من القطا»[3] .

قوله (ضرب الحسن) ، أي ألبس عليه من آثار المشاهدة ، أي في حقيقة يريد حضرة المشاهدة .

وقوله (وبأجواز الفلا) ، يقول : وبمعظم مقامات التجريد والتفريد .

(من أضم) يشير إلى موضع ، يعطي التواضع والتنزيه .

يقول : وبهذه الحالة التي كنى عنها بالموضع ، معارف قد ألِفَتها النفوس ، لأنها نتائجها ، فكنى عنها (بالنعم) ومعارف لم تألفها النفوس ، هيَ شُرَّد ، لكن انقادت إليه ، بحكم العناية الإلهية ، فكنى عنها (بالظبا) ، وهذان الصنفان من المعارف مكتسب من مقام التجريد والتفريد .

---

(١) هذا الحديث أخرجه الهندي في كنز العمال والبخاري في كتاب التوحيد عن . . عن إبراهيم قال : سمعت علقمة يقول : قال عبدالله جاء رجل إلى النبي صلعم من أهل الكتاب فقال يا أبا القاسم إن الله يمسك السموات على إصبع والأرضين على إصبع والشجر والثرى على إصبع والخلائق على إصبع ثم يقول أنا الملك أنا الملك ، فرأيت النبي صلعم ضحك حتى بدت نواجذه ثم قرأ (وما قدروا الله حق قدره) .

(٢) انظر سورة الأنعام ، الآية رقم ٩١.

(٣) طير قريب الشّبه من الحمام يضرب فيه المثل في الهداية :

والناس أهدى في القبـــيح من القطا
وأضلّ في الحـــسنى من الغـــربان

يا خليليَّ قـــفـــا واســـتنطقـــا
رسم دارٍ بعـــدهم قـــد خـــربا
واندبا قلب فـــتىً فـــارقـــه
يوم بانو وابكيـــا وانتـــحـــبـــا

قوله : (يا خليليَّ) ، يخاطب عقله وإيمانه ، يقول لهما (استنطقا) في موقف من المواقف الإلهية ، أثر منازل الأحباب ، بعد رحيلهم عنها ، وخرابها بعدهم ، فإن القلوب إذا فارقت أصحابها ، متوجهة نحو حضرة الحق ، التي هي محبوبة لها تتصف النفس بالخراب ، لعدم الساكن ، كما قال بعضهم :

ضـــاع قـلـبـي أيـن اطـلـبـــهُ
مـــا أرى جـــســـمي له وطـنـا
كـــان حـــزني بعـــد بعـــدكم
وســـروري بـعـــدكم حـــزنـا[1]

وكثيراً ما يذكر الشعراء هذه القصيدة في باب النسب[2] والهوى .

علّه يخـــبـــر حـــيث يمـــوا
الجـــرعـــاء الحـــمى أو لقِـــبـــا
رحلوا العـــيس ولم أشـــعـــر بهم
ألســـهـــوٍ كـــان أم طرف نبـــا؟

يقول : لعله كلمة ترّج ، وتوقع يخبر ، حيث قصدوا وتوجهوا ، يعني القلب (والجرعاء) المقام ، تجرع الغصص من آلام الفوت ، فينتج عندي ، تجرع الغصص من الآم الفراق . و(الحمى) ، موضع يحرم الدخول فيه ، ونيل ما يحويه من العلوم ، لنزاهته عن تعلق الكون .

(١) بيتان لا أعرف من قائلهما .

(٢) كذا والصواب «النسيب» كما جاء في حماسة أبي تمام بشرح التبريزي : «وذكر الشاعر المرأة بالحسن والإخبار عن تصرّف هواها به وليس هو الغزل وإنما الغزل الاشتهار بمودّات النساء والصبوة إليهن» .

(أم لقبا)[1] أم لموضع الراحة الذي هو قبا ، فإن النبي ، صلّى الله عليه وآله وسلم ، كان يزوره كل سبت ، لمناسبة الراحة ، الذي هو قبا ، فإن السبت الراحة وبها يسمى السبت سبتاً .

وقوله (رحلوا العيس) ، يعني بالعيس ، الهمم امتطتها القلوب من غير علم مني بذلك ، ولا أدري (ألسَهوٍ كان مني أو نبا طرفي) ، عن إدراك ذلك من غير سهو ، فأخذ يقول :

لم يكن ذاك ولا هذا وما
كان إلاَّ ولَهٌ قد غلبا

قال : ما سهوت ، ولا نبا طرفي ، وإنما شغلي بحبه ، حجبني عنه ، كما حكى عن مجنون بني عامر[2] ، حين جاءته ليلى ، في حكاية طويلة ، فقال لها : «إليك عني فإن حبك شغلني عنك !» .

يا همومـاً شردت وافترقت
خلفهم تطلبهم أيدي سبا[3]

أي ريحٍ نسمت ناديتها
يا شمال يا جنوب يا صبا

تفرُّق أهل سبأ معلوم ، وهو المذكور في القرآن : ﴿ومزقناهم كل ممزق﴾[4] ، يقول : همومي تفرقت ، كتفرق أهل سبأ ، على المقامات والحضرات ، بطلب هذه البغية المحبوبة ، التي فارقتهم ، وما لم تجد ، فهي تسأل «أي ريح هبت عليها؟» ، يريد

(١) تقدّم الحديث عن قبا وصلاة الرسول في مسجدها كل سبت .
(٢) تقدم تعريفه وتعريف صاحبته ليلى العامرية ، أما الحكاية المروية عنه أعلاه فيبدو أنها تلفيق متأخر ولاسيما أن حالتهما قد أصبحت رمزاً عند المتصوفة .
(٣) مثل يضرب في من يتفرّقون تفرقاً لا اجتماع بعده ، وقيل إن أصله أن سبأ لما أنذروا بسيل العرم خرجوا متفرقين فقيل لكل جماعة تفرّقوا «ذهبوا أيدي سبأ» والأيدي الأنفس ، ويقال أيضاً «تفرّقوا أيدي سبأ» .
(٤) انظر سورة سبأ ، الآية رقم ١٩.

عالم الأنفاس لتنفّس عنه بعض ما يجده من الكرب ، برائحة تهدي بها إلى مشامّه من عرف طيبهم الممسك ، فيقول لهذه الرياح :

هل لديكم خبرٌ مّما نبا
قد لقينا من نواهم نصبا؟

(النصب) التعب ، و(النوى) الفراق ، فأخذ يقول ما قالت له الريح ، إجابة له عن ندائه إياها وسؤاله :

أسندت ريحُ الصبا أخبارها
عن نبات الشيح عن زهر الربا
إن من أمرضه داء الهوى
فليعلل بأحاديث الصبا

يقول : أسندت ريح التجلي ؛ حديثاً عطرياً طيب النشر ، تخبر فيه أن (من أمرضه الهوى) فما له علالة إلاّ بالحديث فيه وعنه وبما يحدث منه ، كما قال :

أعد الحديث على من جنباته
إن الحديث على الحبيب حبيب[1]
ثم قالت يا شمال خبرّي
مثل ما خبرته أو أعجبا
ثم أنت يا جنوب حدثي
مثل ما حدثته أو أعذبا
قالت الشمال عندي فرجٌ
شاركت فيه الشمال الأذيبا[2]
كل سوءٍ في هواهم حسناً
وعذابي برضاهم عذبا

(١) لم أهتد لقائله مع أنني أذكر وقوفي عليه مراراً في الماضي .
(٢) كذا وردت والصواب «الأزيَب» .

قالت الريح الشرقية لريح الشمال ولريح الجنوب ، أخبراه مثل ما خبرته ، وأعجب وأعذب ، عساه يجد راحة . ولم يجعل لريح الدبور هنا ذكر ، وذلك إن المحبّ لا يستدبر جهة محبوبة أبداً ، أدباً وعشقاً ، فما هو معه إلاّ على أحد ثلاثة أوجه ، إما المواجهة ، وهي التي كنى عنها بالصبا ، وهي القبول أيضاً ، وإمّا الجنوب ، وهي التي تأتي عن اليمين ، وإما الشمال ، وهي التي تأتي من جهة القلب . فالصبا تعطيه علم خلق الله آدم على صورته ، والجنوب تفيده علم أصحاب اليمين ، وهي القوة الإلهية المقرون معها السلام ، والشمال تفيده عين المقربين ، وهو المقام الذي بين النبوة والصديقية ، ولا يناله إلاّ الأفراد خاصة ، والخضر[1] ، منهم وقد شهد له القرآن بذلك ، وهو مقام عزيز ، ما يعثر عليه كل أحد من أهل طريقتنا ، وأما أبو حامد[2] رحمه الله ، فأنكره ، لأنه لم يكن له فيه قدم ، ولا عرفه ، فتخيل أنه من تخطا رقاب الصديقين من الأولياء ، فقد وقع في النبوة ، وأساء الأدب ، وليس الأمر كما زعم أبو حامد ، فإن هذا المقام الذي نبهنا عليه ، هو بين الصديقية والنبوة ، وهو المقام الذي وقع التنبيه عليه ، في حق الصِّديق الأكبر ، بالسر الذي وقر[3] في صدره ، نطق علم المقربين في قلب العارف ، فقال : «عندي فَرَجٌ يعرفه ريح الجنوب ، وهي الأزيب ، وهي لغة الملكية ، وبهذا اسم تسميها أهل اليمن . قيل : «وما هو الفرج؟» قال : إنما يطرأ العذاب على المحبين ، من عدم الملائمة لما في أغراضهم ، فإذا فني المحب عن غرضه ، وكان مع ما يريده منه وبه محبوبه ، صار كل شيء في هواه حسناً ، لأنه غرض لمحبوبه فيه ، وإرادته كما قيل : «وكل ما يفعل المحبوب محبوب» وعذب العذاب

(١) هو صاحب موسى في سورة الكهف ، وفي شخصه الكثير من صفات إيليا أو إدريس ، والمتصوفة يهتمون به كثيراً فهو على صلة مباشرة به أي بالحضرة الإلهية .

(٢) هو «حجة الإسلام» المتكلّم محمد ، أبو حامد الغزالي ، أو الغزّالي ، ولد في طوس من أعمال خراسان ودرس الفقه والكلام والفلسفة ودرّس في المدرسة النظامية ببغداد ، وقد كفّر الفلاسفة ووصمهم بالبدع في كتابه «تهافت الفلاسفة» ومرّ في حالة من الشك قادته إلى التصوف ، مات عام ١١١١م وله «المنقذ من الضلال» و«إحياء علوم الدين» .

(٣) وقر القول في الأذن أو في القلب يعني استقرّت ثابتة وبقي لها أثر ، هذا ويعني الوقر في صدر الرجل الحقد لرسوخه وثباته هناك .

منهم في رضاهم ، كان عنده أحلى من الشهد ، وإذا كان الأمر بهذه المثابة ، ويكون المحب صادقاً في هذا المقام ، لم يشكو[1] ما يجد ، ولا يجد حزناً ، ولا يشكو تعباً ، فإن إرادته عين إرادة محبوبة ، فقد اتفق له جميع ما يريده ، ومن اتفق له مراده ، فهو مسرور . فلذا قال بعد ذلك .

ثم أخذ يقول في صورة وعدهم :

فـــــإلى مـــــا وعلى مـــــا ولما
تشـــتكي البث وتشكو الوصـــبـــا[2]

وإذا مـــــا وعـــــدوكم مـــــا ترى
برقـــــه إلا بريقـــــاً خُلّبـــــا

يقول : إذا وقع الوعد منهم ، كان مثل برق الخلب ، وهو البرق الذي ليس معه رعد ولا مطر ، أي لا ينتج شيئاً كالريح العقيم ، وإن وعدهم هنا ، إنما هو بمشهد ذاتي ، ولهذا شبهه بالبرق ، وجعله خلباً ، لأن المشهد الذاتي لا ينتج شيئاً في قلب العبد ، لأنه لا ينضبط ، ولا يتحصل منه سوى شهوده عند خفقانه ، فإنه يتعالى عن أن يحصره كون أصلاً ، بخلاف التجلي في الصورة في عالم التمثل ، فإن الرائي يضبط صورة ما تجلى له ، ويعبر عنها ، كما ورد في الخبر من ذلك كثير فيما لا صورة له حسية .

رقم الغـــيم على ردن الغـــمـــا
من سنا البـــرق طرازاً مـــذهبـــا

فـــجـــرت أدمـــعـــهـــا منهـــا على
صـــحـن خـــديّهـــا فـــأذكت لهـــبـــا

(١) كذا وحقها أن تكتب «لم يشك» .
(٢) كذا وحقها أن تكتب «إلى م ، وعلى م ، ولم . أما الوصب فالمرض والوجع الدائم والنحول والتعب والفتور .

قوله (رقم الغيم على ردن الغما) ، يريد المعنى الذي تضمنه قوله تعالى : ﴿**هل ينظرون إلاّ أن يأتيهم الله في ظلل الغمام**﴾[1] ، وكنى بالغيم عن المغيب ، وقد تبدل الباء ميماً ؛ يقال لازم ولاذب[2] ، وجعله رقماً ، لنفوذه ، فله الدلالة عليه سبحانه ، من وجهين ؛ فكما يستدل عليه سبحانه في عالم الشهادة ، كذلك يستدل عليه في عالم الغيب ، كما ورد في الخبر «إن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم»[3] ، فإن (الطراز) ، هو العلم الذي في الثوب ، مشتق من العلامة . وجعله من (البرق) ، يريد دلالة ذاتية .

(مذهباً) لأن الذهب أشرف ما يرقم به ويستعمل ، وجعل الرقم على (الردن) وهي الكم ، محل اليد التي تقع فيها البيعة الإلهية ، وأوقع الدلالة في الثوب ، لكونه يظهر على صورة اللابس ، وقد «وسعه قلب العبد المؤمن التقي الورع» ، وقد قال «كنت سمعه وبصره»[4] ، فلهذا جعله موضع العلامة عليه ، فالمقصود أنه يريد إشهاداً ذاتياً ، خلف حجاب الكون ، لتحقق عبد إلهي به محبوب ، «إن الله خلق آدم على صورته» وفي رواية «على صورة الرحمن»[5] . وقوله (فجرت أدمعها) ، يعني ما أمطرته الغمامة من المعارف الشهودية ، في روضات القلوب الإلهية ، (فأذكت لهبا) أي أورثت في القلوب اصطلاماً وهيبة وعظمة .

ثم قال :

وردةٌ نابتةٌ من أدمعٍ
نرجس تمطر غيثاً عجبا

(١) انظر سورة البقرة ، الآية رقم ٢١٠.
(٢) كذا والصواب «لازب» وهو الثابت اللازم ومنه قولهم «ضربة لازب» .
(٣) لم أهتد إلى مصدر هذا الحديث .
(٤) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث في حواش سابقة .
(٥) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث .

يقول : معارف الاصطلام تحرق ولا تنبت ، وهذه قد أنبتت ! وشبَّه العيون بالنرجس[1] .

يقول : والرؤية تعطي علماً ، بقوله (تمطر غيثاً) من أعجب الأشياء ، لأن المراءى لا ينضبط هنا ، ولا يحصل في النفوس منه علم ، تضبطه النفس عند الانفصال من حالة الرؤية ، لأن المراءى لا يتقيد ، فلا ينضبط في العالم التقييدي ، وكل ما سوى الحق فهو مقيَّد الذات ، فإنه مرتبط وجوده بوجود خالقه ، إذ لولاه لم يكن .

ثم قال :

ومتى رُمْتَ جناها أرسلت
عطف صدغيها عليها عقربا

يقول : (متى رمت) ، استفادة منها ، لتحصيل صفة تشرف النفس نسبتها ، منعك من ذلك ، صفة وجهيه تحرقك سبحاتها ، فلا تصل إلىَّ ذلك أبداً .

تشرق الشمس إذا ما ابتسمت
ربَّ ما أنور ذاك الحبببا

يقول : تظهر العلوم القطبية ، التي عليها مدار علوم العالم ، إذا كان من هذه الصفة مثل هذا القبول ، الذي كنى عنه بالتبسم ، وشبه بريق أسنانها ببريق الحبب .

يطلع الليل إذا ما أسدلت
فاحماً جثلاً أثيثاً غيهبا[2]

يقول : تظهر العلوم الغيبية من نفوس العارفين ، إذا ما أسدلت ، هذه الصفة الذاتية ، حجب الشعور بالأمور الخفية الدقيقة ، لأن الإشعار بالشيء لا يقتضي تحقق العلم .

---

(١) تشبيه العيون بالنرجس قديم ، ولعل أشهر ما قيل ما جاء الدالية المنسوبة إلى يزيد بن معاوية وهي في الحقيقة للوأواء الدمشقي :

واستمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت
ورداً وعضّت على العنّاب بالبرد

(٢) الجثل من الشعر والشجر الكثير الملتف ، وهو أيضاً الأسود الكث من الشعر ، والأثيث الكثير الملتف ، والغيهب الظلمة والشديد السواد ، والخلاصة أن شعرها أسود وكثيف وفاحم وملتف .

يتـــجـــارى النحل مــــهــــمـــا تفلت
ربّ مــــا أعـــــذب ذاك الـشـنبــــا[1]

يقول : ما تحقق هذا العارف في نفسه تحققاً إلهياً ، إلى أن وصل إلى المقام الذي نبه عليه الشارع «فكنت سمعه وبصره»[2] ، صار كلامه حقاً محضاً ، ووحياً مطلقاً ، والله يقول : ﴿**وأوحى ربك إلى النحل**﴾[3] .

يقول : فالقلوب التي للمريدين ، في مقام هذا الحيوان ، المعبر عنه بالنحل ، إذا تكلم هذا العارف ، تلقَّت منه المعارف ، كتلقي النحل الوحي من عند الله .

يقول : وهو وحي سرور وجمال وانس ، لأنه عذب الجنى ، فأثمر الحلاوة .

وإذا مــــــــــــالـت أرتـنـــا فـنــنـاً
أو رنـت سلّـت مـن اللـحـظ ظـبـــــــا

يقول : (وإذا مالت) فميلها ميل الغصن المثمر ، لتدنوا[4] قطوفها ؛ إفادة إلهية . فهذا هو العطف الإلهي ، لكن الغصن لا يميله سوى الرياح ، وهي الهمم منا ، فمتى ما تعلقت همة العارف بأمر الهي من جانب الحق ، أمالت ما تعلقت به إليه فناله مقصوده .

كـم تـنـاغي بـالـنقــــا مـن حــــاجــــر
يـا سـليـل الـعَــــــربـي الـعُـــــرُبَـا
أنـــا إلاّ عــــــــــــــــربـيٌ ولــذا
أعـــــشـق الـبــــيض وأهـوى الـعَــــرَبـا

يقول : (كم تناغي) بالكثيب الأبيض ، المعلوم عند القوم ، الممنوع مقامه ، أن تكون لأحد فيه قدم الإحسان ، وهو المشاهدة والبهت ، فهلا أشغلت نفسك

(١) الشنب صفاء الأسنان وجمال الثغر .
(٢) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث في حواش سابقة .
(٣) انظر سورة النحل ، الآية رقم ٦٨.
(٤) كذا والصواب «لتدنو» .
(٥) كذا والصواب «خاطرٌ» .

بالاستعداد لما يعطيه مقام ذلك الكثيب ، عن أن يخطر لك في الإحسان خاطراً[٥] أصلاً ، فأجاب وقال : «الإحسان الذي أطلب ، هي[١] من نتائج الأمر الأصلي ، الذي عنه صدرنا» . و(أنا عربي) فأهوى من الحسان (العربا) ، للمناسبة اللفظية والأصلية ، فلا ينكر على من جرى على ما يعطيه أصله وحقيقته وحاله .

ثم قال :

لا أبالي شرَّق الوجد بنا
حيث ما كانت به أو غرَّبا

يقول : لا أتقيد بالمقامات والمراتب ، وإنما أتقيد بها ؛ فحيث ظهرت لي ، كنت بحيث هي ، لأنها مطلوبي . ثم أنها تلقي إليَّ بحسب ما تراه ، لا بحسب ما أريد ، فإن العلم لها ، والأمر ليس لي ، فلا أبالي حيث يسير بي وجدي .

الضمير في قالوا يعود على من جرى على الوسائط والحجاب[٢] .

كلما قلت إلا قالوا أما
وإذا ما قلت هل قالوا أبا

الضمير في قالوا يعود على من جرى على الوسائط والحجاب .

يقول : كلما قلت (ألا) ينظرون في أمري عندها ، عسى أحظى منها بما حظي من اعتنا[٣] به من الواجدين مثلي ؟ يقولون «أما تنظر إلى وجوهنا ، كيف هي مصروفه إليك ، محجوبة عنها ، وإن كن أسباباً قد وضعنا[٤] لنيل المقاصد ، لكنه ما لنا عناية تقتضي ما أشرت به إلينا ، فإن الأسباب ما وضعت أسباباً لشرفها على الآخذين الأمور عندها ، وإنما وضعت اختباراً وبلاءً وتمحيصاً لكم ، فإن وقفتم معها لم تعطوا شيئاً إلاَّ بوجودها ، وتتركون في الحجاب ، فإن تجاوزتم عنا إلى من نصبنا ، فقد فزتم بالمطلوب !» .

(١) كذا والصواب «هو» .

(٢) أرى أن هذه الجملة المبتدئة بقوله : «الضمير في قالوا ..» حقها أن تكون في مطلع تفسير البيت التالي ، ولذا سأثبتها هناك ثانية .

(٣) كذا وأحسب أن المراد لفظ «اعتناء» .

(٤) كذا والصواب القول : «وإن كانت أسباباً قد وضعت .. الخ» .

وقوله (وإذا ما قلت هل) ، من وَصْلٍ للمطلوب واتصال؟ فيقولون : «قد أبا[1] أن يصل إليه من يطلبه بنا ، لكن من طلبه به ، وصل إليه . كما يقول العارف ، عرفت الله بالله ، حين يقول المتكلم ، عرفت الله بمخلوقاته ، فجعل دليلاً عليه من ليس بينه وبينه مناسبة ، فمن عرف الله بالله فقد عرفه ، ومن عرف الله بالكون ، فقد عرف ما أعطاه ذلك الكون لا غير» .

ثم قال :

ومـــتى مـــا أنجـــدوا أو اتهـــمـــوا
أقطـع البـــيـــدا حث الـطلبـــا
ســـامـــري الوقت قلبي كلمـــا
أبـصـــر الآثار يبـــغي المذهبـــا

يقول : إذا سلك قلبي ، وهو في مقام المعرفة بالأرواح العلوية ، وأبصر المعارف التي تحملها حقائق الأرواح العلوية ، وأراد الإفادة منها ، وعلم أنها ما تطأ مكاناً إلاّ حيي ذلك المكان لوطأتها ، لأنها أرواح مجردة ، فحيث ما ظهرت أكسبت الحياة من ظهرت فيه ، يقول : اتبعتها (أنجدت أو اتهمت) ، فقوله أنجدت ، إذا ظهرت في الأجساد الممثلة في عالم التمثيل ، كصورة جبريل في صورة دحية ، وقوله اتهمت ، مثل أرواح الأنبياء ، يقول : ظهرت في الأجسام الترابية لا الجسدية البرزخية ، ففي أي باب ظهرت وعرفتها ، أقفو أثرها لآخذ منه ، فافعل به ما فعل السامري ، لما قبض من أثر جبريل ، فيكون عندي همة أحييها ، وأحيي بها من وقعت له به عناية ، واعتدلت نشأته ، واستوت خلقته ، اعني في التربية والسلوك ، وتهيا محله لقبول فيضان الروح ، نفخت فيه مما حصل لي من ذلك الأثر ، فحيي به ، فكان تحت حيطتي ، وهذا باب من أبواب من أعطى التصريف فتركه ، أو ظهر به إن شاء وتركه تسليماً وأدباً ،

(١) كذا وحقها أن تكتب «أبى» .

كما قيل لأبي السعود[1] : «هل أعطيت التصرف؟» قال «نعم وتركناه تظرفاً !» يريد : لم يكن غرضنا المزاحمة ، بل ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾[2] وشغلي بعبوديتي ، أولى بي من ظهوري بخلعته ، هي لمن تجب له لالي . فمن وقف مع الأصول ، كان أكمل في المعرفة ممن حجبته هذه الخلعه الإلهية ، كما قال أبو يزيد : «ليس بي يتمسحون وإنما يتمسحون بحلية حلانيها ربي ، فكيف أمنعهم ذلك ، وذلك لغيري؟» ومن نظر الخلعة التي كساها الحق للحجر الأسود ، وعرف الحجر ، عرف ما أشرنا إليه ، وذلك كان مقام أبو يزيد وشيخنا أبو مدين[3] رحمهم[4] الله تعالى .

ثم قال :

وإذا هم شرقوا أو غربوا
كان ذو القرنين يقفو السببا[5]
كم دعونا لوصال رغباً
كم دعونا من فراق رهبا

تقول هذه الأرواح التي ذكرنا : إذا كانوا في مقام حمل الأنوار والأسرار ، التي كنى عنها بالمشرق والمغرب ، كان قلبي مثل ذو القرنين[6] ، أي ما لك الصفتين ، أقفو الأسباب التي توصلني إلى نيل ما عندهم به .

(١) هو ابن شبل البغدادي ، شيخه الغوث الجيلاني ذكره النبهاني في ج ١ وذكر أربعة من الرجال يحملون الكنية عينها ، ولكن يستفاد من الكلام المنسوب إليه أنه هو مراد الشيخ ولاسيما أن النبهاني يذكر تعظيم الشيخ له في الفتوحات .

(٢) انظر سورة الروم ، الآية رقم ٤ .

(٣) هو أبو مدين شعيب المدفون بمصر بباب الشعرية وهو من أعيان مشايخ المغرب ، توفي حوالي ٥٨٠ هجرية (انظر جمهرة الأولياء للمنوفي ، وانظر أيضاً جامع كرامات الأولياء للنبهاني) .

(٤) كذا والصواب القول «رحمهما الله» .

(٥) انظر سورة الكهف من الآية رقم ٨٣ وحتى الآية ٩٩.

(٦) كذا والصواب «ذي القرنين» لحلها من الإعراب ، أما ذو القرنين فخبره في سورة الكهف وهو هناك غير الإسكندر المعروف ، وثمة حكاية عن رجل سأل عمر بن الخطاب عن ذي القرنين فخفقه بالدرة وقال أوفرغتم للملائكة؟ !

وقوله (كم دعونا) ، يقول وكم سألنا التمكن من الأحوال حتى نحكمها فلا نخاف فرقة ولا نعدم وصلة .

يا بني الزوراء هذا قمرٌ
عندكم لاح وعندي غربا
حربي والله منه حربي
كم أنادي خلفه واحربا
لهف نفسي لهف نفسي لفتىً
كلما غنى حمامٌ غيبّا

يقول ، يخاطب أصحاب الميل ، الكائنين في حضرة القطب ، الداخلين تحت دائرته ، (هذا قمرٌ) يشير إلى تجلى[1] ذاتي في هذا المقام .

يقول ، (عندكم لاح) بوجود الإمام القطب .

(وعندي غربا) ، أي ذلك المعنى الذي ظهر لكم في الإمام ، هو باطني وسري ، فجعل نفسه من الأفراد ، وكنى (بالزوراء) وهي بغداد ، لكونها مسكن الإمام الظاهر ، صاحب الزمان ، في عالم الشهادة ، ليعرف السامع ما أراده هذا القائل .

وقوله (حربي والله منه حربي) مما يقاسي من سطواته .

وقوله (خلفه) مع كونه عنده ، يشير إلى عدم الإحاطة ، وأنه معه في باب المزيد ، كما قال تعالى : ﴿وقل ربّ زدني علماً﴾[2] .

وقوله (لهف نفسي) البيت بكماله ، يقول : واحربي لمن مقامه من الفتيان ، كلما سمع من الأرواح البرزخية ما تحمله من الوحي ، الذي نالته في غشيانها ، عند الصلصة التي هي كسلسلة على صفوان ، إشارة إجمالية بغيب هذا القلب ، كما غابت فلك تلك الأرواح عند ذلك السماع ، ولهذا قال ، عليه السلام : «وهو أشده

(١) كذا والصواب «تَجلٍّ» .
(٢) انظر سورة طه ، الآية رقم ١١٤.

عليّ»[١] ، وكان يفني عن نفسه ، أعني عن حسّه ، ويُسجّى إلى أن يسري عنه ، وقد وعا[٢] ما جاء به ، وللوارث حظ من ذلك .

وقال رضي الله عنه :

أضـــــاء بذات الإضـــــاء بـارقٌ
مـن النـور في جـــــوّها خـــــافـق

وصـلـصـل رعـــــد مـنـاجـــــاتـه
فـــــأرسـل مـــــدراره الـوادق

يقول : لاح لي مشهد ذاتي (بذات الإضاء) من تهامه ، يريد ، بما أضاء لي في مقام التواضع ، من الرفعة عنده ، فإنه «من تواضع لله رفعه الله»[٣] ، فيظهر نور الرفعة للعارفين ، في عين التواضع ، وهو مقام العبودية ، ولهذا قال (في جوّها خافق) ، لما كانت تتضمنه .

وقوله (وصلصل رعد ناجاته) البيت بكماله ، يقول : وخاطبها مخاطبة تعليم وتفهيم ، فكست[٤] من العلوم التي كنى عنها بالمدرار ، على حسب ما اقتصاه الشهود .

تـنادوا أنيـــخـــوا فلـم يســـمـــعـــوا
فـــصـــحـت من الـوجـــد يا ســـائـق

ألا فـــــانـزلوا هـا هـنا وارتـعـــــوا
فـــــــإنـي بمـن عـنـدكـم وامـق

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ومسلم في الفضائل ومالك في الموطأ ، وأخرجه الترمذي في المناقب عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلعم كيف يأتيك الوحي فقال رسول الله صلعم : «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشدّه عليّ ، وأحياناً يتمثّل لي الملَك رجلاً فأعي ما يقول . . .» .
(٢) كذا ، وحقها أن تكتب «وعى» .
(٣) أخرجه مالك في الموطأ في كتاب الصدقة ، وأخرجه مسلم في البر .
(٤) كذا وأحسب أن المراد «كسبت» .

لما كانت العلوم ليست مطلوبة لأنفسها ، وإنما تطلب من حيث متعلقها ؛ كان الشغف من العالم بالمتعلق لا بالعلم ، وهو الذي أراد بقوله (بمن عنكم) ، يخاطب العلوم فإن عندها متعلقها ، أي بكم أصل إليه .

وقوله (تنادوا أنيخوا) ، أي اثبتوا ها هنا عند من يطلبكم ويتعشق بكم ، إذ ليس كل قلب يطلب هذه العلوم ، فكأنه مثل الناصح لها ، أي انزلوا في محل من يهواكم ويفرح بقدومكم ، فتحظون وترفعون ، يريد تبقون عنده ، ألا ترى إلى العلوم التي تعطي الأعمال ، إذا كان صاحبها تاركاً للعمل ، يمقته علمه ، ويتمنى أنه لم يكن عنده ، فإن حياة ذلك العلم ، إنما هو[1] العمل ، فكأنه حصل عند من ليس له بأهل ، كما ورد : «لا تعطوا الحكمة غير أهلها فتظلموها»[2] فقد نسب الظلم لمن جعل الشيء في غير أهله ، وجعل ذلك الشيء مظلوماً .

بهيفاء غيداء رعبوبة
فؤاد الشجي لها تائق
يفوح الندى لدى ذكرها
فكل لسان بها ناطق

يقول : متعلق هذا العلم صفة ، إذا تجلت في عالم التمثل ، كانت معتدلة الخلق ، مائلة لمن يهواها ، طرية الحسن ، تتوق إليها الأفئدة ، التي نار الاصطلام تطلع عليها[3] ، ومهما ذُكرَت في مجلس ، عطَّرَ المجلس ذكرُها ، لطيب ريّاها ، فصارت معشوقة بكل لسان ، فيرتاح للنطق بها ، فكأنها صفة تأخذها العبارة ، وسببه كونها ظهرت في عالم التمثل ، فقيدها النعت ، لكن يعلم السامع العالم ما أشار إليه المعبرً في هذا النعت ، كما عرف ما أشير به في اللبن ، من حقيقة العلم والفطرة التوحيدية .

(١) كذا والصواب «هي» .
(٢) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث .
(٣) انظر سورة الهمزة الآية رقم ٧ وما قبلها ، فالكلام يلاحظ ذلك .

فلو أن مجلسها هضمة
ومقعدها جبل حالق
لكان القرار بها حالقاً
ولن يدرك الحالق الرامق

يقول : من علوّ شأنها ، يعلو بها كل من قامت به ، يريد أن كل علم يوصلك إلى حيث متعلقه ، ولهذا العلم بالذات الإلهية ، لا يصح أصلاً ، لأنه لا يوصلك إليها ، لعزتها ، وإنما تصل إليك على قدرك في علمك بها ، فتحقق ! فلو كان مجلسها موضع منخفض ، ومقعدها جبل مرتفع[1] ، لكان المنخفض بها مثل الحالق من غيرها ، والحالق لا يدركه الرامق ، لعلوها ، فكيف إذا اتفق أن تحل في قلب له من العلوّ بمنزلة الجبل الحالق ، فأين ينتهي به من الرفعة والشأن؟ قصد علوّ المكانة ، كما قال في علو المكان الإدريسي : ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾[2] .

فكل خراب بها عامرٌ
وكل سراب بها غادقُ
وكل رياض بها زاهرٌ
وكل شراب بها رائق

يقول : فكل قلب خرب بالغفلات وأشباهها ، من رؤية الأكوان إذا حلت فيه ، أو تجلّت له ، يعمر ، وانقادت إليه جميع العلوم ، كما ورد في خبر الضربة[3] للنبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فعَلِمَ منها علم الأولين والآخرين .

يقول (وكل سراب بها غادق) ، يقول : إذا جئت إلى السراب ، وهو سراب يتخيل أنه ماء ، وتكون عندك هذه الصفة ، فإنك تجده ماء كما طلبته وكما رأيته ، إذا[4] الماء لا

(١) كذا والصواب «فلو كان مجلسها موضعاً منخفضاً ومقعدها جبلاً مرتفعا لكان . .الخ» .
(٢) انظر سورة مريم ، الآية رقم ٥٧.
(٣) انظر السفر التاسع من الفتوحات المكية الفقرة ٣٨٥ : «ضرب بيده فعلمت علم الأولين والأخرين» .
(٤) كذا والصواب «إذ» .

يطلب لعينه ، وإنما يطلب لما يكون منه ، فإذا أعطاك السراب ما أعطاك الماء لوجود هذه الصفة ، فقد وجدت الماء ، أي وجدت المطلوب ، كما قال : ﴿**ووجد الله عنده**﴾[1] ، أي عند السراب ، حين لم يجده شيئاً ، يعني السراب .

يقول : وهو من الرياض بمنزلة الأزهار ، التي تعطي لذة العيون والمشامّ ، وهي الطف من الأذواق الطعمية ، أي لها أثر في عالم الأنفاس والشهود .

وقوله (وكل شراب بها رائق) ، أي كل ذوق حصل لك في مبادي التجلي ، فإنه يصفو ويروق ، ويحلو معناه بوجود هذه الصفة .

فليلي من وجهها مشرقٌ

ويومي من شعرها غاسق

يقول : وقد حصل لي بها علم الغيب من شعرها ، وعلم الشهادة من وجهها ، فأشرق ليل هيكلي الطبيعي من نورها ، وصار عالم شهادتي بوجودها عيناً عند النظر ، أي حصل لي من القوة ، بحيث إن أظهر في الصورة المختلفة كعالم الغيب كما هو الخضر ، وبعض الأولياء كقضيب البان وغيره :

لقد فلقت حبة القلب إذ

رماها بأسهمها والفالق

عيونٌ تعوَّدن رشق الحشا

فليس يطيش لها راشق

يقول : هذه النكتة ، فلقت حبة القلب ، حين رماها بها الفالق سبحانه من قوله : ﴿**فالق الحب والنوى**﴾[2] ، وفالق الإصباح في حبة القلب ، عندما فلقها من العلوم والتجليات .

---

(١) انظر سورة النور الآية رقم ٣٩ ، وتمامها : ﴿**والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب**﴾ .

(٢) انظر سورة الأنعام الآية رقم ٩٥ والآية التي تليها ، وفيها ذكر فالق الأصباح .

وقوله (عيون) ، يعني المناظر العلوية ، تعودن إصابة القلوب التي لها تعشق بها وتعلق ، فهي ترميها بما عندها من العلوم والهبات ، فتصيبها ولا تخطيها ، فإن الرقيقة الممتدة بين القلوب وبين هذه المناظر ، متصلة اتصال الدخان بالسراج من رأس الفتيلة .

فما هامةٌ في خراب البقاع
ولا ساق حرّ ولا ناعق[1]

بأشأم من باذل رحلوا
ليحمل من حسنه فائق[2]

ويترك صباً بذات الأضا
قتيلاً وفي حبهم صادق

يقول : لا شيء أشأم من حالة تحول بينك وبين هذه الصفة الإلهية ، التي تحيي القلوب بوجودها ، فإن الحال إذا قام بالقلب مَلَكَه ، ويبقى السرّ الرباني ، الذي أضاء له هذا المشهد الذاتي ، طريحاً لا معين له على دوام ما قد لاح له ، مع صدقه في التوجه إليه ، وذلك للطريان[3] هذا الشؤم ، الذي كنى عنه بالباذل ، وجعله حاملاً لهذه الصفة المحبوبة ، لكونه حال بينه وبينها ، بحلوله .

وقال رضي الله عنه :

(١) الهامة بوم صغير يألف الخراب والمقابر ومن هنا النظر إليه كنذير شؤم .

(٢) لا معنى للباذل هنا ولا محل أصلاً بل أعتقد أنه يريد «البازل» وهو ما نبت نابه من الإبل سواء كان ذكراً أم أنثى ، هذا ولقد اعتادت العرب القول «رماهم بأشهب بازل» أي رماهم بأمر صعب وعسير . هذا والسياق يتوائم مع ما نذهب إليه ولاسيما أن الشاعر العربي القديم قد اعتاد ذم الناقة والبعير والحادي والهادي الذين كانوا سبباً من أسباب رحيل الأحبة عن مسارح هواه .

(٣) كذا وردت والطريان عند ابن منظور هو «الطبق» وعند ابن سيده «ما يؤكل عليه» ، ولا نحسب أن الشيخ إلى هذا رمى ، بل الطروء من فعل طرأ ، وفي اللسان أن «الطرآني» لفظ يقال في الحمام لا يُدرى من حيث أتى ، ويقال «أمر طرآني» وهو بحسب اللسان نسب على غير قياس . المهم أحسب أن الشيخ يريد القول «لطروء هذا الشؤم» .

يذكــرني حــال الشـيـبــة والشــرخي[١]
حـــديث[٢] لنا بين الحـــديثـــة والكرخ
فــقلت لنفــسي خــمــسين حــجــة
وقــد صــرت من طول التـفكر كـالفــرح
تذكــرني أكــتـــاف سلع وحـــاجـــر
وتذكــرلي حـــال الشـبـيــبــة والشــرخ
وســوق المطايا منجــداً ثم مــتــهــمــاً
وقَــدْحيَ لهــا نـار القــفــار مع المرخى[٣]

يقول : بعدِ الوصول ، إلى مقام إتيان الذكر المحدث بالتنزيل الإلهي ، يذكر لي حالة السلوك في مقام احتراق الحجب المغيبة عني ، التي ترفعها الأعمال بما تعطيه من الحقائق والهمم ، من غير رؤية مني ، فتردني إلى العمل على مقام الحجاب ، من الحالة التي أنا عليها اليوم من العمل على الكشف ، بإسقاط رؤية الرؤية ، فكيف غيرها؟ وأراد (بالخمسين حجة) ، عمر هيكله في زمن هذا القول .

وقوله (تذكرني أكناف سلع) استشراف مُدَّ لي من ، أول تجليات الورث المحمدي ، وتذكر لي (حال الشبيبة والشرخ) أوان البداية وسوق المطايا . يقول ، ويعني الهمم علواً وسفلاً ، فأما علواً فمعلوم ، وأما سفلاً فلحديث : «لو دلَّيتم حبلاً لوقع على الله»[٤] .

وقوله (وقدحي لها نار القفار مع المرخ) ، أي الأمور التي لا تكون عن الأسباب المحجوبة بغطائها ، عن ظهور الأمر على ما هو عليه ، فكأنه أراد في هذه الأبيات يعتب نفسه ، حيث خطر له هذا الخاطر ، في حال تمكّنه وقوته وعلو مقامه واستدامة كشفه .

(١) كذا والصواب هو «الشرخ» وهو «الأصل» ومن الشباب «أوله ونضرته» .
(٢) كذا وحقها أن تكون «حديثاً» .
(٣) كذا والصواب «والمرخ» وهو شجر سريع الورى يقتدح به .
(٤) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن باب «ومن سورة الحديد» عن أبي هريرة قال : « . . .والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم رجلاً بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله ثم قرأ : ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾ (سورة الحديد ، الآية رقم ٣) .

وقال رضي الله عنه :

أطارح كل هاتفة بأيك
علىً فتنٍ بأفنان الشجون
فتبكي إلفها من غير دمع
ودمع الحزن يهمل من جفون

يقول : (أطارح) كل لطيفه روحانية ظاهرة في صورة برزخية ، على غصن ثابت ، بروضة من المعارف الإلهية ، بحقيقة تناسبها مني ، تدل على حسرة الفوت ، حين فاز أمثالي بما فازوا به .

ثم قال : (فتبكي إلفها) ، يقول : بكاء الأرواح من غير دمع ، بكائي بدمع ، لوجود هذا الهيكل الذي أنتجني ! فقد شاركتها في بكاء من غير دمع ، لكوني على ما هي عليه من الحقائق ، من حيث الروحانية ، وزدت عليها بالبكاء الطبيعي ، الذي لا مشرب لها فيه ، فكان وجدي متضاعف[1] لهذا السبب ، فعندي فوق ما عندها . فكأنه يخاطب الأرواح ، المفارقة لعالم الطبيعة ، بعد أن كانت متصلة بها ، وما نالت شيئاً في زماننا لشغلها بنيل شهواتها .

أقول لها وقد سمحت جفوني
بأدمعها تخبر عن شؤن[2]
أعندك بالذي أهواه علمٌ
وهل قالوا[3] بأفياء الغصون

يقول لها : في حال بكائي بلسان حالي ، المعبر لها بما أحمله ، أعندك بالذي أهواه علمٌ ، لأنك في مقام الكشف ، لمفارقتك عالم الظلمة ، وحبسي فيها إلى الأجل

(١) كذا والصواب «متضاعفاً» .
(٢) كذا وأحسب أن المراد «شؤوني» .
(٣) قالوا هنا بمعنى استراحوا وناموا وسط النهار ومنها القيلولة وهي معروفة .

المسمى؟ وهل لهم ظهور بظلال هذا النشآت الطبيعية ، فأطلبهم فيها؟ فإن الله يقول : ﴿**وظلالهم بالغدو والآصال**﴾[1] ، أخبر عنهم بالسجود ، والسجود لا يكون إلاّ مع الشهود والمعرفة ، لا مع غير ذلك ، ولاسيما وقد قال بعضهم : «أنا الحق»[2] ، وقد قال الحق تعالى : «فبي يسمع وبي يبصر»[3] ، فخبريني إن كان الأمر على ما استفهمتك عليه ، فأنظر كيف أرفع الحجاب عن عيني وأشهد ما في كوني .

وقال رضي الله عنه :

عند الجبال من كثيب زرود

صيدٌ وأسدٌ من لحاظ الغيد

صرعي وهم أبناء ملحمة الوغى

أين الأسود من العيون السود

فتكت بهم لحظاتهنّ وحبذا

تلك الملاحظ من نبات الصيد

يقول : إن القلوب التي لها الإقدام والجرآت ، كالأسود ، ولها المنصب العالي من أصلها العالي ، من أصلها الكريم ، مع قوتها وكريم أصلها ، عندما يتجلى إليها هذه المناظر العلى ، بالمكانة الزلفى ، حيث المحل الأزهى ، يبقون صرعى ، قتلى ، هيماناً فيها ، قد فتكت بهم تلك اللحظات العلى ، وحبذا هي من ملاحظات أقدسية ، من صفات علوية قدسية ، منزّهة عن ناظريها ، كريم ملك ، كما قال : ﴿**في جنّات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر**﴾[4] .

(١) انظر سورة الرعد الآية رقم ١٥ ، وتمامها : ﴿**ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدوّ والآصال**﴾ .

(٢) تنسب هذه العبارة إلى الحسين بن منصور الحلاّج .

(٣) سبقت الإشارة إلى حديث «كنت سمعه وبصره . . » .

(٤) انظر سورة القمر الآية رقم ٥٥ ، وهي آخر السورة .

وقال رضي الله عنه[1] :

ثلاث بدور ما يزن بزينة
خرجن إلى النعيم معتجرات[2]
حسرن عن أمثال الشموس إضاءة
ولبَّين بالإهلال معتمرات
وأقبلن يمشين الرويدا كمثل ما
تمشي القطا في الحف الحبرات

يقول : خرجن من حضرة الربوبية والملكية والألوهية ، ثلاثة أسماء مقدسة ، يطلبن ظهور آثارهنّ ، الذي به نعيمهنّ ، فكنى عنه بالنعيم ، وخرجنّ معتجرات من أجل أنوارهنّ ، لئلا يدرك من ليس له قوة النظر إليها في طريقها ، فيهلك . فلما أردن زيارة القلب المهيَّأ لقبولها ، حسرن عن وجوههنّ ، فبدت أنوارهنّ ، ولبّين رافعين[3] أصواتهنّ ، لله تعالى ، بما يستحق له .

(معتمرات) ، يقول زائرات ، واقبلن يطلبن هذا القلب الكريم ، ليشرفنه زيارتهن[4] .

وقوله (في الحف الحبرات) ، يعني عليهم[5] من زينة الأسماء التوابع ، الذين هم كالسدنة لهذه الأسماء ، كما يقول «لا يكون مريداً إلاَّ عالماً ، ولا عالماً إلاَّ حياً ، فصار

(١) انظر للمقارنة بيت الشعر (ص٥٥) ، وهذه وتائية محمد بن عبدالله النميري والتي يقول في مطلعها :
تضوّع مسكاً بطن نعمان إذ مشت
بـه زينب في نسوة عطرات
والمراد من الإشارة المقارنة بين القصيدتين ليس إلاّ . هذا وما ورد ما يزنّ بزينة تصحيف والصواب «بزنية» ، أي أنهن من المحصنات المصونات اللاتي لا يمكن رميهن بالفحش .
(٢) كذا ورد صدر البيت وصوابه «ما يُزَنَّ بزنيَة» أي لا يظنُّ فيهن السوء ولسن بمتهمات ، ففعل زنّ يزُن زنّا وزنّه بخير أو شر أي ظنّه فيه ورماه به ، والمراد أنهن طاهرات عفيفا . .الخ .
(٣) كذا والصواب «رافعات» .
(٤) كذا والصواب «بزيارتهنّ» .
(٥) كذا والصواب «عليهن» .

كونه حيّاً ، مهيمناً على كونه عالماً ومريداً ، وهكذا كل أمر يتوقف وجوده على وجود أمر آخر ، فالأمر المتوقف عليه ، مهيمن على من توقف وجوده عليه» .

ألا يا ثرى نجد تباركت من نجد[1]

سقتك سحاب المزن جوداً على جود

وحياك من أحياك خمسين حجة

بعود على بدءٍ وبدءٍ على عود

قطعت إليها كل قفرٍ ومهمه

على الناقة الكوماء والجمل العود[2]

إلى أن تراءى البرق من جانب الحمى

وقد زادني مسراه وجداً على وجدي

أراد (ثرى نجد) ، مركب العقل وسحائب المعارف ، تسقيه علماً على علم ، و(خمسين حجة) عمر المراكب في هذا الوقت . والتحية ، سلام الحق عليه ، مرداً بلطائف التحف ، والإشارة باليها الحضرة .

(والقفر والمهمه) ، الرياضة النفسية والمجاهدة البدنية ، والناقة الكوماء ، الشريعة ، و(الجمل العودي)[3] العقل المجرب . .

و(البرق) المطلوب ، والغضا الإشراق النوراني الذي لحجاب العزة الأحمى ، و(مسراه) لمعانه من جانب الكون ، فإن السرى لا يكون إلاّ بالليل ، والكون ليل .

وقال رضي الله عنه :

---

(١) انظر للمقارنة قصيدة ابن الدمينة والتي يقول مطلعها :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد

لقد زادني مسراك وجداً على وجد

(٢) العود ، المسن من الإبل ، والكوماء الناقة العظيمة السنام ، وأما المهمه فالمفازة البعيدة أو البلد المقفر .

(٣) كذا والصواب «العود» كما ورد في المتن .

يا خليليّ ألِمَّا بالحمى
واطلبا نجداً وذاك العَلَما

ورِدَا ماءً بخيمات اللوى
واستظلا ضالها والسلما

يخاطب عقله وإيمانه ، يقول لهما : انزلا بالحماية الإلهية ، عند حجاب العزة الأحمى ، واطلبا معرفة نجدية ، يريد علوماً وهبية .

وقوله (وذاك العلما) ، يشير إلى معرفة من جهة الدليل ، ليجمع بين ما يستقل العقل بإدراكه ، وبين ما لا يستقل بإدراكه ، فيكون ممن أوتي الجوامع .

وقوله (وردا ماء) ، يريد معدن الحياة الأزلية .

(بخيمات اللوى) ، يقول ، بحضرة العطف الإلهي .

(واستظلاّ) ، طلباً للراحة في ظلال العلم بالعجز عن درك الإدراك ، وهو مقام الحيرة . فهو (الضال والسلما) أي فيه السلامة من التقييد بأمر ما ، والإحاطة به ، فإن الأمر أعز وأعلى من أن يتقيد بشيء أو لشيء ، أو تأخذها[1] الإحاطة .

فإذا جئتما وادي منىً
فالذي قلبي به قد خيّما

أبلغا عنيّ تحيات الهوى
كل مَنْ حل به أو سلما

يقول : فإذا جئتما موضع رمي الجمرات ، وهو مقام الجماعات ، يريد مواطن الملأ الأعلى على مراتبهم ، وحضرات اجتماعات الأسماء ، لظهور آثارهم ، لما قد بيناه في بعض كتبنا من محاضراتهم .

قال (فالذي قلبي به قد خيمّا) ، يعني مجالسة تلك الجماعات العلوية المعنوية ، الذين أشار إليهم الشارع ، عن ربه تبارك وتعالى ، أنه : «إن ذكرني عبدي في ملأ ،

(١) كذا والصواب : تأخذه .

ذكرته في ملأ خير منه»[1] ، فهو ما أشرنا إليه من الجماعات ، فإن الجمرة الجماعة ، والجمرات الجماعات ، ومحلها تلك البقعة المخصوصة المعبر عنها بمنى ، ولما كانت هذه الحضرة محل القربة الإلهية ، كانت هذه البقعة ، محل القرابين يوم الحج الأكبر .

وقوله (أبلغا عني تحيات الهوى) البيت بكماله ، يقول لعقله ، يبلغ إلى خيفة ولإيمانه كذلك : سلما مني على تلك الجماعات المقدسة ، سلام محب لهم ، راغب في الالتحاق بمراتبهم ، إن سبقت له عناية إلهية بذلك .

وقوله (أو سلما) أي لا تبلغوا عنّي تحية ، إلاّ أن رأيتم القبول ممن بلّغتماه ، وإلاّ فسلما أنتما ولا تذكراني .

ثم قال :

واسمعا ماذا يجيبون
وأخبرا عن دنف القلب بما
يشتكيه من صبابات الهوى
معلناً مستخبراً مستفهما

يقول لهما : واسمعا ما يردد[2] عليكما ، وأخبراهم عما تعلما من حالي ودنفي بهم ، وما أشتكيه من رقة الحب ولطائفه ، إعلاناً بذلك ، ليسمع ذو الرحمة منهم ، فيشفع ، فربما قد سبق في العلم ، أن لا يكون التقريب إلاّ بشفاعة ، فيظهر عند ذلك رجاء من هذا العبد .

وقوله (مستخبراً مستفهماً) ، عن دوائه فيما قد أصابه من مقاساة الحب ، المانعة عن إدراك المطلوب ، مع وجود المحبة ، وانتشابها بباطنه وظاهره .

وقال رضي الله عنه :

(١) سبق لنا تخريج هذا الحديث .
(٢) كذا والصواب «يردون» .

أحبَّ بلاد الله بعد طيبة
ومكة والأقصى مدينة بغدان

وما لي لا أهوى السلام ولي بها
إمامُ هدى ديني وعقدي وإيماني

يقول : أحبّ المواطن إليَّ ، بعد الموطن الذي لا مقام فيه ، وهو اليثربي ، الذي يكون منه الرجوع بالعجز عن الوصول أصلاً ، لتحقق المعرفة بالجناب الأعز ، وهو قول الصديق الأكبر : «العجز عن درك الإدراك أدراك»[1] ، فما رأى شيئاً عند ذلك إلاَّ ورأى الله قبله ، والموطن الآخر ، موطن البهت الإلهي ، المتوجه إليه من كل وجه ، وهو القلب الكامل ، الذي وسع الحق ، والموطن الثالث الأبعد ، الذي هو مقام التقديس والتنزيه ؛ يقول : أحب موطن إليَّ بعد هذه المواطن كلها ، موطن الإمام الخليفة على كافة الأنام ، الذي هو مرتبة القطب ، وذلك لكمال ظهور صورة الحضرة الإلهية فيه ، من تقييد الأوامر الإلهية ، بالبسط والقبض والحياة والموت والأمر والنهي .

وأما قوله (وما لي لا أهوى السلام) ، أراد مدينة السلام ، فإن الله يدعو إلى دار السلام ، والله الهادي إليها ، والسلام اسمه تعالى ، والعقل والدين والإيمان متعلق به ، فما لي لا أهواه ، ولي به هذه الأمور كلها؟ ولكن لا بدّ من تقدّم هذه المراتب الثلاث ، إذ لا يصح وصول من غير سلوك ، فإنه لا وصول .

ثم قال :

وقد سكنتها من بنيّات فارس
لطيفة إيماء ، مريضة أجفان

تُحيّي فتحي من أماتت بلحظها
فجاءت بحسنى بعد حسن وإحسان

(١) ورد هذا الحديث دون أن يعزى إلى أحد في السفر التاسع من الفتوحات المكية ، الفقرة ٥٥٤.

يقول : وهذه الحضرة القطبية الإمامية ، حضرة التصريف والتدبير ،.وبها يظهر عالم التدوين والتسطير ، والتمليك والتسخير ، (قد سكنتها) ، أي فيها حكمة عجمية ، يريد موسوية وعيسوية وإبراهيمية ، وكل ما تعلق بذلك الفن من نبيّ عجمي .

وقوله (لطيفة إيماءً) ، يريد ضعيفة الإشارة .

وقوله (مريضة أجفان) ، يقول معشوقة المنظر ، فيها حنان ورقة وتعطف ، فيرجوا[1] الكلف بها ، أن ينال مقصوده منها ، لما هي عليه من الحنان ، ولهذا قال (تُحيي) أي تسلم (فتحيي) بسلامها ، من إماتة النظر إليها ، عندما لحظته هيبةً وجلالاً .

وقوله (فجاءت بحسنى بعد حسن وإحسان) ، كما قال لجبريل[2] عليه السلام : «إن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه» ، وهذا مقام وإحسان آخر دونه : «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ، فإلى هذا ، هي الإشارة بقوله (بحسنى بعد حسن) ، وأما قوله (وإحسان) هو ما يهبك هذا التجلي الامتناني ، من لطائف المعارف ، وشواهد هذه الفرائد ، ولآلي الأسرار وجواهر العلوم .

وقال رضي الله عنه :

نفسي الفداء لبيضٍ خرّد عُرُب
لعبنَ بي عند لثم الركن والحجر

ما تستدل إذا ما تهت خلفهم
إلاّ بريحهم من طيب الأثر

يقول : عند المبايعة الإلهية ، ظهر لي علوم ، في صورة متجسدة في عالم التمثل ، حسان ثبتن عن أنفسها ، بمعلوماتها ، ولكن من مقام الإيمان ، لا من حيث العقل ، ولذلك جعلها (خُرَّداً) ، أي حييات .

(١) كذا والصواب «فيرجو» .
(٢) تقدمت الإشارة إلى هذا الحديث .

وقوله (ما تستدل) ، أي ما تجد دليلاً ، إذا جئت في طلبهم ، إلاَّ بما تركوه من آثارهم الطيبة في قلوب العارفين ، الحاملين لهذه العلوم ، فإن المعاني إذا قامت بشيء أوجبت له حكمها ، ووصف الطالبين لها بالتيه ، الذي هو مقام الحيرة ، لعلوها وعزة إدراكها .

ثم قال :

ولا دجى بي ليلٌ مـــا به قـــمـــرٌ
إلاَّ ذكـــرتهم فـــســـرت في القـــمـــر

يقول : (ولا دجى) بي ليلُ جهالةٍ ، وذكرتهم ، إلا أقمر ليل جهالتي . هذا حال سلوك .

وقد يقول (ولا دجى بي ليل) حيرة وتيهاً ، إلا فكان[1] ذكري إياهم ، سبب[2] لإزالة ذلك التيه والحيرة ، لوقوفي بهم على حقائق الأمر ، على ما هو عليه ذلك الأمر .

وإنما حين أمـــســـي في ركـــابهم
فـــالليل عندي مـــثل الشـــمس في البكر

يقول : (وإنما حين أمسي) صحبة هذه العلوم ، فلا جهل يعتريني ولا حيرة ، وتكون حيرتي مثل الشمس ، أي تظهر علوماً ومعارف .

وقوله (في البكر) ، معها راحة ، فإن الشمس في الظهيرة ، لا يستطاع المشي إليها لشدة حرها ، فتكون المشتاق[3] عند ذلك ، فلهذا قيَّد بالبكر .

غـــازلت من غـــزلي منهنَّ واحـــدةً
حـــسناء ليس لهـــا أخت من البـــشـــر

يقول : تعشقت من هذه المعارف ، بمعرفة واحدة علوية ذاتية ، من مقام المشاهدة ، ما لها مثل ولا شبه ، كما قال : ﴿ليس كمثله شيء﴾[4] .

(١) كذا والصواب القول «وكان» .
(٢) كذا والصواب «سبباً» .
(٣) كذا وأحسب أن المراد القول «المشاق» جمع مشقة .
(٤) انظر سورة الشورى ، الآية رقم ١١.

وقوله (من غزلي) ، أي الحب صفة لازمة لي .

وقوله (واحدة) ، إشارة إلى عين التوحيد .

إن أسفرت عن محياها أرتك سناً
مثل الغزالة إشراقاً بلا غبر
للشمس غرتها لليل طرتها
شمس وليل معاً من أعجب الصور
فنحن بالليل في ضوء النهار بها
ونحن في الظهر في ليل من الشعر

يقول : إذا زالت الحجب التي بينك وبينها ، ظهرن[1] لك سبحات كالشمس ، صحوا لا يعتريها سحاب ، كما قال عليه السلام : «ترون ربكم كالشمس بالظهيرة ليس دونها سحاب»[2] .

وقوله (للشمس غرتها ولليل طرتها) ، هو ما تحمله من علوم الشعور ، أي علوم الرمز والإخفاء ، مثل أحاديث التشبيه وغير ذلك .

وقوله (شمس وليل معاً من اعجب الصور) ، يقول : الجمع بين الضدين ، لا يتصور عقلاً ، وها قد تصوّر ، وهو عجب ! كما قال أبو سعيد الخراز[3] ، وقيل له : «بمَ عرفت ربك؟» ، فقال : بجمعه بين الضدين ، بقوله تعالى : ﴿**هو الأول والآخر والظاهر والباطن**﴾[4] ، من وجه لا من جهتين مختلفتين ، كما يقول صاحب علم النظر ، الواقف مع عقله ، المتحكم على الحق بدليله . هيهات ! وأين الألوهية من الكون؟ وأين المحدث من حضرة العين؟ كيف يدرك من له شبه من لا شبه له؟ للعقل عقل مثله ، وليس للحق حق مثله ! محال وجود ذاتين وإلهين ! لا يشبه شيئاً ، ولا يتقيد

(١) كذا والصواب «ظهرت» .
(٢) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث .
(٣) انظر طبقات الصوفية للسلمي وكتاب اللمع للسراج الطوسي .
(٤) انظر سورة الحديد ، الآية رقم ٣.

بشيء ، ولا يحكم عليه بشيء ، بل ما يضاف إليه ، إلاّ بقدر ما تمسّ حاجة الممكن المقيد إليه غير ذلك ، من الشمس بعقله . فما عرفه كيف يلتمس بأمر ، هو خلقه عاجزاً فقيراً مستمداً . تعالى الله عن إدراك المدركين علواً كبيراً : ﴿سبحان ربك ربّ العزة عما يصفون﴾[1] ، ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾[2] .

وقوله (فنحن في الليل في ضوء النهار به) البيت بكماله ، يقول : عينه شهادة ، وشهادته عين[3] في نفس الأمر ، نظراً إليه ، لا إلى عقلك ، ولا إلى إضافتك ، ولا نسبك . وقد أشار صاحب الخلع[4] ، إلى شيء من هذا في قوله : «أي اسم أخذته من الأسماء ، كان مسمى بجميع الأسماء !» وسبب ذلك التوحيد ، العين ، وعدم التشبيه بالكون ، وهذا مشهد عزيز ، لا يناله إلاّ الأعز من عباده المتوحدين به ، الذين لا نظر لأنفسهم إلا بعينه ، والمغيب كونهم في كونه الموحد له لا لهم ، حينئذ بهذه المثابة عرفت ما أقول ، فلا يطلب بالعقول ، ما لا يصح إليه الوصول .

وقال رضي الله عنه :

طلعت بين أذرعات وبصرى
بنت عشر وأربع لي بدرا[5]
قد تعالت على الزمان جلالا
وتسامت عليه فخراً وكبرا

(١) انظر سورة الصافات ، الآية رقم ١٨٠.

(٢) انظر سورة الشورى ، الآية رقم ١١.

(٣) كذا والصواب «عين» .

(٤) هو أحمد بن الحسين ، أبو القاسم ابن قَسّي ، رومي الأصل من بادية شلب ، استعرب وتأدّب وقال الشعر ، وكان أول ثائر عند اختلال دولة الملثمين . وعظ وكثُر مريدوه وتسمّى بالإمام ، قتله أهل شلب سنة ١١٥١م . صنّف كتاب «خلع النعلين في الوصول إلى حضرة الجمعين» وقد شرحه الشيخ ابن عربي (عن الأعلام للزركي) . هذا وقد أشار الشيخ في فتوحاته إلى ابن قسّي في موضعين : في السفر الثاني في الفقرة ٤٥٦ وفي السفر الحادي عشر في الفقرة ١٢٨ ، انظر أيضاً الحلّة السيراء لابن الأبار .

(٥) أما أذرعات أو يذرعات فهي درعا الحالية من أعمال حوران في سوريا ، وأما بصرى ففي المنطقة نفسها أي في محافظة حوران حالياً .

لما أوقع التشبيه بالبدر ، جاءه بالزمان مذكوراً لارتباطه به في عدة الشهور ، يريد بهذه المذكورة ، النفس الكاملة ، وقصد ذكر هذا المكان ، لأنه منتهى النبي ، صلى الله وعليه وآله وسلم ، من الشام ، وفيه ظهرت عليه آيات ، في حديث بحيرا[1] ، ونسب إليها صفة الكمال ، وأعطاها من العدد أكمله ، وهو الأربعة ، فإن فيها العشرة ، ونزهها عن التقييد بالزمان ، لعدم التحييز .

ثم قال :

كل بدر إذا تناهى كمالا
جاءَه نقصه ليكمل شهرا
غير هذي فما لها حركات
في بروجٍ فما تشفع وترا

يقول : وليس تشبهه من كل وجه ، وإنما قصدنا صفة الكمال ، وكونها محل التجلي ، لكونها على الصورة ، والبدر مجلى الشمس .

ثم قال (بدر إذا تناهى في كماله) ، يرجع وينقص ، ليظهر الشهر بحساب العالم ، وهذه ليست كذلك ، إنما هو كمال لا يقبل النقص ، لعدم التقييد ، كما أنها لا تقبل الحركة ، فلا تقطع مساحة ، فلا تشفع وترا ، يقول : أن لها مقام الوحدانية ولا يتصل بها أحد ، لعدم الجنسية ، لعلوّ مكانتها وكمالها .

حقةٌ أودعت عبيراً ونشرا
روضةٌ أنبتت ربيعا وزهرا
انتهى الحسن فيك أقصى مداه
ما لوسع الإمكان مثلك أخرى

(١) انظر خبر بحيرا الراهب ولقاء النبي وكان بعد فتى مع عمّه أبي طالب ، في سيرة ابن هشام ، وفي الخصائص الكبرى للسيوطي ففيه أحاديث بأسانيدها في هذا الخصوص .

يقول : لما كان محل العلوم الإلهية ، والمعارف والأنفاس الرحمانية ، شبهها (بالحُقَّة) التي فيها العبير ، وهو أخلاط من الطيب ، كذلك فيها فنون ، من العلوم (والنشر) الرائحة ، وهو ما لها من التعليم والإفادة ، لمن هو دونها ، ولذلك شبهها بالروضة ، لما فيها من الأزاهر والثمار ، بما يناسبها من العلوم والمعارف والأحوال والأسرار والمقامات .

وقوله (انتهى الحسن فيك أقصى مداه) البيت بكماله المراد به ما أراد أبو حامد[1] بقوله : «وليس في الإمكان أبدع من هذا العالم ، إذ لو كان وادَّخَره ، لكان بُخْلا بنا في الجود ، وعجزاً يناقض القدرة» ، وهو كلام محرر لم يفهمه ، وشرحه هنا لا يليق بهذا المجموع ، وقد ذكرناه في كتاب المعرفة[2] .

وقال رضي الله :

رعى الله طيراً على بانة
قد أفصحَ لي عن صحيح الخبر
بأن الأحبة شدّوا على
رواحلهم ثم راحوا سحر

يدعو للنبي ، عليه السلام ، وهو الطير على البانة ، فالبانة نشأته ، والطير لطيفته ، حين أخبر بنزول الحق ، جل جلاله ، إلى سماء الدنيا ، الحديث[3] ، وفيه «حتى ينصدع الفجر» ، ولما كانت القلوب لها أوقات مع الله تعالى ، وأوقات مع نفوسها وحظوظها ، نسب الوقت إلى نزول الحق ، وظهوره في ليل هياكل الطبيعة ، وفجره ما ينسلخ فيه من التجليات الإلهية ، بالعلم المصون المخزون ، وجعل الرواح في السحر ، وهو اختلاط الضوء والظلمة والجلال في حين نزولها .

(١) هو الغزالي وقد سبق التعريف به ، أما الحديث المنسوب إليه فمكانه كتاب إحياء علوم الدين ج٤ .
(٢) نشرت دار الانتشار هذا الكتاب في الجزء الرابع من رسائل ابن عربي بعناية الأستاذ سعيد عبد الفتّاح .
(٣) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث ، وللتذكير فلقد أخرجه البخاري في التهجد ومسلم في المسافرين ومالك في التفسير ، وأخرجه الصفوي الشافعي في نزهة المجالس ج٢ ص١٤٣ عن سعيد بن جبير وعن مجاهد .

يريد ؛ أنه في عالم البرزخ ، ينظر إلى ذلك من الألوهية على ما هي عليه في نفسها ، من التنزيه والتقديس والعظمة والجلال ، في حين نزولها إلى التبشيش والضحك والفرح والتعجب والسبات والمكر وأمثال ذلك ، وإلى هذا الإشارة بالسحر .

فسرت وفي القلب من أجلهم
جحيم لبينهم تُستعر
أسابقهم في ظلام الدجى
أنادي بهم ثم أقفوا[1] الأثر

يقول هذا العارف : (فسرت وفي قلبي) برحيلهم عني ، نار تأجَّج ، وهي التي ﴿تطلع على الأفئدة﴾[2] .

ثم قال (أسابقهم) ، أي أعلو همتي بالسرا[3] ، إلى محل الاستوا ، الذي إليه تكون الرحلة ، وللعما[4] على قدر ما يعطيه الوقت من المعرفة بالحال .

وقوله (ثم أقفو الأثر) ، يريد التخلق بالأخلاق الإلهية ، والاتصاف بالأسماء العبدانية والربانية بحسب الوقت والحال .

وما لي دليل على أثرهم
سوى نفسٍ من هواهم عطر
رفعن السجاف أضاء الدجى
فسار الركاب لضوء القمر[5]

(١) كذا والصواب «أقفو» .
(٢) انظر سورة الهُمَزة ، الآية رقم ٩.
(٣) كذا وحقها أن تكتب «السرى» .
(٤) كذا وأحسب أن المراد القول «والعمل» .
(٥) السَّجف هو أحد الستين اللذين يرسلان على الباغب وبينهما فرجة والجمع سجوف وأسجاف .

يقول : وما لي دليل ، في سيرهم[1] ، خلفهم ، سوى ما أجده في طريقي من نَفَس حبهم إياي ، وهي العناية ، فإنه قال : ﴿يحبهم ويحبونه﴾[2] . فذكر محبته لهم ، لا محبتهم له . وقوله (عطر) يريد طيب الرائحة ، وذلك أن الدليل ، في المفاوز المهلكة ، حيث لا علامة يجدها ، إنما يستدل بشم تربة الأماكن .

قال الشاعر :

إذا الـدلـيـل أمـسـى
أسـتـف أخـلاف الـطـرق[3]

وقوله (رفعن السجاف أضاء الدجى) ، البيت بكماله ، المراد بذلك ما أراد بقوله : ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق﴾[4] .

فـأرسلت دمـعي أمـام الركـاب
فـقـالوا مـتى سـال هذا النهـر
ولـم يسـتطيـعـوا عـبـوراً له
فـقلت دمـوعي جـريـن درر

(الركاب) ، والضمير في (قالوا) ، يعود على الملائكة المذكورة في قوله تعالى : ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة﴾[5] .

وأما قوله (ولم يستطيعوا عبوراً له) ، لأنها دموع حزن ، لوقوع بَيْن ومفارقة ، وليس عند الملأ الأعلى هذا الذوق ، لعدم الحجاب ، فلهذا لم تعط حقائقهم عبور هذا المقام ، المنبَّه عليه بالدموع .

---

(١) كذا ولكنني أحسبه يريد «في سيري» .
(٢) انظر سورة المائدة ، الآية رقم ٥٤.
(٣) كذا وردت وهو تصحيف والصواب كالتالي : (إذا الدليل إستاف أخلاق الطرق) ، والشعر لرؤبة بن العجاج الراجز المخضرم الشهير (انظر ديوانه) .
(٤) انظر سورة سبأ ، الآية رقم ٢٣.
(٥) انظر سورة البقرة ، الآية رقم ٢١٠.

كــــأن الـرعـــــود للـمع الـبـــــروق
وســـيـــــر الـغـــمـــــام لـصـــوب المطر

وجـــيـب القـلـوب لـبـــرق الثــغـــور
وسكـب الـدمــــــوع لـركـبٍ نـفـــــــر

(الرعود) ، مناجاة الصلصلة .

و(البروق) مشاهد ذاتية .

و(الغمام) الصور التي يكون فيها التجلي .

و(المطر) تنزيل العلوم والمعارف . والمعنى مفهوم من باب التشبيه ، وما تقتضيه صيغة النظم .

ثم قال :

فـــيـــا من يشـــبـــه لين القـــدود
بـلـين الـقـــــضــــيـب الرطـب الـنـظر

فـلـو عـكس الأمــــــر مـــــثـل الـذي
فـــــــعـلـت لـكـان سـلـيـم الـنـظـر

فلين الـغـــــصــــون كـلين الـقـــدود
وورد الـريـاض كــــورد الخــــــفـــــر

يقول : لما وقع في أحاديث التشبيه ، إلحاق الحقّ بالخلق ، بما قد ذكر ، وجعله الناس للتشبيه ، وليس كذلك عندي ، وإنما اللفظ الدالّ على كذا من الخلق ، جعل ذلك اللفظ على الحق ، لا من حيث ما يقبله الخلق ، فلو أن هذا المتأوّل يعكس الأمر ، ويُلحق الخلق بالتنزيه ، لكان أولى من حيث ارتباطه بالحقائق الإلهية ، كما فعلنا نحن ؛ حيث شبّهنا ؛ لين الغصون بلين قامة المحبوب الجميل ، وورد الرياض ، شبهناه بورد الخدود ، وجعلنا الأصل ، وألحقناه به ، تشبيهاً من وجه ما ، هو دونه ، فالأدنى يُلحَق .

بالأعلى ، بوجه ما ، للمدح لا بعكس الأمر ، فالتبشيش ، على الحقيقة ، لله ، والضحك وغير ذلك .

ثم أطلق علينا ، بمعان تعلقها ، فهي الأصل ، وله القدَم ، وبالأول يوقع التشبيه ، إذ ولا بُدّ ، لا هو يشبّه بشيء ، هذا إذا كان التنزل إلى حضرة التمثل ، وأما إذا وقع الأمر بما يناسب الحقائق ، على ما هي عليه ، فلا تشبيه ولا تمثيل ، بل كل على ما هو عليه من غير اختلاط .

وقال رضي الله عنه :

يا أولي الألباب يا أولي النهى
همت ما بين المهاة والمها
من سهى عن السُّها[1] فما سها
منْ سهاَ عن المهاة قد سها

قال تعالى : ﴿يتنزل الأمر بينهنّ﴾[2] ، ففي ذلك وقع الهيمان بهذا العارف . والمهاة الشمس ، والمها بقر الوحش ، فهذا سموايي[3] ، وهذا أرضي ، وبينها[4] وقع الهيمان لهذا العارف ، وهو الذي أردنا بقوله : **﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنّ﴾**[5] ، ثم قال : **﴿يتنزل الأمر بينهنّ﴾** .

وقوله (من سهى عن السها فما سها) ، يقول : من غابت عنه الأمور الخفية فلم يدركها ، فما يقال فيه سهى عنها ، بل هي عزَّت عليه فلم يدركها ، كالمشاهد البرقية الذاتية ، وإنما يقع السهو فيمن لا يدرك الأمور الجلية ، لشغله عنها بأمور أُخَر ، إيثاراً له عليها ، كمن لا يرى الشمس وهو فيها يمشي ، فبهذا يسمى ساهياً .

(١) السها نجم خفي ملاصق للعناق من بنات نعش في الدبّ الأكبر كان الناس يمتحنون به أبصارهم .
(٢) انظر سورة الطلاق ، الآية رقم ١٢.
(٣) كذا والصواب «سماوي» أو «سمائي» .
(٤) كذا والصواب «بينهما» .
(٥) انظر سورة الطلاق ، الآية رقم ١٢.

ثم قال :

سِــــــرْ بـه بِـســــــرْبـه لـســــــربـه
فــــاللهي تفَــتحُ بالحــــمــــد اللـهـــــا

إنهــــا مــن فــــتــــيـــــات عـــــرب
من بنات الـفَــــرس أصــــلاً لـهــــــا

نـظـم الحـــــــــسن مـن الـدر لـهــــــا
أشنبــــاً ابيض صــــافي[1] كــــالمهــــا

لما ذكر المها ، ذكر سرب ، وهو أيضاً من العالم الترابي الأرضيّ ، فقال سرْ به ، من السير به ، يعني بنفسه لسربه ، من أجل هؤلاء الأحباب ، الذين شبههم بالسربَ ، ويعني بنفسه ، أي قدِّم نفسك بين أيديهم ، قربةً وهديةً ، فانك إذا فعلت ذلك أحبوك ، وأثنوا عليك ، فاللها ، الأعطيات ، تفتح بالحمد الثنا ، اللها جمع لهاة ، وقد قيل في ذلك :

تــهـــــــــــدى الأضـــــــــاحـي
وأهدي مـــــــهـــــجـــــتي ودمي[2]

وقلنا في ذلك :

وأهدي عن القــربان نفــســاً مــعـيـبــة
وهل ريء خلق بالعــــيــــون تقــرّبا

وكان بعض الفقراء يوماً بمنى ، رأى الناس يقربون قرباناتهم ، وكان فقيراً لا شيء له من الدنيا ، فقال : «يا رب كل قد وهبته شيئاً يتقرب به إليك ، وليس عند عبدك الفقير سوى نفسه ، وقد جعلتها في هذا اليوم قرباناً إليك فاقبلها مني ، ولا ترد قرباني في وجهي ، إنك جواد كريم» ، فمات من حينه ، وهو واقف .

---

(١) كذا وردت وحقها أن تكتب «صاف» .

(٢) في هذا البيت نقص واضح وأنا لا أعرف قائله ، هذا وقد أورده الشيخ مع قصة الفتى التالية في السفر السابع من الفتوحات في الفقرة ٩٧.

وقوله (إنها من فتيات) ، البيت بكماله ، يقول : إنها من المعارف المحمدية ، وإن كان أصلها أعجمياً ، فإن الله يقول لما ذكر الأنبياء في القرآن ، قال الله تعالى لنبيه عليه السلام : ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾[1] ، والعجمية في الوضع بالأصل اقدم من العربية ، ويجمعها الكلام ، والعبارة المعجمة متقدمة ، فلهذا قال (من الفرس أصلاً) .

وقوله (نظم الحسن) ، البيت بكماله ، يقول : إن فهوانيتها معشوقة لها نور عظيم ، عندما تتجلى لمناجاتها . والمها هنا ، حجر شفاف أبيض ، شُبِّه الثغر به ، لما وصفها وصف الجواد .

ثم قال :

رابني منها سفورٌ راعني
عنده منها جمالٌ وبها
فأنا ذو الموتتين منهما
هكذا القرآن قد جاء بها

كانت العرب ، إذا حسرت المرأة النقاب عن وجهها لأحد لغير شيء ، عرف ذلك أن الشر ورائها في حقه ، فيحذر وينظر لنفسه .

وقال الشاعر :

«وقد رابني منها الغداة سفورها»[2] ، يقول إن هذه النكتة ، التي تعشق بها العلوية ، رأت قد أقام منازعها ، في حضرة التمثل ما يناسبها في الصورة ، ميزاناً

(١) انظر سورة الأنعام ، الآية رقم ٩٠.

(٢) عجز بيت في قصيدة لتوبة بن الحمِّير صاحب ليلي الأخيلية التي عرف بها وهو من عشاق العرب ، عشق ليلى ورفض أبوها أن يزوجه بها فواظب على زيارتها حتى أهدر دمه ، قتل في غزوة سنة ٧٠٤. أما القصيدة فيقول مطلعها :

حمامة بطن الواديين ترنّمي
سقاك من الغرّ الغوادي مطيرها

إلى أن يقول :

وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت
فقد رابني منها الغداة سفورها

بالميزان ، فعلمت أنه يريد أن تخدعه بذلك ، ليتعشق بتلك الصورة ، فيحجب عن هذه التي فيها سعادته ، فغارت عليه لأمرين ، شفقةً عليه ، لئلا يجهل فيشقى ، ولأنها أيضاً ، يتعطل أثرها إذا راحت عنه بقبوله لتلك ، فإن العلم بالشيء يقابل الجهل به ويضادّه ، فتسفر عن وجهها أعلاماً ، وليزيد تعشقاً ، فلهذا قال (جمال وبها) .

وقوله (ذو الموتتين) ، الموتة الأولى عن الأغيار ، والثانية عن نفسه ، فيبقى معها بها لا به .

وقوله عن مجيء القرآن بها يريد قوله : ﴿أمتنا اثنتين﴾[1] .

قلت ما بالُ سفورٍ راعني
موعد الأقوام إشراق المها

قلت إني في حمى من فاحم
ساتراً فلتة رسليه عندها

في البيت الأول ، ضمير محذوف ، دلَّ عليه المفهوم ، كأنه يقول ، قالت (موعد الأقوام إشراق المها) ، يعني ظهور الشمس ! نبّهت على أن العدو الذي ذكرناه المعدُّ له صورة مثلها ، مستعدٌّ عنده تجلي ذات هذه المحبوبة له ، يقيم هو تلك الصورة ، وهو الذي كنى عنها بإشراق المَها ، يعني ظهور ذاتها له ، من حيث يريد تحصيلها ، فقال لها ما عليَّ منهم ، فإني في حمى من عصمتك ، فتخفيني في سرادقات غيبك ، فلا يصلون إليَّ ، كما قيل في حقِّ الرسول ، عليه السلام : ﴿فإنه يسلك من يديه ومن خلفه رصدا﴾[2] .

كل هذا حتى لا يلتبس عليه في الإلقاء وهو الذي أردنا بقولنا :

(تنزلت الأملاك ليلاً على قلبي
ودارت عليه مثل دائرة القلب)[3]

(١) انظر سورة غافر ، الآية رقم ١١.
(٢) انظر سورة الجن ، الآية رقم ٢٧.
(٣) لم أجد هذا البيت في ديوانه .

شـــعـــرنا هذا بلا قـــافـــيـــة

إنما قـــصـــدي منه حـــرف ها

غـــرضي لفظت[1] ها من أجلهـــا

لست أهوى البـــيـــع إلاّ ها وها

يقول : ما لنا تعلّق إلاّ بها ، ولا بالكون إلاّ من أجلها ، بشرط أن تكون ظاهرة فيه بأية مناسبة كانت . كما قال الأول :

(أحبّ لحـــبـــهـــا الســـودان حـــتى

أحبّ لحـــبـــهـــا ســـود الكلاب)[2]

وكما قلنا في صاحب لنا ، حبشي ، اسمه بدر :

(أحبّ لحـــبك الحـــبـــشـــان طرًّا

وأعـــشق لاســـمك البـــدر المنيـــرا)[3]

وأما قولنا (بلا قافية) ، فإن القافية عند أكثر أهل هذا الشأن ، في القصيدة التي يكون أواخر أبياتها هاء الإضافة ، أوضاعها إنما هي في الحروف التي قبلها ، وهنا لم يلتزم ذلك ، فعلى هذا المذهب ، قلنا إنه بغير قافية ، وقد قيل خلاف ذلك .

ولا أنـس يـومـــــاً عـنـد وانـة مـنـزلـي

وقـــــولـي لـركـب رائـحـين ونـزّل[4]

أقـيـمـوا علينا سـاعـةً نشـتـفي بهـا

فـــــإني ومـن أهـواهـم فـي تـعـلـل

(١) كذا وردت وحقها أن تكتب «لفظة» .

(٢) هذا البيت لابن الأعرابي الصوفي لا اللغوي (انظر أعلام الزركلي) .

(٣) هو «الولد» بدر الحبشي المذكور في مقدمة الديوان ، وأما البيت فلم أجده في ديوانه .

(٤) أحسب أن المراد «وأبة» والوأبة نقرة تعمل في الصخر لجمع الماء وهي هنا بالسياق أشبه ، أما الوأنة وألوانة فتصحيف لا يناسب .

يقول : (ولا أنس يوماً) ، وقوفي في مقام التقصير ، والاعتراف بالقصور على ما ينبغي من التعظيم لجلال الحضرة الإلهية .

و(قولي لركب) الأبرار والمقربين .

(الرائحين) في مرضات الحبيب ، والتنزل في مقام الوقفة ، للارتحال بعد نيل ما نزلوا له .

(أقيموا علينا ساعة نشتفي بها) ، بالنظر إلى السعداء ، أهل العناية والوجد ، (فإني في تعلل) يقول : أعلل نفسي بذكرهم ، لما نجده من الشوق إليهم .

والواو من (ومن أهواهم) واو القسم بهم ، تعظيماً ، وحتى لا يكون ذكره إلاَّ هُم في قسمه ، وهو أيضاً من باب التعلل بذكرهم ، والتقدير : فإني وحق من أهواهم ، في تعلل بذكرهم ، والساعة هنا قدر ما تقع به الراحة في إقامتهم ، ولو كانت سنة .

فإن رحلوا ساروا بأيمن طائر
وإن نزلوا حلّوا بأخصب منزل

وبالشعب من وادي قناة لقيتهم
وعهدي بهم بين النقا والمشلل

يراعون مرعى العيس حيث وجدنهُ
وليس يراعوا قلب صبٍّ مضلل

يقول : (فإن رحلوا ساروا بأيمن طائر) ، أي يقال ، حسن في وقت سعيد .

(وإن نزلوا) ، يقول : وإن أقاموا فأبذل جهدي في خدمتهم .

يقول (وبالشعب) طريق في الجبل ، والله يقول : ﴿والجبال أوتادا﴾[1] ، والأوتاد أربعة في العالم .

يقول : ولقيتهم في هذا المقام متبرزين .

(١) انظر سورة النبأ ، الآية رقم ٧.

وقوله (من وادي قناة) ، من بطن طيبة ، يقول إنهم محمديون موحدون .

(وعهدي بهم بين النقا والمشلل) وهو ماء بفديك[1] حيث كانت مناه[2] .

يقول (وعهدي بهم) ، في رؤية الوسائط والأسباب ، ينظر إلى قوله : ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾[3] . ثم قال (يراعون مرعى العيس) يقول : مطالب الهمم ومقاصدها ، يراعونها حيث وجدانها ، ولا يراعون قلباً مائلاً إليهم ، حائراً تائهاً في هواهم !

وقال رضي الله عنه :

فيا حادي الأجمال رفقاً على فتىً
تراه لدا التوديع كاسر حنظل
يخالف بين الراحتين على الحشا
يسكن قلباً طار من صرّ محمل

يخاطب داعي الحق ، الذي يدعوهم إلى دار السلام . و(الأجمال) الهمم .

(رفقاً على فتىً) وصف نفسه بالفتوة ، ليرعاه ويشفق عليه ، وينبهه على مقام الفتوة ، ليعامله بها ، كما قال عليه السلام : «ما كان الله لينهاكم عن الربا ويأخذه منكم»[4] فهو أولى بكل ما يدعوه إليه من مكارم الأخلاق . ثم وصف حاله عند الفراق بحالة الذي يكسر الحنظل في تمَعُّرِ وجهه ، كما قال امرؤ القيس[5] :

---

(١) فديك : قيل موضع ، وفديك تصغير فدك وهي قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة ، أفاءها الله على رسوله عليه السلام صلحاً فيها عين فوّارة ونخل (عن مراصد الإطلاع لصفي الدين البغدادي) ، أما الحميري فلا يعرف إلاّ فدكاً .

(٢) إحدى آلهة العرب وقد ورد ذكرها في القرآن مع اللات والعزى (انظر سورة النجم ، الآية ١٩) .

(٣) انظر سورة الزمر ، الآية رقم ٣.

(٤) أورد الشيخ هذا الحديث بلفظ مختلف : «إن الله لا ينهى عن الربا ويأخذه منّا» في الفقرة ٦١١ من السفر الثامن من الفتوحات المكية .

(٥) البيت في المعلّقة ولكن حق «لدى» أن لا تكتب كما وردت «لدا» ، أما امرؤ القيس فهو الشاعر الجاهلي المعروف وصاحب المعلّقة الشهيرة التي تبدأ بقوله «قفا نبك» توفي في أنقره مسموماً حوالى العام ٥٤٠م .

كـــأني غـــداة البين يوم تحـــملوا
لدا ســـمـــرات الحيّ ناقف حنظل

وقوله (يخالف بين الراحتين على الحشا) ، مثل الصليب ، يشير إلى اختلاف الحالات ، فيمسك جانب اليمين بالشمال ، وجانب الشمال باليمين ، ليسكّن خفقان قلبه ، مما يجده من ألم مفارقة الجنس ، وهو يمسكه ، لأجل المسمى ، عن اللحاق بهم . والصرّ والصرير ؛ الصوت ، فإنه لا يكون له صرير إلاّ عند السير . وطيران قلبه ، يريد برحلته خلفهم ، لمنزلة[1] البازي المربوط في الكندرة ، فهو يطير شوقاً إلى الانفساح في فسحات الأطباق الجوية ، والرباط بالكندرة يمسكه ، كذلك رباط لطيفته ، بتدبير هذا الهيكل ، الذي هو بمنزلة الكندرة للبازي ، يمسكه إلى أن يأتي أمر الله .

ثم قال :

يقـــولون صـــبـــراً والأسى غـــيـــر صـــابر
فـــمـــا حـــيلتي والصـــبـــر عني بمعـــزل

فلو كـــان لي صـــبـــر وكنت بحكمـــة
لما صـــبـــرت نفـــسي فكيف وليس لي

يقـول : لما رأى المقـربون والأبرار ، شـوقي إليهـم ، وحسـبي[2] في ظلمـة عالم الأجساد ، قالوا لي (صبراً) على ما نالك إلى أن يصل وقتك .

فقال لهم إن (الأسى غير صابر) يقول : إن الحزن لو صبر عني ، ولا نزل بي ، صبرت ، فهو لا يصبر ! فكيف اصبر عنكم (وصبري عني بمعزل) ، وليس لي حيلة في تحصيله ، فإني تحت حكم سلطان الوجد؟ ثم إنه لو حلّ بي صبر ، وكان الصبر يحكم عليّ لما صبرت ، فإا الشوق إلى الحضرة الإلهية ، ذاتي للعارف ، والصبر عرضي ،

(١) كذا وأحسب أن المراد القول «بمنزلة» ، أما «الكُندُرة» فمكان من خشب يهيّأ من خشب أو نحوه للبازي فيقعده عن الطيران .
(٢) كذا وأحسب أن المراد القول «حبسي» .

وإنّي يقاوم العرضي الذاتي؟ فما كنت اصبر ، فكيف والأمر على هذا الحد من كون (الصبر عني بمعزل)؟ فكيف وليس لي صبر؟ فلا ملام على من هذه حالته .

وقال رضي الله عنه :

طلع البــــدر في دجى الشـــــعــــر

وســـــقـى الورد نـرجـس الحـــــور

غـــــادة تاهت الحـــســـــان بـهـــــا

وزهـا نـورها عـلـى الـقـــــــمــــــــر

شبه التجلي (بالبدر) كما ورد في الخبر ، وشبه الغيب (بالدجى) .

و(الشعر) من الشعور ، وهو العلم الخفي ، فكأنه يقول : ظهر الجليّ في الخفيّ ، كظهور الخفيّ في الجليّ ، كما تقول : وجود الحق في الخلق وجود الخلق في الحق .

(وسقى الورد) ، يعني حمرة الخدّ .

(نرجس الحور) ، يريد العين بما ترسله من الدموع ، فيقع على حمرة الخدود ، فيكون كالروضة سقتها السماء ، والعرب تشبه العيون بالنرجس الأبيض الذي في وسطه صفرة . فكأنه يقول : وسقى المشهد الذاتي والاسم الجامع ، روضة الأسماء الإلهية ، فإنها ناظرة إليه وهو مهيمن عليها .

وقوله (غادة) يعني الصفة الجامعة التي وصفها بالبدر .

وقوله (تاهت الحسان بها) يعني توابعها من الأسماء .

(وزها نورها) يعني : وتكبر نورها على نور القمر ، وإنما أوقع التشبيه بالقمر ، للتقريب على الإفهام ، لا من جانب التحقيق .

ثم قال :

هــي أسـنــى مــن المـهـــــــــاة سـنـــا

صــــــورة لا تـقـــــاس بـالـصــــــور

قبس ١٣٧٤

فلك النور دون أخمصها[1]

تاجها خارجٌ عن الأكر

يقول : وهي أعظم نوراً من الشمس ، ولو وقع التشبيه بها .

وقوله (صورة لا تقاس بالصور) ، يريد معنى قوله : ﴿ليس كمثله شيء﴾[2] ، على زيادة الكاف ، وجاء بلفظ الصورة ، لورود الأخبار في ذلك ، فكيف فيما أشرنا إليه من هذه المعرفة الذاتية ، التي تحصل للعبد ، من حيث المشاهدة والكشف؟

وقوله (فلك النور دون أخمصها) ، البيت بكماله ، من أراد معناه يعرف قوله تعالى : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾[3] والحديث المروي[4] :

«أين كان الله قبل أن يخلق العرش؟

قال : كان في عماء ، ما فوقه هواء وما تحته هواء» .

فأقرب شيء من المعاني لهذا البيت معنى هذه الآية والخبر .

ثم قال :

إن سرت في الضمير يجرحها

ذلك الوهم كيف بالبصري[5]

لعبة ذكرنا يذوبها

لطفت عن مسارح النظر

المعنى في نسبة الجرح إليها عند سريانها في الضمير ، هو ما يتخيله الوهم في الجناب الأعز ، من التصور ، فذلك جرح فيه ، والوهم ألطف من الإدراك الحسي ،

(١) الأخمص هو ما لا يصيب الأرض من باطن القدم وهو من البدن وسطه إلا أن الأول هو المراد .

(٢) انظر سورة الشورى ، الآية رقم ١١.

(٣) انظر سورة طه ، الآية رقم ٥.

(٤) هو حديث تجده عند الترمذي في تفسير سورة هود ولدى ابن ماجة في المقدمة رقم ١٣.

(٥) كذا وحق القافية أن تكتب «بالبصر» .

فهي منزهة عن إدراك الألطف ، فكيف بالبصر ، الذي هو أكثف؟ ولهذا يقال في العقائد في جناب الحق : «كل ما خطر في سرّك ، وتلجلج في صدرك ، أو حصره وهمك ، فالله بخلاف ذلك» .

وقوله (لعبة) من حيث فرح القلوب بها ، عند نزولها إليها من حيث ما هي القلوب عليه ، لا من حيث ما هي .

وقوله (ذكرنا يذوبها) ، أي إذا وقع الذكر عليها ، لم يجدها ، لكون ذلك الذكر لا يناسب لطفها ومعناها .

وقوله (لطفت) أي دقّت ، أي عن مجاري الفكر ، فلا تدرك بالأفكار .

طلب النعت أن يبينها[1]

فتعالت فعاد ذا حصر

وإذا رام إن يكفيها[2]

لم يزل ناكصاً على الأثر

إن أراح المطيّ طالبها

لم يريّحنيوا[3] مطية الفكر

يقول : لا تدرك بالنعوت والأسماء الواردة عليها ، فعاد النعت ذا حصر ، لأنه لم يجد محلاً يقبله ، فإذا جاء الخيال بتكييفه ، ليحمله عليها ، لم يقبله ، فارتد على عقبه راجعاً . وإذا كلت الهمم ، التي هي المطايا ، من العارفين ، في طلبها ، لوقوفهم على عجزهم في ذلك ، ولأنها لا تنال بالسعايات ، لم ترح العقلاء ، الذين يزعمون إن الله يُعْرَف بالدليل ، مطية فكرهم ، في استخلاص العلم بها ، جهلاً منهم بما يعطيه المقام الأعلى .

(١) كذا وأحسب أن المراد «يبينها» .

(٢) كذا وردت وأحسب أن المراد «يكيّفها» .

(٣) كذا وردت ، والصواب «لم تُرَح» .

ثم قال :

روحنت كل من أشبّ بها

نقلته عن مراتب البشر

غيرةً أن يشاب رايقها

بالذي في الحياض من كدر

يقول : إن كل من تعلق بها ، تعلق عشق ومحبة وتخلق ، نقلته عن مراتب البشر ، إلى مقام التحول في الصور ، الذي هو الأرواح المجردة ، وللمقام الإلهي في التبدل والتحول في الصور ، في الدار الآخرة ، وهذا خارج عن طبيعة البشر .

وقوله (غيرةً أن يشاب رايقها) ، خلوص روحانيتها ، أن يخلط بالذي في عالم الأجسام من كدر الطبيعة وظلمها .

وقال رضي الله عنه :

أحبابنا أين هم

بالله قولوا أين هم

كما رأيت طيفهم

فهل تريني عينهم

قوله (أحبابنا) ، يريد الأرواح العلوية ، بالأينية اللائقة بهم ، فإن الأينية لغير المتحيّزات كالأينية التي سأل النبي[1] ، عليه السلام ، بها للسوداء الخرساء .

وأخذ يقسم ، على المسؤولين ، عليهم ، بالله الاسم الجامع (أين هم؟) والجواب : هم في قلوب محبيهم ! .

وقوله :

(كما رأيت طيفهم) ، يريد تجليهم في عالم التمثل والصور .

(فهل تريني عينهم) ، يريد حقيقتهم ، في عالم اللطف والمعاني من غير تجسد .

(١) تقدمت الإشارة إلى هذا الحديث .

ثم قال :

فكم وكم أطلبهم
وكم سألت بينهم
حتى أمنت بينهم
وما أمنتُ بينهم

يقول (وكم طلبتهم) لأظفر بهم ، وأنتظم في سلكهم ، بالتخلص مما أنا فيه ، (وكم سألت بينهم) ، أي وصلهم ، والبين هنا الوصل ، قال تعالى : ﴿لقد تقطع بينكم﴾[1] بالرفع ، أي وصلكم .

وقوله (حتى أمنت بينهم) ، أي بعدهم ، والبين البعد وهو من الأضداد .

(وما أمنت بينهم) ، من البينية ، وعدم الأمر من أن يحترق بأنوارهم ، إذا كان بينهم لضعفه وقوتهم .

ثم قال :

لعل سعدي حائل
بين النوى وبينهم
لتنعم العين بهم
فلا أقول أينهم

يقول : لعل عناية إلهية سبقت لي في القدم ، تحول بين البعد وبينهم ، وأدركهم فأظفر بالمطلوب ، وتنعم عيني بمشاهدتهم ، فلا أقول بعد ذلك «أين هم؟» لحضوري عندهم وحضورهم عندي .

ثم قال[2] :

بين الحشا والعيون النجل حرب هوىً
والقلب من أجل ذاك الحرب في حرب

(١) انظر سورة الأنعام ، الآية رقم ٩٤.
(٢) انظر للمقارنة فقط بائية أبي تمام في فتح عمورية .

لمياء لعساء معسول مقبلها
شهادة النحل ما يلقى من الضرب
ريا المخلخل ديجور على قمر
في خدّها شفقٌ غصن على كثب

يقول : بين عالم الأخلاط والتداخل والمناظر العلى ، حرب هوى لافتقار هذا العالم إليها وتعشقها بها ، إذ لا حياة لها إلاّ بنظرها إليها ، ولا حجاب لقلوب العارفين عن إدراك المناظر العلى ، إلاّ هذا العالم الطبيعي ، والمناظر العلى متأهبة لإدراكات قلوب العارفين ، وعالم الطبيعة يحجبها عن إدراك تلك المناظر ، فلا تزال المحاربة بينهما ، لكن القلب بين ذلك في حرب وفي شدة ، لفقده وعدم وجوده مع وجود وجده .

وقوله (لمياء) ، يشير إلى حكمة علوية ، من تلك المناظر ، وصفها بسمرة الشفة ، إشارة إلى ما عنده من الأمور الغيبية طيبة المذاق ، وذكر شهادة النحل ، لأنها من الجنس الذي له ذوق في الوحي ، الذي هو مطلوب القلوب .

(والضرب) العسل الأبيض ، فجعل العسل دليلاً عد[1] ما يدعيه النحل من الوحي إليها المُشَاكِل لما تلقيه .

وقوله (ريا المخلخل) يقول ممتلية الساق ، أي عظيمة من قوله تعالى : ﴿يوم يكشف عن ساق﴾[2] ، أي عن أمر فظيع ! فوصفها بالعظمة .

وقوله (ديجور على قمر) ، أي غيب وراء مشاهدة .

(في خدّها شفقٌ) يشير إلى مقام الحياء .

(غصن على كثب) ، يريد القيومية الظاهرة في كتب التجليات .

(١) كذا والصواب «على» .
(٢) انظر سورة القلم ، الآية رقم ٤٢ .

حسناء حالية ليست بغانية
تفتر عن برد ظلم وعن شنب
تصدّ جداً وتلهو بالهوى لعباً
والموت ما بين ذاك الجدّ واللعب

يقول : لها مقام الجمال ، من اسمه الجميل .

(حالية) مزينة بالأسماء الإلهية ، ليست بغانية . يقول : لم يقتضها[1] أحد ، لأن الغانية هي المرأة التي لها زوج : ﴿لم يطمثهنّ أنس قبلهم ولا جانّ﴾[2] .

وقوله (تفتر عن برد) ، يقول : تمتن بما يبرد الأكباد من لهب الشوق .

(والظلم) ، بريق الأسنان ، يريد صافية المشهد .

و(الشنب) طيب ذلك المشهد وحسنه .

وقوله (تصد جداً) ، لما كانت عزيزة المنال عن الادارك ، كنى عن ذلك بالصد ، ولما كان الأمر حقيقة في نفسه ، أعني عزتها ، جعله جداً لا هزلاً .

وقوله (وتلهو بالهوى) ، أي تجعله في قلوب المحبين وتعلقه بها ، مع كونها تعرف أنه ما يحصل لهم منها شيء ، فأنزلته منزلة اللهو ، وقوله (والموت ما بين ذاك الجد واللعب) يقول إن المحب يموت ويقاسي الآلام بين هاتين الحالتين .

ثم قال :

ما عسعس الليل إلاّ جاء يعقبه
تنفس الصبح معلومٌ من الحقب
ولا تمرّ على روض رياح صبا
تحوى على كاعبات خرّد عرب
إلاّ أمالت ونمت في تنسمها
بما حملن من الأزهار والقضب

(١) كذا والصواب «يفتضها» والافتضاض يحدث للبكر العذراء .
(٢) انظر سورة الرحمن ، الآية رقم ٥٦.

يقول : ما يبطن أمر إلاّ ويظهر مقابله ، ولا يظهر أمر إلاّ ويبطن مقابله أبد الآباد ، ولاسيما ، وقد يسمي الحق سبحانه ، أزلاً ، بأنه الظاهر الباطن ، ولا يحمل على محمل النسب والإضافات ، هذا هو حد النظر العقلي من طريق التنزيه ، وإنما ينبغي أن يحمل على أنه أمر ذاتي ، هو عين المطلوب الموصوف بالوجه الذي يليق وتعرفه من نفسه . وقوله (ولا تمر) ، أرواح التجليات على روض القلوب الحاوي على الحكم اللطيفة والمعارف الحسية الحاصلة من مقام الحياء والجمال .

(إلاّ أمالت) يريد عطف القيومية على القائمين بالأكوان .

(ونمت) أي وصّلت إلى أسماع القلوب ما عندها من لطائف الحكم ، في تنسمها في هبوبها بما حملن من الأزهار ، يريد نشر المعارف .

(والقضب) مراتب القيومية ، من قوله تعالى : ﴿**أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت**﴾[1] .

ثم قال :

سألت ريح الصبا عنهم لتخبرني
قالت ومالك في الأخبار من إرب

في الإبريقين وفي برْك العماد وفي
برك العميم تركت الحي عن كثب

لا تستقلّ بهم أرض فقلت لها
أين المفرّ وخيل الشوق في الطلب

يقول : سألت الأرواح التي تعطي الشروق ، لتخبرني عن منازل الأحبة ، كما قال ، ونمت في تنسمها ، فقالت : وما لك بذلك من حاجة ! الجواب محذوف ، ثم قالت : هذه الريح تركتهم (في الإبريقين) مشهدين للذات من حيث الشاهد ومن حيث المشهود ، فمن حيث الشاهد ؛ يحصل في القلب أثر معرفة ، ومن حيث المشهود ؛ لا يجد عند الرجوع أمراً ينضبط له ، بل يزول بزوال التجلي .

(١) انظر سورة الرعد ، الآية رقم ٣٣.

قوله (في برك العماد والعميم) ، يريد المقاصد ، لأنها أماكن بأرض الحجاز ، والحج القصد على التكرار .

قوله (عن كثب) ، عن قرب كما قال عليه السلام في المطر لما نزل ، ظهر له بنفسه صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى أصابه[1] منه وقال : «إنه حديث عهد بربه»[2] ، فهذا معنى عن كثب .

وقوله (لا تستقل بهم أرض) ، أي لا يثبتون على حال ، يشير إلى التمكن في مقام التلوين ، وهو أرفع المقامات عند المحققين .

وقوله (أين المفر) ، يقول : إن كان عدم الثبوت لهم على حال حتى أعجز وأرجع عن الطلب ، فلا أفعل فإن خيل الشوق مني في طلبهم ، ما دمت ودامو ا ، والدوام لنا دائم ، فالشوق والطلب دائم سواء ثبتوا بمقام أو لم يثبتوا .

هيهات ليس لهم معنىً سوى خلدي
فحيث كنت يكون البدرُ فارتقب

أليس مطلعها وهمي ومغربها
قلبي فقد زال شومُ البان والغرب

ما للغراب نعيق في منازلنا
وما له في نظام الشمل من ندب

قوله (هيهات ليس لهم معنى) ، البيت بكماله ، يريد قوله عليه السلام عن ربه : «ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن»[3] ، فهو محل المعرفة بالله ، ومجلى التجلي الإلهي .

وقوله (أليس مطلعها وهمي؟) ، يريد حين تجليها في الصور في عالم التمثل ، (ومغربها قلبي؟) ، يريد السعة التي ذكرناها ، وهي المعرفة بالله .

(١) كذا وعندي أن المراد «أصاب منه» .
(٢) أخرجه مسلم في كتاب الاستسقاء .
(٣) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث الشريف .

وقوله (فقد زال شؤم البان والغرب) ، فإن الغرب تتشاءم بالبان لأنه من البين ، والغرب من الغربة ، كما قال :

(تعد الطائرات لبين سلمى
على غصنين من غرب وبان
فكان البان أن بانت سليمى
وفي الغرب اغتراب غير دان)[1]

وقوله (ما للغراب نعيق في منازلنا) ، البيت بكماله ، يقول : وإن الناس يتشاءمون بنعيق الغراب ، وإنه من مبشرات البين ، وشتات الشمل ، وهنا[2] لا يتصور فإن الذي أهواه في قلبي ، فليس لأسباب البين فيه ندب ، أي ليس له أثر في تفريق الشمل فإن الحقائق تعطي ؛ أن لا حجاب بعد التجلي ولا محو بعد الكتابة في القلب .

وقال رضي الله عنه :

حمامة البان بذات الغضا
ضاق لما حملتنيه الفضا

يخاطب الحكمة المنزهة (بذات الغضا) ، الكائنة بأحوال المجاهدات والرياضيات ، كنى عنها بالغضا .

وقوله (ضاق لما حملتنيه الفضا) ، أراد ما أريد بقوله في الأمانة المعروضة : ﴿**فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان**﴾[3] والذي أراداه القائل أيضاً بقوله :

---

(١) هذان البيتان هما لجَحْدر العُكلي وهو شاعر من أهل اليمامة توفي حوالي ٧١٨م ، وللبيتين ثالث ، والثلاثة كالتالي :

وقدماً هاجني فازددت شوقاً
بكاء حمامتين تجاوبان
تجاوبتا بلحنٍ أعجمي
على عودين من غرب وبان
فكان البان أن بانت سليمى
وفي الغرب اغتراب غير داني

(٢) أرى أن الأولى القول «وهذا لا يُتصوّر» .

(٣) انظر سورة الأحزاب ، الآية رقم ٧٢.

(ضـــــاحـك عـن جـــــمـــــان
ســـــــافـــــــــر عــن بــدر
ضـــــــاق عـنـه الـزمـــــان
وحــــــــــواه صــــــــدري)[1]

ثم قال :

مـن ذا الذي يـحــمـل شــجــو الـهــوى
مـن ذا الـذي يـجـــرع مُـــرَّ الـقـــضــــا
أقــــول مـن وجـــــدٍ ومـن لـوعــــة
يـا بـيـت مـن أمـــــرضـنـي مـــــرضــــا
مــــرَّ بـبـــاب الـدار مـــــســــتـــهـــزئـاً
مـسـتـخـفـيـاً مـعـتـجـراً مـعـرضـا
مــــا ضــــرَّني تـعـــجـــيـــره إنـمـا
أضــــرَّ بـي مـن كـــــونـه أعــــرضـــا

يقول : من ذا الذي يحمل الآم الهوى؟ ومن ذا الذي يقدر يجرع مرّ ما يقضي به الله من الأمور التي لا تلائم لطبيعة النفس ، لا[2] بمعرفة كاملة تحجبه عن تلك المرارة ، كما يحجب الدواء المرّ بما يلقى فيه من الحلاوة ، ليسوغ لشاربه ، لتحصل المنفعة .

ثم قال : (أقول من وجد) ، أي حزن ، ومن لوعة حرقة الهوى ، بالبيت[3] من كان سبباً لمرضي ، يلتزم تمريضي وسياستي ، فيكون شفائي وشغلي به عن مرضي بمشاهدته .

---

(١) مطلع لموشح للأعمى التطيلي الإشبيلي ، أحمد بن عبدالله بن أبي هريرة ، وهو التطيلي مولداً والإشبيلي هجرة ، ويلقب بالأكبر تمييزاً له عن تطيلي قرطبي إشبيلي آخر يلقّب بالأصغر . الموشح في ديوانه وفي ديوان الموشحات وفي الذخيرة لابن بسام : .الخ .

(٢) كذا وحقها أن تكون «إلا» .

(٣) كذا وأحسب أن المراد «يا ليت» .

وقوله (مرّ بباب الدار) ، يريد الخواطر الإلهية التي تخطر له من جانب الحق من غير حلول ولا إقامة ، بل هي بروق تلوح .

وقوله (مستهزئاً) من قوله : ﴿الله يستهزئ بهم﴾[1] ، فلا بدّ من صفات تكون في القلب تعطي حالة استهزاء ، وهي مشهورة عند القوم .

وقوله (مستخفياً) ، يقول : في الغيب .

(معتجراً) إشارة إلى الحجب .

(معرضاً) يقول ينبه على الصفة التي حجبته عني .

وقوله (ما ضرّ بي تعجيره) ، يقول : لا أنكر الحجب ، فإنه لا بد منها ، وإنما الضرر الذي وجدته في الإعراض ، فعلمت أن عندي صفة تقتضي ذلك الإعراض ، ولا أدري ما هي فأزيلها ، إلاّ أن ينبهني الله عليها ، ويوفقني إلى معرفتها ، فأسعى في زوالها فيكون القبول .

يا حادي العيس بسلع عرِّج
وقف على البانة بالمدّرج
ونادهم مستعطفاً مستلطفاً
يا سادتي هل عندكم من فرج
برامة بين النقا وحاجر
جاريةٌ مقصورةٌ في هودج

يخاطب داعي الحق للهمم الطالبة معرفته وشهوده .

وقوله (بسلع) يريد بمقام الإحرام اليثربي .

(عرِّج) أي أقْبِلْ !

وقوله (وقفْ على البانة) ، يقول : وأظهر لي في مقام القيومية والعطف .

(١) انظر سورة البقرة ، الآية رقم ١٥.

(بالمدرج) يقول على التدريج ، لا تلقي[1] إلى الأمر دفعة واحدة فأهلك ، لكن حالاً بعد حال ، ومقاماً بعد مقام ، مخافة الدهش والحيرة .

وقوله (ونادهم) يريد الأسماء الإلهية بلسان الاستعطاف .

(هل عندكم من فَرَج؟) أي من شفاء لما نالني في هواها .

وقوله (برامة) منزل من منازل التجريد والتفريد .

وقوله (بين النقا وحاجر) ، يقول : بين الكثيب الأبيض وبين الحجاب الأحمى المحجوب على القلوب .

ينله[2] (جارية) يقول معرفة ذاتية أحدية .

(مقصورة) محبوسة في هودج . يقول : يُشَارُ بها ، أي أنها في قلوب العارفين ، والقلوب لها كالهودج ، ومراكب القلوب كالإبل تحت الهوادج .

ثم أخذ يصف هذه المعرفة الذاتية :

يا حسنها من طفلة غرتها
تضيء للطارق مثل السرج
لؤلؤة مكنونة في صدف
من شعر مثل سواد السبج[3]

يقول (يا حسنها من طفلة) ، أي ما أنعمها .

و(غرتها) تجليها في نورها .

(تضيء للطارق) الآتي ليلاً ، يريد أهل المعارف والإسرآت[4] .

(مثل السرج) ليُهْتَدى بها في ذلك المعراج .

---

(١) كذا والصواب «لا تلق» .

(٢) كذا وأحسب أن المراد «قوله» .

(٣) السبج هو الخرز الأسود واحدته سبجة وهو فارسي معرّب .

(٤) كذا وحقها أن تكتب «الإسراءات» .

وقوله (لؤلؤة) أي شريفة مكنونة .

يقول محجوبة (في صدف) من شعر ، في حجاب الغيب المشعور به ، ولهذا يصح طلبها لأنه ما لا يُشعر به لا يصح أن يُطلب ولا تتعلق به همة .

ثم قال :

لؤلؤة غـــواصــــهـــا الفكر فـــمـــا
تـنـفـك فـي أغـــــــوار تـلـك الـلـجـج

يحـــســـبـــهـــا ناظرها ظبي نقـــا
من جـــيـــدها وحـــسن ذاك الغنج

يقول : إن الفكر يغوص في لجة بحرها ، ليستخرج هذه اللؤلؤة ، وهي لا تخرج بالفكر ، فالفكر لايزال غائصاً أبداً ، وهؤلاء هم أهل الأفكار الطالبين تحصيل هذه الأمور من باب النظر والاستدلال ، وهيهات لما يطلبون ، وبعداً لما يرومون ! والله ما تحصل إلاَّ بعناية مجردة وسر فارغ عن الأفكار ، لأنها لا تُنال بالسعايات ، ولكن بالعنايات الإلهية حصولها ، فإذا حصلت يحسبها ، إذا كان تجليها في حضرة التمثل (ظبي نقا) في التفاتها إليه في الكثيب الأبيض ، وفي حسن كلامها وخطابها ، الذي كنى عنه بالغنج .

ثم قال :

كـــأنهـــا شـــمس ضـــحىً في حـــمل
قـــاطعـــةً أقـــصى مـــعـــالي الدرج[(١)]

إن حـــســـرت برقـــعـــهـــا أو ســـفـــرت
أزرت بـأنـوار الـصـــــبـــــاح الأبـلـج

يقول : (كأنها شمس ضحىً في حمل) بيت شرفها ، يريد تجليها في مقام العزة والكبرياء . وقوله (قاطعة أقصى معالي الدرج) ، يقول : إشارة إلى ما يجده الناظر في نفسه من الزيادة والعظمة والكبرياء والعزة ، في إدامة النظر .

(١) الحمل أحد الأبراج وحين تكون الشمس في الحمل تكون في «بيت شرفها» على حد تعبير أهل علم النجوم ، وأما الدرج فمصطلح فلكي هو في الأصل الدرجة وهي جزء من دورة الفلك .

وقوله (إن حسرت) أي إن رفعت الحجب ، وظهرت بوجهها طُمس كل نور لنورها .

ناديتها بين الحمى ورامة
من لفتىً حل بسلعٍ يرتجي
من لفتىً متيه في مهمة
مولّه مدلّه العقل شجي

يقول : (ناديتها) في وقت الحجاب ، بين حجاب العزة الأحمى ، وبين منازل التفريد . (من لفتىً؟) من الفتوة .

(حلّ بسلع) ، منزل من منازل الحرمة الإلهية ، قد تعلق رجاؤه به .

(من لفتىً متيه) ، أي حائر في عزتها وكبريائها .

(في مهمة في قفر) يريد حالة الانقطاع .

(مُوَلَّه) حيران .

(مُدَلَّه) سكران العقل .

(شَجٍ) محزون على ما فاته .

من لفتىً دمعته مغرقةٌ
أسكره خمرٌ بذاك الفلج
من لفتىً زفرته محرقةٌ
تيمه جمال ذاك البلج
قد لعبت أيدي الهوى بقلبه
فما عليه في الذي من حرج

يقول : (من لفتىً؟) ، يشير إلى مقام الفتوة من قوله تعالى : ﴿سمعنا فتىً يذكرهم يقال له إبراهيم﴾[1] .

(١) انظر سورة الأنبياء ، الآية رقم ٦٠.

وقوله (دمعته مغرقة) ، هو ما تعطيه المشاهدة من المعرفة ، ولذلك نسبها إلى الدمع . وقوله (مغرقة) ، أي من حصل في هذا البحر العرفاني فغرق ، يعرف بأنه بحر لا ساحل له .

وقوله (أسكره خمر) مع أنه ﴿لذة للشاربين﴾[1] ، وهو كل علم يعطي الابتهاج والسرور بالعلم بالكمال ، إذا حصل لهذه اللطيفة الإنسانية .

و(الفلج) تفرّق الأسنان ، وهي مراتب في المعرفة .

وقوله (من لفتيٍّ زفرته محرقة) ، يقول : اصطلامه محرق .

و(تَيَّمَه) تعبده .

و(البلج) ، تفرق الحاجبين ، وهو المقام الذي بين الوزيرين الإمامين[2] ، فكأنه يشير إلى مقام القطب .

وقوله (قد لعبت أيدي الهوى بقلبه) ، يقول : إنه في تصريف الهوى وتحت حكمه ، فما عليه في الذي يرومه ، على حسب ما وقع له في هواه ، وهو الذي ابتنى عليه الخاطر الأول .

(من حرج) ، يقول : من جناح ولا إثم .

ثم قال :

من لي بمخضوبة البنان

من لي بمعسولة اللسان

من كاعبات ذوات خدر

نواعم خرد حسان

---

(١) لعل الشيخ في تفسيره يلاحظ الآية رقم ٤٦ من سورة الصافات : ﴿يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين﴾ ، وسورة محمد الآية رقم ١٥ : ﴿وأنهار من خمر لذّة للشاربين﴾ .

(٢) هما عند الشيخ «شخصان أحدهما عن يمين الغوث ونظره في الملكوت ، والآخر عن يساره ونظره في المُلك ، وهو أعلى من صاحبه وهو الذي يخلف الغوث» ، هذا ويورد الجرجاني في تعريفاته تعريفاً يشبه ما تقدّم وكذلك يفعل الكاشي (انظر اصطلاح الصوفية للشيخ ، طبعة حيدر آباد الدكن) .

يريد (بمخضوبة البنان) : هو ما استترت به القدرة القديمة بالقدرة المحدث على مذاهب أهل النظر ، ولاختلافهم في ذلك ، فيقول من لي بها ، أي بتحصيل علم ما أحالوه من تحصيله ، لأقف على حقيقة الأمر ، وسبب طلبه لذلك هل يصح فيها تجلٍّ أم لا؟ وأنا أمنع ، وجماعة من أصحابنا والمعتزلة[1] لا تمنع ، وصوفية الأشعرية[2] متوقفة .

وقوله (من لي بمعسولة اللسان) ، يريد طيب الكلام .

وقوله (من كاعبات) ، أي تحمل علومها .

وصف (ذوات صون)[3] يريد الحجب والستر .

(نواعم) ما يعطونه من اللطافة ، وهو مقام الحياء والجمال .

ثم قال :

بدور تم على غصون

هنّ من النقص في أمان

بروضة من ديار جسمي

حمامة فوق غصن بان

يقول : لهن مقام الكمال والتمام ، الذي لا يعتريه نقص . ولا جرم[4] يريد أنهنّ بروضة منقطعة عن الروضات ، لانفرادها في صفتها وبها حمامة لطيفة روحانية نبوية ، ظهرت في القيومية المنزهة عن الاشتراك ، وهو مذهب بعض أصحابنا القيومية لا يتخلق بها .

(١) الجماعة المعروفة والتي اعتمدت المنطق والقياس في الكلام وتناولت مسائل العدل والتوحيد وصفات الله ، ومن أشهر رجالها واصل بن عطاء الذي كان مع الحسن البصري ثم تركه .

(٢) الأشعرية أو الأشاعرة ، فرقة من فرق الكلام تنسب إلى أبي الحسن الأشعري الذي كان معتزلياً ثم عارض المعتزلة ، وله «مقالات الإسلاميين» و«اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع» .

(٣) كذا مع أنها في المتن «ذوات خدر» .

(٤) لفظ بمعنى لا بد وهو للتأكيد ، وقد يصرف إلى معنى القسم كقولنا : «لا جرم لأفعلن كيت وكيت» .

ثم قال :

تموت شـــوقـــاً تذوب عـــشـــقـــاً
لمـــا دهـــاهـــا الـــذي دهـــانـــي
تـــنـــدب إلـــفـــــــاً تـــذّم دهـــراً
رمـــاهـــا قـــصـــداً بما رمـــانـــي
فـــــــراق جـــــــار ونـــأى دار
فـــيـــا زمـــاني على زمـــاني
مـــن لـــي بمـــن يـــرتـــضـــي عـــــــذابـــي
مـــــــا لـــي بمـــا يـــرتـــضـــي يـــدان

يقول : إنها في مقام الشوق والعشق ، ووصفها بالذوبان والموت ، والمراد : ﴿فاتبعوني يحببكم الله﴾[1] ، و﴿يحبهم ويحبونه﴾[2] .

وذكرها الإلف ؛ يريد الصورة الجامعة . ولما كانت الصور من عالم التمثل ، كان لها التقييد بالزمان أيضاً في ذلك العالم ، فعلق الذم على الزمان ، وجعل السهام الصوائب له ، لأنه محلها ، وبه ظهرت .

(فراق جار) عارف الحجب بنفسه عن ربه ، بعد أن كان بريه لربه .

(ونأى دار) يريد دار طبيعته إذا رجع إليها ، فتحسر من هذا الزمان الذي وقع فيه البين ، على الزمان الذي كان فيه انتظام الشمل .

وقوله (من لي بمن يرتضي عذابي) ، يقول : من لي بوصلها بعد هجرها ، فإن فراق الإطلاق أعظم من الفراق الأول ، لأنه فراق عن خبر .

(١) انظر سورة آل عمران ، الآية رقم ٣١.

(٢) انظر سورة المائدة الآية ٥٤ ، وتمامها : ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ .

وقوله (ما لي بما يرتضي يدان) ، يقول : سبق العلم بأمرٍ ما ، يمنع من وقوع غيره ، وهذا باب عظيم ، واجب غلقه وسدّه بأنه مهلك ، إلاّ للعارفِ المتمكن .

وقال رضي الله عنه :

وغـــادرت[1] قـــد غـــادرت بغـــدائر
شـــبـــيـــه الأفـــاعي من أراد ســـبـــيـــلا

سليـــمـــا وتلوى لينهـــا فـــتـــذيبـــه
وتتـــركـــه فـــوق الفـــراش عليـــلا

رمت بســـهـــام اللحظ عن قـوس حـاجب
فـمن أي رشقٍ[2] جـئت كنت قـتـيـلا

قوله (وغادرة) ، يشير إلى صفة مكربة تركت بفنون علومها الغيبية ، التي هي من حضرة الهيبة والجلال ، من أراد الوصول إليها لذيعاً من حبها .

وقـوله (وتلوي لينهـا) ، يريد نظرة عطف من الجانب الأيمن ، فـتـذوب لتلك النظرة ، كما أيضاً قتلته من خلف بغدائرها .

وقـوله (وتتركـه فـوق الفـراش عليلاً) ، الفـراش سريره الطبيـعي ، المعبـر عنه بالجسم . وقوله (رمت بسهام اللحظ عن قوس حاجب) ، يقـول : وهو أيضاً قتيل بما حصل له من المناظر العلى عند الشهود بالوسائط وغير الوسائط .

وقوله (فمن أي شق) ، يقول من أي ناحية جئت ، كنت قتيلاً ! يقـول لها : الأثر فيك من أي ناحية جئتها جانباً أو أماماً ، أي مقابلةً أو مُدابرة ؛ بالملاحظة من أمام ، واللفت من جانب ، والضفائر من خلف ، وكلها للمحب أبواب مهلكة فلا راحة .

وقال رضي الله عنه :

---

(١) كذا وحقّها أن تكتب «وغادرة» .

(٢) كذا وردت والصواب «شق» كما سيبدو في التفسير وفي السياق .

بـذات الإضـــــــا والمـأزمـين وبـارق
وذي سـلـم والأبـريـقـين لـطـارق[١]

بـروق سـيـوف من بـروق مـبـاسم
نـوافـج مـسـك مـا أبـيـحت لناشق

فـإن حـوربـوا سلوا سـيـوف لحـاظهم
وإن سلمـوا[٢] هـدوا عـقـود المضـايق

فـنـالـوا ونـلـنـا لـذتـين تـسـاويا
فـملكٌ لمعـشـوق وملكٌ لعـاشق

يقـول : لمقام النور وانضغـاط النفس بين العالمين وحضـرة التجلي الذاتي من الجانبين ، ومقام السلم لأهل المعارج من الروحانيين ، بروق سيوف من بروق مباسم ، قول مكر عظيم ، في لطف خفي محجوب بنعمة معشوقة .

وقوله (نوافج مسك) ، أي مشاهدة طيبة ، تتعالى عن المشام أن تصل إلى إدراك طيب نشرها .

وقـوله (فـإن حـوربوا) أي نوزعوا من قـوله تعالى : ﴿ **كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار** ﴾[٣] ، وقـوله : ﴿ **ذق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾[٤] ، وقـوله عليه السلام : «وأعوذ بك منك»[٥] .

(١) الإضا أجمة من الخلاف الهندي وهو نوع من الصفصاف والمأزمين بين عرفة والمزدلفة والمأزم المضيق وقيل الطريق بين جبلين . وأما بارق فماء بالعراق وهو الحد من القادسية إلى البصرة ، وفي حديث ابن عباس «بارق نهر بباب الجنة» . وأما الأبرقان فيقول فيهما البغدادي في مراصد الإطلاع : «فإذا جاءوا بالأبرقين فأكثر ما يريدون به حجر اليمامة وهو منزل على طريق مكة من البصرة بعد رميلة اللوى» .

(٢) وأحسب أن الصواب سولموا كما سيرد في الشرح أيضاً .

(٣) انظر سورة غافر ، الآية رقم ٣٥.

(٤) انظر سورة الدخان ، الآية رقم ٤٩.

(٥) ذكر الشيخ هذا الحديث في الفقرة ٤٥٦ من السفر الثالث عشر من الفتوحات ولكن من دون إسناد ، انظر أيضاً صحيح البخاري «الأشربة» .

(سلُّوا) ، يقول جردوا سيوف لحاظهم ، إشارة إلى القهر والعظمة .

(وإن سؤلموا)[1] ، لم ينازعوا .

(هدوا عقود المضايق) ، أي حصلوا في عالم الانفساخ .

وقوله (فنالوا ونلنا لذتين تساويا) ، من باب ما ورد في الأخبار من اشتياق الجناب الأعز إلى أهله .

وقوله (تساويا) ، يريد مقام الصورة التي خلق عليها .

(فملك لمعشوق وملك لعاشق) أي لكل واحد في صاحبه ضرب من التصرف بحسب ما يليق ، والأحوال تفسره .

وقال رضي الله عنه :

رضيت برضوى روضةً ومناخا
فإن بها مرعى وفيه نُفاخا[2]
عسى أهل ودي يسمعون بخصبه
فيتخذوه مربعاً ومناخا

(رضوى) ، فيه تنبيه من مقام الرضى .

(روضة) ، أصنافاً من العلوم .

(ومناخا) ، مبرك الإبل ، وهي الهمم ، فإن به مرعىً ، أي غذاء الأرواح .

(وفيه نفاخا) ، يريد صفاء العيش .

وقوله (عسى أهل ودي) ، يريد أشكاله ، يبلِّغ الهمم ، ما هو عليه هذا المحل الأعلى من الخصب ، فيتخذونه مربعاً لهممهم ، ومناخاً ومحلاً لحطِّ رحالهم ، لوجود راحة من تعب السفر المعنوي ، فإن الأسرار قد تكل ، ولاسيما إذا كانت حركاتها في طريق الاستدلال .

(١) كذا وحقها أن تكتب «سولموا» .

(٢) رضوى جبل بين مكة والمدينة قرب ينبع (عن مراصد البغدادي وعن الروض المعطار للحميري) .

ثم قال :

فــــإن لنا قـلبـــــاً بـهـنّ مـــــعلقـــــاً
إذا مـــا حــدى الحــادي بهن أصـــاخـــا

وإن هـم تـنـادوا لـلرحـــــيـل وفـــــوزوا
ســمــعت له خلف الركــاب صــراخــا

فــإن قــصــدوا الزوراء كـــان أمـــامــهم
وإن يممـــوا الجـــرعـــاء ثمّ أناخـــا[١]

يقول عن أشكاله الذين تقدموه إلى مقصوده ، إن له قلباً معلقاً بهم ، وقد كان تعلقه بالأسرار ، ويريد بالرحلة ، رحلتها عنه في وقت غفلاته ورجوعه إلى حظوظه .

وقوله (إذا ما حدى الحادي بهنّ أصاخا) ، يقول : إذا ما دعي داعي الحق بهم إليه ، أصاخ هذا القائل المحب لذلك الدعاء .

يقول (وإن هم تنادوا) ، أي يصيح بعضهم لبعض الرحيل ، من قوله تعالى : ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾[٢] .

(وفوزوا) ، أي طلبوا الفوز في مقامات التجريد .

(سمعت له) ، يعني قلبه خلف الركاب ، يعني الهمم والقلوب الراحلة عن أبدانها ، (صراخاً) ، يريد بكاء عالياً .

(وإن قصدوا الزوراء) ، حضرة القطب ! وسميت زوراء لميلها إلى جانب الحق المشروع ، كان أمامهم ، يعني بهمته وقلبه ، لا بعمله ، فإنه يعجز عنهم ، فليس للعاجز إلاّ تقدم التمني .

(١) يقول البغدادي في مراصد الاطلاع : زوراء تأنيث الأزور وهي دجلة بغداد . والزوراء دار لعثمان بن عفان في المدينة ، وقيل موضع عند سوق المدينة ، والزوراء أرض بذي خيم ويقال بغداد الزوراء . . وقيل مدينة المنصور . والزوراء دار بناها النعمان بن المنذر بالحيرة . أما الجرعاء فالحميري لا يعرفها والبغدادي يعرفها كالتالي : «الجَرَعة بالتحريك وقيل بسكون الراء موضع قرب الكوفة» ، وقيل الجرعة بين النجفة والحيرة .

(٢) انظر سورة المائدة ، الآية رقم ٢.

(وإن يموا) ، قصدوا .

(الجرعاء) موطن المجاهدات ، وتجريع الغصص ، فإنه سلوك عن حجاب .

(ثَمَّ أناخوا) ، يقول : يقيم لا يبرح ، لأنه لا يطيق حمل تلك المشاق ، وقد يريد أيضاً بقوله (ثَمَّ) يعني الجرعاء ، أنه يقيم في مواطن المجاهدات الشاقة ، من أجل نيل مقصوده .

ثم قال :

فما الطير إلاَّ حيث كانوا وخيموا

فإن له في حيهنَّ فراخا

تحارب خوف لي وخوف من أجلها

وما واحد عن قرنه يتراخا

إذا خطفت أبصارنا سبحاتها

أصمَّ لها صوت الشهيق صماخا[1]

يقول : ما تقصد الهمم ، إلاَّ المواطن التي تناسبها بحكم الأصل ، فالعارف أبداً حنينه إلى التحقيق ، كشفاً بالأسماء الإلهية .

وقوله (تحارب خوف لي وخوف من أجلها) ، يقول : في قلبي خوفان ؛ خوف من أجلي ، وخوف من أجلها ، وهما قرنان[2] قويان ، كل واحد منهما لا يسأل عن صاحبه ، فالخوف الذي من أجلي هو على بصري عند التجلي ، أن تخطف نوره سبحاتها ، والخوف الذي هو عندي من أجلها ؛ هو على سمعها لئلا يُصَم من صوت بكائي عليها . وجعل المطلوب هنا ، قد تجلى له في صورة برزخية في عالم المثال ، فنسب إليه ما ينسب إلى الصور ، لما نزلت إليها ، احتاج هو أن ينزل في العبارة ،

(١) الصماخ خرق الأذن الباطن الذي يفضي إلى الرأس .

(٢) القرن بكسر القاف النظير في الشجاعة وفي غيرها .

وهكذا أوردت النبوات في كلامها ، ولاسيما وقد ورد : «ما إذن الله لشي كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن»[1] ، أي ما استمع .

وقال رضي الله عنه :

إذا ما التقينا للوداع حسبتنا
لذى[2] الضم والتعنيق حرفاً مشددا

فنحن وإن كنا مثنيّ شخوصنا
فما تنظر الأبصار إلاّ موحدا

وما ذاك إلاّ من نحولي ونوره
فلولا أنيني ما رأت لي مشهدا

(الحرف المشدّد) ، حرفان مبطون أحدهما في الآخر . يقول النفس عند المفارقة للجسم نحن بهذه الحالة ، فنحن وإن كنا اثنان[3] في المعنى ، فما تقع العين إلاّ على شخص واحد ، وسبب تعشقها به ، كونها ما نالت الذي نالت من المعارف ، إلاّ بحبسها فيه ، واستعمالها له فيما أُمرَت به من الخدمة الموضوعة الإلهية ، والإشارة هنا أيضاً إلى قوله[4] : «من أهوى ومنَ أهوى أنا» ، والوداع المذكور مع هذه الإشارة ، هو أن يتميز ما ينبغي له عن ما لا ينبغي لمحبوبه ، فيأخذ هذا صفاته وهذا صفاته . وقوله (وما ذاك إلاّ من نحولي) ، يريد أنه من عالم اللطف .

---

(١) أخرجه النسائي وأبو داود كلاهما عن أبي هريرة ، وأخرجه الهندي في كنز العمال من طرق وبألفاظ مختلفة .

(٢) كذا وصوابها «لدى» .

(٣) كذا والصواب «اثنين» .

(٤) هو الحسين بن منصور الحلاج وتمام الشعر كالتالي (الديوان) :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرته أبصرتني
وإذا أبصرتني أبصرتنا

والحسين الحلاج هو الحسين بن منصور ، أبو مغيث الصوفي الفيلسوف الشهير ، قال بالحلول وقد كفّر وسجن وعذّب وصُلب ، له كتاب الطواسين وديوان شعر .

(ونوره) ، يعني لقوته ذهب ببصره عن إدراكه ولطافتي .

وقوله (فلولا أنيني) يريد ما أريد[1] المتنبي بقوله : «لولا مخاطبتي إياك لم ترني»[2] . وقال ترني ، وقال الآخر : «فاطلبوا الجسم حيث كان الأنين»[3] .

وقال رضي الله عنه :

وقالوا الشموس بدار الفلك

وهل منزل الشمس إلاّ الفلك

إذا قام عرشٌ على ساقه

فلم يبقَ إلاّ استواء الملك

يقول : وقالوا : الأنوار الإلهية (بدار الفلك) ، يعني القلب لاستدارته ، أشار به إلى قوله : «وسعني قلب عبدي المؤمن»[4] .

وقوله (إذا قام عرشٌ) ، البيت بكماله ، فالإشارة به إلى قوله : ﴿**فإذا سويته ونفخت فيه من روحي**﴾[5] ، وقوله : ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾[6] ، وقوله تعالى : ﴿**فسواك فعدلك**﴾[7] . كل هذه إشارة إلى المعنى ولا بدّ لملكٍ مُهيَّأ من ملك عليه وبه .

---

(١) كذا والصواب «ما أراد» .

(٢) انظر الديوان ، والبيت من قصيدة من شعر الصبا ومطلعها :

أبلى الهوى أسفاً يوم النوى بدني

وفرق الهجر بين الجفن والوسن

وتمام البيت الذي استظهره الشيخ :

كفى بجسمي نحولاً أنني رجل

لولا مخاطبتي إياك لم ترني

(٣) لم أهتد إلى معرفة قائله .

(٤) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث .

(٥) انظر سورة الحجر ، الآية رقم ٢٩ .

(٦) انظر سورة طه ، الآية رقم ٥ .

(٧) انظر سورة الانفطار ، الآية رقم ٧ .

ثم قال :

إذا خلص القلب من جهله
فما هو إلاّ نزول الملك
تملكني وتملكتهُ
فكلٌ لصاحبه قد ملك
فكونيَ ملكاً له بينٌ
وملكي له قوله هيت لك[1]

يقول : إذا قام القلب من جهله ، في مقام الإخلاص ، فما هو إلاّ تنزل الروحانيات العلى له . عبَّر عنه بالتخلص من الجهل ، لقيام العلم به .

وقوله (تملكني) من حيث إنني مقيد به .

(وتملكتهُ) ، من حيث إنه ليس للأسماء ظهور إلا في الممكن ، فمن هذا الوجه أيضاً يكون نسبة صورته تحت حيطة الخبر النبوي .

وقد فسرّ ذلك في البيت الآخر في قوله (فكوني ملكاً له بيِّنٌ) ، وهو التقييد الذي ذكرناه .

(وملكي له قوله هيت لك) لظهور الأسماء ، فإني لو لم تخذها لم يظهر لها أثر ، إذ لا أثر في القدم ولا في القديم .

ثم قال :

فيا حادي العيس عرج بنا
ولا تعدد بالفلك دار الفلك
أعالك دارٌ على شاطئ
بقرب المسنى وما علك

(١) يلاحظ هذا البيت الآية رقم ٢٣ في سورة يوسف : ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك . .﴾ .

يقول : فيا داعي الهمم عرج بنا نحو (دار الفلك) الذي هو القلب ، لأنه بيت التجلي والسعة الإلهية . ودار الفلك دار ببغداد موقوف على النساء المتعبدات على شاطئ الدجلة .

(بقرب المسنى) ، دار الإمام رضي الله عنه ، فقال أعلّك ، أي أورثك ذلك القرب علة الهوى .

وقوله (على شاطئ) ، يريد نهر الحياة والصدق ، فإنه في مقابلة الضد ، فهو على التفاؤل . كما يقال في اللديغ سليم ، وفي الزفت بياض ، وكذلك دجلة وإن كانت موضوعة للكذب فإن المراد بها هنا ضد ذلك وهو الصدق ، وذلك لإزالة عين الناظر رداً لعينه لئلا تصيبها .

وقوله (بقرب المسنى) ، مقام القطب ، إذ كان دار الخلفية وما عللك من التعلل ، كأنه يقول أمْرَضَك وما مرَّضك .

ثم قال :

فليت الذي بي وحُمِّلتُهُ
من الحب رب الهوى حملك
فليس ذرودٌ[1] ولا حاجرٌ
ولا سلم منزلٌ انحلك

يقول لعاذله : (فليت الذي بي من ألم الهوى وحمُلتُهُ) من أثقال المحبة ، يحمِّلك الله أمثالها من غير هذا الباب .

وقوله (فليس زورد) ، البيت بكماله ، يقول : وما انحلك ممكن أصلاً ولا مقام . يشير إلى أن حبه لمشهد ذاتي أنزهَ أقدسَ ، يتعالى عن التقييد بالأماكن .

ثم قال :

(١) كذا والصواب «زرود» وقد وردت وورد تعريفها سابقاً .

ظللت لحرّ الهوى طالباً
سحاب الوصال وما ظلك
أذلّك عزٌ لسلطانه
فليت كما ذللك ذلّ لك
ويا ليته إذ أبي عزةً
تدلله ليته دلّ لك

يقول : أقمت تطلب لما أصابك من (حر الهوى) سحابة وصل ، تظلل عليك ، لتنعم وتستريح ، فما فعل معك ذلك لأنك محجوب ، فلو كشفت قربه منك وأنه سمعك وبصرك[1] ، لم يكن شيء مما ذكرت .

وقوله (أذلّك عزٌ لسلطانه) ، يقول : تجلى لك في مقام العزة فذللت للمقام لا له ، فقد كنت تعرفه وما ظهر ، أي حال ذله مثل ما ظهر عليك عند تجليك في مقام العزة ، فقد يكون ذلك طعناً في معرفتك .

وقوله (فليت كما ذللك) ، يقول : كما أكسبك الذلّ ؛ ليته نزل إليك نزول لطف وأنس ، ويا ليته إذ أبى عزة هذا التنزل ؛ ليته يقيمك في مقام الإدلال لتنبسط نفسك ويرتاح سرّك ، ولا يبقيك في هذا المقام الذي أنت فيه .

أغيب فيفني الشوق نفسي فألتقي
فلا أشتفي فالشوق غيباً ومحضرا
ويحدث لقياه ما لم أظنهُ
فكان الشفا داءً من الوجد أخرا
لأني أرى شخصاً يزيد جمالهُ
إذا ما التقينا نفرةً وتكبرا
فلا بد من وجد يكون مقارناً
لما زاد من حسن نظاماً محررا

(١) الإشارة إلى الحديث السني وقد تكرر استخدامه .

يقول : في الغيبة يهلكه الشوق ، وفي اللقاء يهلكه الاشتياق ، فلا يزال معذباً فهو في آلام الغيبة يرجو الشفاء باللقاء ، فإذا التقى يزيد وجده ، وذلك أن التجليات لا تتكرر ، وأنه يتنقل من عال إلى أعلى ، فيكون الثاني أعلى من الأول ، عند الرائي ، فلا بد أن يكون له فيه أثر ، يُحْدِث عنده مزيد تعلق ومحبة به فيه ، ضاعف حبه فيتضاعف شوقه فيزيد ألمه .

وذكر لفظة الشخص للخبر الوارد .

القصر ذو الشرفاء من بغداد

لا القصر ذو الشرفات من شداد[1]

يقول : الحضرة المعلمة من حضرة القطب ، هو المطلوب لأصحاب الهمم في المقامات أن ينالوها ، لأنها حضرة التصرف والاستخلاف والتحكم ظاهراً وباطناً .

(لا القصر ذو الشرفات من شداد) ، يقول : لا هذه المملكة الدنياوية[2] ، التي لا يدري مالكها ما يُراد به ، ولا يفرِّق بين عدوه وحبيبه ، ويخاف من دخول الخلل عليه ، ويحتاج إلى الآراء ومشورة العقلاء في تدبيره ، لئلا يختل عليه ملكه .

ثم قال :

والتاج من فوق الرياض كأنهُ

عذرآء قد جليت بأعطر ناد

(١) هو شداد بن عاد صاحب إرم ذات العماد المدينة المستورة العجيبة الصنع التي ما أن اكتمل صنعها حتى محق الله أصحابها قبيل دخولها وأخفاها عن الأنظار ولم يدخلها أحد غير رجل في زمن معاوية ، وقد ورد ذكرها في سورة الفجر في الآيات ٦-٩ (انظر خبرها عند الحميري وفي كتب التفسير والسير) .
وعلى أي حال فإنني أعتقد أن المراد ليس اسم شداد ولا إرم ذات العماد بل اسم سنداد ، ولاسيما أن عجز البيت الأول هو نقل عن الأسود بن يعفر الذي يقول في المفضّليات :

ماذا أؤمّل بعد آل محرّق

تركوا منازلهم وبعد إياد

أهل الخورنق والسدير وبارق

والقصر ذي الشرفات من سنداد

وقصر سنداد بظهر الكوفة ، وسنداد نهر فيما بين الحيرة إلا الأبلّة

(٢) كذا وردت وتكتب «الدنيوية» .

يقول (والتاج) ، يريد مقام الملك .

(من فوق الرياض) ما يحمله من المعارف .

فكأنَّ هذا الملك (عذرآء) مجلوة في روضة طيبة الروائح ، فتكون معشوقة للنفوس . ويقول الملك والعلم لا شيء أحسن منه .

ثم قال :

والريح تلعب بالغصون فتنثني

فكأنه منها على ميعاد

يقول : والهمم تتعلق بالقيومية الإلهية ، فيعطفها عليه جوداً ومنَّةً ، فكأنهما متواعدين على ذلك ، لما رأوا أن تعلقها لا يخيب ، وأنها مهما تعلّقت ، انعطفت عليها .

ثم قال :

وكأن دجلة سلكها في جيدها

والبعل سيدنا الإمام الهادي

يقول : وكأن مقام الحياة في جيد هذا المقام ، سلكاً فلا ينظر إلى شيء إلا حيي به ذلك الشيء ، إما حياة علمية أو حسية أو عملية ، ولما وصف المملكة بما توصف به النساء ، احتاج إلى بعل ، فذكر الإمام ، الذي هو الغوث وقطب العالم الذي عليه مداره وبيده مصالحه ، وسماه الهادي للتخلف الذي عنده .

ثم قال :

الناصر المنصور خير خليفة

لا يمتطي في الحرب متن جواد

يقول : إنه ناصر من حيث الهمة ومنصور من حيث العناية الإلهية .

وقوله (لا يمتطي في الحرب متن جواد) ، يقول نزوله عن هذا المركب الطبيعي ومفارقته له ، بوقوفه على حقيقته من حيث نسبته لربه ، ومن ذلك الوجه الذي يكون له به الشرف عنده .

ثم قال :

صلى عليه الله ما صدحت به
ورقا مطوَّقةٍ على ميَّاد

وكذاك ما برقت بروق مباسم
سحت لها من مقلتي عواد

من خردٍ كالشمس اقلع غيثها
فبدت بأنور مستنيرٍ بادي

يدعو لهذا الإمام ، وإن كان أعلى منه ، كما أُمرنا بالصلوة على محمد ، والدعاء له بالوسيلة ، مع كونه أرفع منا عند ربه ، بل لا مناسبة في الرفعة .

وقوله (ما صدحت به) ، أي ما ذكرته نفس مطوقة محصورة في عالم الطبيعة .

(على ميّاد) ، إشارة إلى هذا الجسم الذي هو منا لها ، كالغصن للطائر المغرد عليه . وقوله (وكذاك ما برقت) ، يقول : وكذلك ما لاحت له أنوار المشاهدة الفهوانية من الجناب العزيز ، فبكت لها عيني فرحاً ، أي جرت الدموع لذلك من الفرح والسرور من غير بكاء ، ولا يكون البكاء إلاّ مع الحزن .

وقوله (من خرّد) البيت بكماله ، يعني من أحول[1] من مقام الحياء ، كالشمس إذا ظهرت بعد ارتفاع الغيث ، فيصفو الجو من الغبار ، فيكون النور أخلص وأصفى . يقول فنورها مثل هذا النور ، وإن كان الممثَّل به دونه في المرتبة .

(١) كذا وأحسب أن المراد لفظ «تحوّل» .

شعر :

(فـــالله قـــد ضـــرب الأقل لنوره
مـــثـــلاً من المشكاة والنبـــراس)[1]

ألا يا نســـيم الريح بلغ مـــهـــا نجـــد
بأني على مـــا تعلمـــون من العـــهـــد

وقل لفـــتـــاة الحي مـــوعـــدنا الحـــمى
غـــديّة يوم الســـبت عند ربا نجـــد

على الربوة الحـــمـــراء من جـانب الضـــوى
وعن أيمن الأفـــلاج والعلم الفـــرد

يخاطب الرقيقة الروحانية التي يتخذها العارفون سفيراً بينهم وبين ما يريدونه .

وقوله (بلّغ مها نجد) ، الأرواح العلوية ، بأني على ما فارقتهم عليه من العهد في وقت انفصالي عنهم وحبسي في هذا الهيكل الطبيعي .

وقوله (قل لفتاة الحي) ، يريد الروح المناسب له من هذه الأرواح خاصة .

وقوله (موعدنا الحمى) ، يريد الحجاب العزة في مشهد من المشاهد ، أو عند انفصاله من تدبير هذا الجسم بالموت .

فأما وأما[2] قوله (غدية) ، أو زمان التجلي ، وجعله يوم السبت لأنه يوم الراحة والفراغ من الخلق كما ورد في الخبر[3] .

---

(١) هذا البيت يلي بيتاً قبله وهما لأبي تمام الطائي وكان قد ارتجلهما في حضرة ممدوحه أحمد بن المعتصم ، وكان هناك بعض حاسديه فقالوا ما لك تمدح المولى بما هو ليس من مقامه فارتجل قائلاً (الديوان) :

لا تنـكـروا ضـــــــربـي لـه مـن دونـه
مـــثـــلاً شـــروداً في الندى والبـــاس

فـــالله قـــد ضـــرب الأقلّ لنوره
مـــثـــلاً من المشكاة والنبـــراس

(٢) كذا وردت وهي زائدة .

(٣) المعروف أن فراغ الله من الخلق في يوم السبت هو خبر توراتي ورد في سفر التكوين .

(عند ربا نجد) يريد المقام العالي .

وقوله (على الربوة الحمراء) ، مقام الجمال لأن الذين قسموا الألوان يقولون لون الحمرة أجمل !

وقوله (من جانب الضوى) ، العالي من المراتب .

(وعن أيمن الأفلاج) ، موطن السرور .

(والعلم الفرد) ، حضرة الفردانية التي هي دون الأحدية .

فإن كان حقاً ما تقول وعندها
إليَّ من الشوق المبرّح ما عندي
إليها ففي حرّ الظهيرة نلتقي
بخيمتها سراً على أصدق الوعد

يقول : هذه الحقيقة الروحانية ، المناسبة له من ذلك العالم ، الناظرة إليه ، إن كان حقاً ما تقول ، في طلبك إيانا ، وعندك من الشوق إلى ذلك مثل الذي عندنا إليك ، فعند الاستواء الذي هو عدم الميل ، وهو وقت حصول الشمس في الوقف ، فيكون نسبتها إلى كل شيء على السواء ، كالنقطة من المحيط ، وخيمتها المقام الذي أقوم فيه ، فينزلها عليَّ إن ينزلني عليها ، على حسب الحال الحاكم في الوقت .

وقوله (سراً) ، يريد مقام الكتم ، مع ضرب من الالتحام عند الاجتماع .

وقوله (على أصدق الوعد) ، يريد وعد المناسبة والحال فإنه اصدق من وعد المقال .

ثم قال :

فتلقى ونلقى ما نلاقي من الهوى
ومن شدة البلوى ومن ألم الوجد

أضـــغـــاث[1] أحـــلامٍ أبشـــري منامـــة
أنطق زمـــانٌ كـــان في نطقـــه ســـعـــدي
لـعل الـذي ســـاق الأمـــاني يســـوقـــهـــا
عـيـاناً فـيـهـدي روضـهـا إليَّ جنى الورد

يقول : فتلقي إليَّ ، ونلقي إليها ، كل واحد مما عنده ، مما يحتاج فيه إليه . وذكر شدة الاختبار ، فإن الحق جعل هذا تمحيص عبادة ، فقال : ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾[2] وقال : ﴿لنبلونكم﴾[3] .

وقوله (أضغاث أحلام) ، يقول عن هذا الاجتماع : مع حبسي في هذا الهيكل المظلم ، ما أظن يتصور على حسب ما أريد ، وما ينبغي إلاَّ بانقطاع العلاقة من جميع الوجوه . وقطع العلاقة عن الجسم والجسد في حق هذا الروح الجزئي محال ، لأنه أصله وعنه ظهر ، فقوته فيه بخلاف الملأ الأعلى .

(أبشري منامة؟) ، يقول أوحي نبوي أو لسان الزمان وهو القال ، وذلك لعزة هذا الاجتماع .

يقول كأنه محال وقوعه ، وإنما هذا ، والله اعلم ، لسان الزمان نطق به أو مبشرة أو أضغاث أحلام ، أي لا حقيقة لها .

ثم قال لعل هذا يكون كلمة وافقت قدراً .

وقوله (فيهدي روضها إلى جنى الورد) ، يشير إلى ما يحصل له من الذوق ، فعبر عنه بالجنى .

---

(١) كذا وردت ولكن حقها أن تكتب «أأضغاث» فالصيغة استفهامية .

(٢) انظر سورة هود الآية رقم ٧ ، وانظر أيضاً سورة الملك الآية رقم ٢ وتمام الأولى : ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولنّ الذين كفروا إن هذا إلاّ سحر مبين﴾ ، وتمام الثانية : ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور﴾ .

(٣) إشارة إلى الآية رقم ١٥٥ من سورة البقرة ، والآية تقول بتمامها : ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين﴾ .

ثم قال :

ألا هل إلى الزهر الحسان سبيل
وهل لي على آثارهنّ دليل

وهل لي بخيمات اللوى من معرس
وهل لي في ظل الأراك مقيل

يقول : (ألا هل) ، إلى هذه المعارف ، الحاصلة من التجليات الذوقية من اسمه الجميل ، طريق إلى نيلها؟ وهل لي دليل على الطريق الموصل إليها؟ وهل لي بمقامات العطف الإلهي من إقامة وتعريس؟ وهل لي في نعيم المشاهدة ، في حضرة التقديس والتطهير نصيب؟ .

ثم قال :

فقال لسان الحال يخبر إنها
تقول تَمَنٍّ ما إليه سبيل

يقول : (فقال لسان الحال) ، يريد أن الحال يشهد بأن ذلك لا يكون ، وأن هذا المقام لا يحصل إلاّ لأهل الجد والاجتهاد . والتوجه الصدق ، لا يحصل بالتمني .

أُسلك تصل !

ثم قال :

ودادي صحيح فيك يا غاية المنى
وقلبي من ذاك الوداد عليل

تعاليت من بدرٍ على القطب طالع
وليس له بعد الطلوع أفول

يقول : ما هو تمني ، بل هو ودّ صحيح ، يحملني على ارتكاب الشدائد في رضى المطلوب ، رجاء أن يحصل منه ما يمتن به عليّ ، وجعله منتهى أمله ، ووصف قلبه

بالعلة ، حين وصف وداده بالصحة . يريد ، ما أثر الهوى فيه من الشدة والكرب . وقوله (تعاليت من بدر) ، إشارة إلى حصول صفة الكمال لها .

وقوله (وليس له بعد الطلوع أفول) نبَّه على أن الحق ما تجلى لشيء ثم انحجب عنه بعد ذلك . هكذا تعطي الحقائق .

ثم قال :

فديتك يا من عزّ حسناً ونخوةً
فليس له بين الحسان عديل
فروضك مطلول ووردك يانعٌ
وحسنك معشوقٌ عليه قبول
وزهرك بسامٌ وغصنك ناعم
تميل له الأرواح حيث يميل
وظرفك فتّان وطرفك صارم
به فارس البلوى عليَّ يصول

كنى بالروضة عن مجموع خلقه ، وبالطل عن مكارمها واستمدادها بظهور الأخلاق الإلهية عليها ، وبالورد اليانع ، مشهد مخصوص يهلك كل صفة مذمومة ، وبالحسن المعشوق ، عن العلاقة التي بينك وبينه .

وقوله (عليه قبول) ، يريد أنه محبوب لذاته .

وقوله (زهرك بسَّام) يريد قبول المعارف على القلب .

وقوله (وغصنك ناعم) ، يريد حاملاتها منك .

قوله (تميل له الأرواح حيث يميل) ، لارتباطها به ارتباط الظل بالشخص ، يسكن بسكونه ويتحرك بحركته .

وقوله (وظرفك فتّان) ، يريد مقام الأدب ، وفتّان محل الاختبار .

(وطرفك صارم) ، مشهور قاطع .

وقوله (به فارس البلوى عليَّ يصول) ، يقول باعث الحق في العبد اختباراً من الحق له .

وقال رضي الله عنه :

لطيبة ظبي ظبى صارم
تجرد من طرفها الساحر
وفي عرفات عرفت الذي
تريد فلم أك بالصابر
وليلة جمعٍ جمعنا بها
كما جاءَ في المثل السائر

قوله (لطيبة ظبي) ، مرتبة محمدية ، يقال لها نظر صائب .

(تجرَّدَ) ، يقول ظهر .

(من طَرْفها) ، من نظرها

(الساحر) ؛ الحاكم على عالم الامتزاج .

وقوله (في عرفات) ، مقام الجمعة في باب المعرفة .

(عرفت الذي) تريده مني .

(فلم أك بالصابر) ، يقول : استعجلت في قضاء ذلك .

وقوله (وليلة جمع) ، يقول أقمنا في مقام القربة ، فجمعني عليَّ ، ولكن لفتة ، لأنها ليلة ، يعني : ثم افترقنا ، فقال : كما جاء في المثل السائر ، وهو قولهم فما سلَّم حتى ودَّعا ، أي كان سلامه وداعاً .

ثم قال :

يمين الفتاة يمين فلا
تكنْ تطمئن إلى غادر[1]
منىً بمنى نلتها ليتها
تدوم إلى الزمن الآخر
تولعت في لعلع بالتي
تريك سنا القمر الزاهر

يقول : قَسَمُ الصفة التي لا قيام لها بنفسها ، فهي مفتقرة إلى غيرها ، لا يُعَوَّلُ عليه ، لكونها محجوبة عن افتقارها ، فقد لا يساعدها ، فيما تريد ، من هي مفتقرة إليه ، ولا تظهر إلاّ به ، فقد يكذب يمينها ولا يصدقه .

يقول : من هذه صفته ، لا يعتمد على قوله ، ولا تطمئن إليه !

وقوله (منىً) ، يريد ما كان يتمنى بمنى ، مقام الجمع ، فليته يدوم إلى الزمن الآخر وهو مقام الأنفاس .

وقوله (تولعت في لعلع) ، أي مقام الفرح بالحب بالتي تظهر في صورة القمر ، ليلة البدر ، إشارة إلى صفة كمال في التجلي .

---

(١) أحسب أن الشيخ يشير من بعيد إلى حكاية الخليفة العباسي الهادي مع جارية له وكان اسمها غادر ، وقد عاهدته أنها لن تذهب إلى فراش أخيه الرشيد بعد موته ، ولكنه يموت ويحل الرشيد محل أخيه خليفةً وعاشقاً ، ويتراءى الهادي في المنام لغادر وينشدها :

أخلفت وعدي بعدما
جاورتُ سكّان المقابر . . .
ونكحت عامدة أخي
صدق الذي سماك غادر . . .

فتستفيق مرعوبة وتظل تضطرب هلعاً حتى تموت (انظر نساء الخلفاء المنسوب لابن الساعاتي والمستظرف للحافظ السيوطي) .

رمت رامـــة وصـــبت بالصـــبـــا

وحـــجـــرت الحـــجـــر بالحـــاجـــر

وشـــــامت بريـقـــــاً عـلى بـارق

بـأســـــرع مـن خـطـرة الخـــــاطـر

وغـــاضت مـيـــاه الغـــضـــا من غـــضى

بأضـلعـــــه مـن هوى ســـــاحـــــر

يقول : (رمت) ، ما كانت ترومه ، لأنها رأت الأمر على خلاف ما كانت تعتقده .

وقوله (وصبت بالصبا) ، أي مالت إلى جانب التجلي .

(وحجرت) ، منعت المنع بمقام العزة الأحمى .

يقول : إن المراد حصل ، فإن المنع إذا مُنِعَ ، كان عطاءً ، فإن عدم العدم وجود .

(وشامت بريقاً على بارق) ، الشيم النظر إلى البرق ، يقول : أشهدت مشهداً ذاتياً .

(وبارق) ، هنا الكثيب وما في معناه . يريد ، حيث كان التجلي فهو بارق .

وقوله (بأسرع من خطرة الخاطر) ، يقول : لا يثبت لعزته .

وقوله (غاضت) أي نقصت .

(مياه الغضا) ، يقول : خبأة[1] نيران الهوى .

(من غضى) ، يعني نار قلبه الذي أضرمه هوى هذه الفتات[2] ، والماء من عادته تجففه الحرارة ، فلهذا قال غاض .

ثم قال :

وبانت ببـــان النقـــا فـــانتـــقت

لآلـي مـكـنـونـة الـفـــــاخـــــر

(١) كذا وردت وأحسب أن المراد القول «خبّأت» .

(٢) كذا وحقها أن تكتب «الفتاة» .

وأضلت بذات الإضا القهقرى
حذاراً من الأسد الخادر[1]

بذي سلم أسلمت مهجتي
إلى لحظها الفاتك الفاتر

وقوله (بانت) ، يقول : ظهرت .

(ببان النقا) ، روضة الكثيب ، الذي هو مشهد الرؤية .

وقوله (فانتقت لآلي مكنونة الفاخر) ، يقول : أشهدت في أحسن صورة .

وقوله (وأضلت) ، رجعت .

(بذات الإضا) ، موضع تجلي الأنوار .

(القهقرى) ، إلى خلف ، يريد رجوعها إلى عالم طبيعتها ، لئلا تحرقها تلك الأنوار ، فكان الرجوع حجاباً عن ذلك النور المحرق ، حذراً من سطوته ، وسمّاه أسداً لشدته ، وخادر ألان[2] شدة غيرة تتخدر عنده ، كما سمي الشجاع بطلاً ، أي يبطل شجاعة غيره .

وقوله (بذي سلمٍ) ، مقام الاستسلام .

(أسلمت) ، تركت مهجتي ، حقيقة ذاتي .

(إلى لحظها) ، يريد مشهدها في باب الرؤية .

(الفاتك) ، يريد القاتل لأهل الخلوات خاصة .

(الفاتر) ، اللطيف بأهل الخلوات ، فإن العارفين يهلكون بنظر الحق ويفنون ، والعامَّة لا يطرأ عليهم شيء من ذلك ، مع نظرهم إلى الحق ، لعدم المعرفة . وهنا سرّ وهو هلاك نفسك على الحقيقة ، في مثل هذه المشاهدة منك ، إلاّ أن يكون الأمر ذاتياً ، فحينئذٍ يكون منه ومنك ، بحيث أنك مستعد للتأثير لا غير .

(١) أضا عند البغدادي في مراصد الاطلاع اسم واد ، والحميري لا يذكر شيئاً هذا والإضاء أجمة من الخلاف الهندي وهو صنف من الصفاف . أما الخادر فصفة من صفات الأسد .

(٢) كذا وردت وأحسب أن المراد «لأن» .

ثم قال :

حـــمت بـالحـــمى ولـوت بـاللـوى
كـــعطفـــة جـــارحـــهـــا الكاســـر

وفي عـــالج عـــالجت أمـــرها
لـتـلـفـت من مـــــخلـب الـطـائـر

خـــور نقـــهـــا خـــارقٌ للســـمـــاء
يســـمـــو اعـــتـــلاءً عـلى الناظر

يقول : قامت في مقام العزة تخلقاً .

(لوت) ، أي عظمت بالعطفات الإلهية تخلقاً أيضاً .

وقوله (كعطفه جارحها) ، يريد عزمها الماضي .

(الكاسر) كل عزم .كما قلنا :

(إذا فلّ سيفي لم تفل عزائمي فلي عزمات شاخدات[1] صوارمي) .

(وفي عالج) ، من المعالجة .

(لتفلت من مخلب الطائر) ، يقول : ما تحب الأخذ وهي في قبضة الأرواح ، وإنما تحب أن تأخذ ، وهي في قبضة الحق ، ذوقاً لا علماً . فإن الأخذ من الحق قد يكون بوساطة الأرواح العلوية ، وقد يكون بارتفاع الوسائط .

وقوله (خورنقها) ، موضع مملكتها ، خارق للسماء ، له أثر في العلويات ، يسمو اعتلاءً على الناظر ، يريد يفوق البصر والإشارة إلى قوله تعالى : ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾[2] .

(١) كذا وأحسب أن المراد شاحذات ، أما البيت ففي ديوانه في الصفحة ٤٣٣ .
(٢) انظر سورة الأنعام ، الآية رقم ١٠٣.

ثم قال :

ألـم بمنزل أحـــــــــاب لـهـم ذمم
ســحت عليـهم ســحــاب صـوبهــا ديم

واســتنشــقــوا الريح من تلقــاء أرضـــهم
شـــوقــاً لتـــخــبـــرك الأرواح أين هـم

أظنهـم خـــيـــمــوا بالبـــان من أضـم
حــيث الـعـــرار وحــيث الشــيـح والكتم

يقول : انزل (بمنزل أحباب) ، يريد الأرواح العلوية .

(لهم ذمم) ، عهود ، وقد يريد اخذ المواثيق الإلهية ، المأخوذة على أرواح الأنبياء عليهم السلام .

(سحَّت عليهم) ، يقول : سكبت على ذلك المنزل .

(سحاب) ، يعني من المعارف .

(صوبها ديم) ، تنزلاتها دائمة .

وقوله (واستنشق الريح من تلقاء أرضهم) ، معناه : إني لأجِدُ نَفَسَ الرحمن من قبل اليمن[1] .

(شوقاً) ، يريد محبة .

(لتخبرك الأرواح) ، يريد عالم الأنفاس ، أين هم من المقامات . فإنه قال فيهم : ﴿وما منَّا إلاَّ له مقام معلوم﴾[2] .

وقوله (أظنهم) ، أعلم أنهم ، والظن هنا بمعنى اليقين كما قال الشاعر :

(١) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث .

(٢) انظر سورة الصافات ، الآية رقم ١٦٤.

(قلت لهم ظنوا بالغي مذحج)[1] ، وقال تعالى : ﴿وظنوا أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه﴾[2] يريد تيقنوا .

وقوله (خيَّموا بالبان) ، أي نزلوا بمقام الظهور والتنزيه .

(من أضم) موضع بالحجاز ، يريد القصور الإلهية .

(حيث العرار وحيث الشيح والكتم) ، يقول : حيث الأعرار[3] الطيبة ، من المناظر الحسان ، فإن طيب الروائح من الروضات ، أحسن من غيرها ، للجمع بين الرائحة الطيبة والمنظر الحسن والهواء الطيب .

ثم قال :

ألا يا بانة الوادي
بشاطي نهر بغداد[4]
شجاني فيك ميادٌ
طروب فوق ميادٌ

(١) كذا وردت وصوابها «مذحج» وهي قبيلة عربية . هذا والعبارة كما وردت من فاحش التصحيف فالصواب هو صدر بيت لدريد بن الصمة يقول :

علانية ظنوا بألفي مدجج
سراتهم في الفارسي المسرّد

ومطلع القصيدة يقول :

أرثَّ جديد الحبل ، من أم معبد
بعاقبة ، أم أخلفت كل موعد

(٢) انظر سورة التوبة ، الآية رقم ١١٨.

(٣) كذا وردت وأحسب أن المراد هو «الأعراف» جمع «العرف» وهو الرائحة مطلقة ، ولكن يستعمل في الغالب للدلالة على الرائحة الطيبة .

(٤) انظر للمقارنة قصيدة مطيع بن أياس والتي يقول مطلعها :

ألا يا ظبية الوادي
وذات الجيد الراد
وزين المصر والدار
وزين الحيّ والنادي

يقول : للشجرة المباركة من جانب الوادي الظاهر .

و(بغداد) ، منزل الإمام ، يريد مقام القطب ، وهي شجرة النور ، فإن دهن البان ، له أثر في النور ، وجعلها بالشاطي ، لأنها اكشف ، وجعله نهراً لاتساع الرحمة .

وقوله (شجاني) ، يقول أحزنني فيك طائر يريد روحاً علوياً .

(طروب) ، يقول مطرباً صوته ، إلاَّ أن المحزون يبكيه ، فهو شجو في حقه ، وغناء في حق المسرور .

وقوله (ميّاد) ، يشير إلى النشأة الإنسانية في مقام القيومية .

ثم قال :

يـــذكـــــــــــــــرنـــي تـــرنمـــه
تـــــرنم ربَّـــــــة الـــــنـــــــادي

إذا اســــتـــــوت مـــــثـــــالثـــــهـــــا
فـــــلا تـــذكـــــــر أخـــــا الـــهـــــادي

وإن جـــــادت بـــنـغـــــمـــــتـــــهـــــا
فـــــمن أنجـــــشـــــــة الحـــــــاد

يقول (يذكرني) بنغمته نغمة سيد المجلس ، وهي كل حقيقة لها الحكم في عالمها .

وقوله (إذا استوت مثالثها) ، يعني الجسم ، وجعله مثالث للطول والعرض والعمق ، وقد يريد بالمثالث ، مراتب الأسماء الثلاثة التي هي منزل الإمامين والقطب .

وقوله (فمن أنجشة الحادي)[1] ، حاد كان يحدو في زمن رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، كان يهلك الإبل بحسن صوته .

(١) هو عبد أسود كان حسن الصوت بالحداء وقد حدا مرة بأزواج النبي في حجة الوداع فأسرعت الإبل ، فقال له النبي : «يا أنجشة ، رويدك ، رفقاً بالقوارير» (انظر «أسد الغابة» لابن الأثير ، باب الهمزة والنون وما يثلثهما ، ص ١٤٤ ، من طبعة مصر) .

وقوله (فلا تذكر أخا الهادي) ، هو أمير المؤمنين ، عم المأمون[1] ، كان من أهل الغناء والتلحين . يقول هي أحسن منه .

ثم يقول :

بذي الخصمات من سلمى
يميناً ثم سنداد
لقد أصبحت مشغوفاً
بمن سكنت بأجياد
غلطنا إنما سكنت
سويدا خلب أكباد
لقد تاه الجمال بها
وفاح المسك والحادي

أُقسم (بذي الخصمات) ، وهو حال عام كليّ جامع .

وقوله (من سلمى) ، يريد مقاماً سليمانياً ، فأنزله باسم الأنثى ، لتجانس الغزل والتشبيب .

وقوله (يميناً) ، أي قسماً ، ثم أقسمت بمنازل الملوك .

وقوله (سكنت بأجياد) ، إشارة إلى مجاري الأنفاس ، أي سكنت مجرى نفسي ، وهو موضع بمكة ، لكن الإشارة إلى أنه جمع جيد ، وهو العنق .ثم قال : بل مسكنها الكبد ! يقول : هي غذائي وروحي ، لأن الغذاء مادة الروح ، فلهذا وقع الغلط ، وجعلها في محل الإمداد ، لا في محل الاستمداد ، أي تمدّ ولا تستمد .

وقوله (لقد تاه) ، أي حار الجمال فيها من حسنها .

(وفاح المسك والحادي) ، أي الذوات الطيبة الريح ، إنما يكسب الطيب من ريحها لطيب نفحتها .

---

(١) المقصود هنا هو إبراهيم بن المهدي المغنّي المعروف بابن شكلة وكان عم الخليفة المأمون بيد أنه لم يكن خليفة بل حاول ذلك ، وفرّ واختبأ من وجه ابن أخيه المأمون ولكن هذا سرعان ما ألقى القبض عليه ثم عفا عنه . أما الهادي فهو أخو الرشيد وأخو إبراهيم بن المهدي وكان ترتيبه الرابع بين خلفاء بني العبّاس .

تذييل المؤلِّف

قال المؤلف ، رحمه الله ونفعنا به والمسلمين :

كان سبب شرحي لهذا الترجمان ، الذي أنشأته بمكة ، شرفها الله تعالى وعظمها ، سؤال صاحبي المسعودي ، أبي محمد عبدالله بدر بن عبدالله الحبشي الخادم وسؤال الولد البارّ ، إسماعيل ابن سود كين نوري ، بمدينة حلب ، وقد سمع من بعض الفقهاء قولاً أنكره ، وهو أنه سمعه يقول قول الشيخ في أول هذا الترجمان ، إنه قصد بما فيه من الأبيات الغزلية ، علوماً وأسراراً وحقائق ، ليس بصحيح ، والله أعلم ، وإنما فعله تستراً ، حتى لا يُنْسَب إليه لسان الغزل ، مع ما هو عليه من الدين والصلاح ، فذكر ذلك لنا الولد ، شمس الدين إسماعيل ، فشرعت في شرحه بحلب ، وحضر سماع بعضه ذلك الفقيه المتكلم ، وجملة من الفقهاء ، بقراءة كمال الدين أبي القاسم ابن نجم الدين القاضي بن عديم[1] ، بمنزلنا ، وفقه الله . وأعجلنا السفر فأتممناه بأقصر ، أي في التاريخ المذكور .

ولما سمعه ذلك القائل ، قال لشمس الدين إسماعيل : ما بقيت بعد هذا الأمر ، أتهم أحداً من أهل هذه الطريقة ، فيما يتكلمون به من الكلام المعتاد ، ويزعمون أنهم يشيرون به إلى علوم اصطلحوا عليها بهذه الألفاظ ، وحسن ظنه فانتفع .

فهذا كان سبب شرحي لهذا الترجمان ولله الحمد والمنة وبه الحول والقوة .

---

(١) تقدم تعريفه في إشارة سابقة .

تذييل صاحب المطبعة الأنسية

بعد حمد الله على آلائه ، والصلاة والسلام على خاتم رسله وأنبيائه ، يقول الراجي من الله الفيض القدسي ، السيد محمد سليم بن السيد حسن الإنسي ، قد تم بعون الملك الخلاّق (كتاب ذخائر الأعلاق ، شرح ، ترجمان الأشواق) للقطب العالم الرباني ، وكوكب سماء التحقيق النوراني ، محي الملة والدين ، مُقَدِّم الكشف على البراهين ، الشيخ الأبر ، والكبريت الأحمر ، الإمام العارف بالله ، سيدي ، محي الدين بن العربي الحاتمي الطائي قدس الله سره العالي ، وأقبسنا من نوره المتلالي .

ولعمري ، إنه لحري بأن يكتب بسواد المسك على بياض الكافور ، وأن يعلق بخيوط النور ، على نحور الحور ، كيف لا وأنوار الحقائق تلوح من عباراته ، ويعبق شذا عرف المعارف من سحر بيان إشاراته .

وكان تمام طبعه الزاهر ، وكمال وضعه الباهر ، في «المطبعة الأنسية» ، في مدينة بيروت المحمية ، وقد لاح بدر تمامه ، وفاح مسك ختامه ، في الخامس والعشرين من شهر شوال سنة ألف وثلاثمائة واثنتي عشرة من هجرة النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وعظم وشرف وكرم آمين .